

منتدى الانتساب المطور



المملكة العربية السعودية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عمادة التعليم عن بعد

امادة بعنوان

تفسير

المستوى الخامس

نظام الانتساب المطور
(١٤٣١ هـ - ١٤٣٢ هـ)

جميع الحقوق محفوظة لمركز نبراس

ولا يجوز نسخ أو تصوير المذكرة في أي مكان فهي للاستعمال الشخصي فقط
فقد قال صلى الله عليه وسلم: إني لأرجو أن ألقى ربي، وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال.

(فَهْرُسُ الْمُحَاضَرَاتِ)

- المحاضرة الأولى (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١)..... ٣
- المحاضرة الثانية (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٤)..... ٧
- المحاضرة الثالثة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٢)..... ١٢
- المحاضرة الرابعة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٨)..... ١٥
- المحاضرة الخامسة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٢٧)..... ٢١
- المحاضرة السادسة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٣٢)..... ٢٧
- المحاضرة السابعة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٣٨)..... ٣٢
- المحاضرة الثامنة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٤٤)..... ٣٧
- المحاضرة التاسعة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٥١)..... ٤٢
- المحاضرة العاشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٥٤)..... ٤٧
- المحاضرة الحادية عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٥٩)..... ٥٢
- المحاضرة الثانية عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٧٣)..... ٥٧
- المحاضرة الثالثة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٨٥)..... ٦٢
- المحاضرة الرابعة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ٨٧)..... ٦٧
- المحاضرة الخامسة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٠١)..... ٧٢
- المحاضرة السادسة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٢٣)..... ٧٦
- المحاضرة السابعة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٣١)..... ٨٢
- المحاضرة الثامنة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٣٤)..... ٨٧
- المحاضرة التاسعة عشرة (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٤٢)..... ٩٢
- المحاضرة العشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٤٨)..... ٩٧
- المحاضرة الحادية والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٥٣)..... ١٠٢
- المحاضرة الثانية والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٥٧)..... ١٠٧
- المحاضرة الثالثة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٦٠)..... ١١٢
- المحاضرة الرابعة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٦٩)..... ١١٧

- المحاضرة الخامسة والعشرون (تفسير سورة الأعراف تلخيص قصة موسى عليه السلام)..... ١٢١
- المحاضرة السادسة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٧٢)..... ١٢٥
- المحاضرة السابعة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٧٦) ١٣١
- المحاضرة الثامنة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٨٠) ١٣٥
- المحاضرة التاسعة والعشرون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٨٨) ١٤٠
- المحاضرة الثلاثون (تفسير سورة الأعراف بداية من الآية ١٩٩)..... ١٤٥

المحاضرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد:

إخوتي الطلاب والطالبات درسنا لهذا اليوم، للمستوى الخامس في كلية الدعوة، والمقرر لهذا المستوى في التفسير هي سورة الأعراف، وسنأخذها إن شاء الله تباركاً على ثلاثين حلقة. أسأل الله بمنه وكرمه أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

سورة الأعراف أيها الإخوة والأخوات هي من السور المكية بل هي أطول السور المكية.

وهذه السورة سميت بسورة الأعراف؛ لورود ذكر الأعراف فيها، وهو مكان مرتفع بين الجنة والنار سيأتي له مزيد بيان في أثناء تفسير هذه السورة.

سورة الأعراف ذكرت القصص من بداية خلق آدم إلى نهاية الخلق مروراً بنوح عليه السلام، وبهود وصالح ولوط وشعيب وموسى -عليهم الصلاة والسلام-، وهذه السورة آياتها مائتين وستة وقد نزلت بعد سورة (ص)، ويوجد في آخر هذه السورة سجدة تلاوة، وهي أول السجدة الواردة في القرآن، وسورة الأعراف سورة مكية؛ لذا فطابعها طابع السور المكية في تقرير أصول العقيدة من توحيد الله جل وعلا وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

قرأ رسول الله ﷺ بهذه السورة في صلاة المغرب، قسمها بين الركعتين كما جاء في حديث عائشة عند النسائي وغيره. **هذه السورة سورة الأعراف فصلت ما أجمل في السورة قبلها** وهي سورة الأنعام؛ جاء في سورة الأنعام إجمالاً للرسول في قوله ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ثم جاء في هذه السورة تفصيل خبر هؤلاء الأنبياء؛ فقد جاء تفصيل خبر قصة نوح وقصة هود إلى عاد، وقصة صالح إلى ثمود، وقصة لوط إلى أهل سدوم، وقصة شعيب إلى أهل مدين وقصة موسى إلى فرعون وبني إسرائيل.

افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة التي افتتح بها بعض السور، فجاء في أولها قوله تعالى: ﴿المص﴾ [الأعراف: ١]، وقد اختلف المفسرون -رحمهم الله تعالى- في تفسير هذه الحروف المقطعة في أوائل السور، فمنهم من قال: "هي ما استأثر الله بعلمه" فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها وعليه جماهير المفسرين كما حكاه القرطبي في تفسيره عن كثير من الصحابة والتابعين، واختاره ابن حبان، ومنهم من فسر -من المفسرين- هذه الأحرف المقطعة في أوائل السور لكنهم اختلفوا في معنى هذه الحروف، فمنهم من قال: إن هذه الحروف هي أسماء للسور.

قال الزمخشري في تفسيره: "وعليه إطباق الأكثر" ثم نقل عن سيويه أنه نص على ذلك، ويعتضد لهذا القول المومأ إليه عند الزمخشري وغيره يعتضد له بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (الم) السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾)، فهنا في هذا الحديث سميت هذه السورة بالحرف الوارد في أولها وهو (الم) السجدة، وقال مجاهد: (الم) و(حم) و(المص) و(ص) فواتح افتتح الله بها القرآن.

وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر

بواقيها والتي هي تنمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في ألف باء تاء ثاء، أي أنه يكتب في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر أول هذه الحروف عن ذكر مجموعها كما حكاه ابن جرير وغيره. ومجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي: أ، ل، م، ص، ر، ك، هـ، ي، ع، ط، س، ح، ق، ن، يجمعها قولك: (نص حكيم قاطع له سر)، وهي نصف الحروف عددًا. قال الزمخشري في تفسيره: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة.

وفي الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور أقوال:

قيل: مع قطع النظر عن معانيها في نفسها لأنها حروف. قيل: إن الله ابتداءً بها لتفتتح أسماع المشركين كيما يسمعوا القرآن وقد تواصلوا بالإعراض عنه حتى إذا استمعوا له يتلى عليهم وابتدئ بهذه الحروف فإنهم يصغون لهذا القرآن ووقتها قد يستفيدوا منه وينتفعوا. وقال آخرون: بل إن ما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أن القرآن من جنس هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وقد حكى هذه المذهب الرازي عن المبرد وعن جمع من المحققين وحكى القرطبي - رحمه الله - عن الفراء وقطرب نحوًا من هذا وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم النصر وإليه ذهب شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية وغيره من العلماء. قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكي كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالتصريح في أماكن، قال وجاء منها على حرف واحد كقوله: ﴿ص﴾، ﴿ن﴾، ﴿ق﴾، وجاء منها على حرفين مثل قوله: ﴿حم﴾، وجاء منها على ثلاثة أحرف مثل قوله ﴿الم﴾ وجاء منها على أربعة أحرف مثل قوله: ﴿الم﴾، و﴿المص﴾، وخمسة أحرف مثل قوله: ﴿كهيعص﴾، و﴿حم﴾، ﴿عسق﴾؛ لأن أساليب كلام العرب إنما يقع على هذا من الكلمات، فمنها ما هو على حرف ومنها ما هو على حرفين، ومنها ما هو على ثلاثة أحرف ومنها ما هو على أربعة أحرف ومنها ما هو على خمسة أحرف لا أكثر من ذلك.

قال ابن كثير /: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، لا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول سبحانه: ﴿الم﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [البقرة: ١-٢] سورة البقرة، جاء بعد ذكر هذه الحروف المقطعة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وفي آل عمران: ﴿الم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ آل عمران: [١-٣]، وهنا في سورة الأعراف: ﴿المص﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ [الأعراف: ١-٢]، وفي سورة إبراهيم: ﴿الر﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ [إبراهيم: ١]، وفي سورة السجدة: ﴿الم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ [السجدة: ١-٢]، وفي سورة فصلت: ﴿حم﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فصلت: ١-٢] وفي الشورى: ﴿حم﴾ عسق ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن

أمعن النظر، إن هؤلاء الذين يقولون: إن هذه الحروف المقطعة التي ذكرت في أوائل السور إنما ذكرت لبيان أن هذا القرآن إنما هو جنس من هذه الأحرف وأنه مركب منها، وأنه لم يخرج عن هذه اللغة العربية، إذن فلماذا يقولون عنه بأنه كهانة؟ أو يقولون عنه بأنه سحر! أو يقولون إنما يعلمه بشر! كل هذا كلام مطرح فهو مما يعرفون وهو مما به يتكلمون.

هناك أيها الإخوة والأخوات من تكلم في تفسير هذه الأحرف، وراح في تيهاء بيداء يضرب أحساساً بأسداس ويذكر أقوالاً طوالاً عراضاً لا دليل عليها من كتاب ولا من سنة، فكم قيل فيها من أقوال لا يقبلها العقل ولا المنطق، فثمة من يقول: إن هذه الأحرف المقطعة في أوائل السور، إنما هي دالة على معرفة المدد كم تبقى هذه الأمة؟ وكم بقي إلى قيام الساعة؟ وأنه يستخرج منها أوقات الحوادث والفتن والملاحم، وقد ادعى هؤلاء ما ليس لهم وجاءوا بكلام لا يحتمله النص القرآني.

إخوتي الطلاب، أخواتي الطالبات، بعد أن ذكرت لكم هذا الموجز، من كلام للعلماء طويل عريض في الحروف المقطعة في أوائل السور، أدلف معكم لبداية تفسير مع جاء بعد هذا الحرف في سورة الأعراف، جاء بعده قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، هنا جاء الكتاب مرفوع وهو للتفخيم والتعظيم، أي أن هذا القرآن معظم وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله حجة على العالمين، ونبراساً لها كيما نستقيم على الحياة الصحيحة.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، كتاب: مرفوع بالابتداء، واكتفي هنا بالرفع؛ لأنه سبق بذلك الحرف (المص)، فهو كأنه قيل: كتاب أنزلناه إليك أو يرفع بإضمار (هذا كتاب).

ثم في قوله ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، قيل في تفسير الحرج: أقوالاً أشهرها أنه الشك، كما يؤثر عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن مجاهد وعن قتادة وعن السدي وابن قتيبة، وقيل: إن الحرج هنا إنما هو الضيق كما قاله الحسن والزجاج وغيرهما، ثم في قوله ﴿مِّنْهُ﴾ هاء الضمير هنا منه على ما تعود، فيها قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الكتاب أي لا يكن في نفسك من الكتاب حرج، وهنا لا بد من تبيان أن المقصود إذا قلنا إنها تعود إلى الكتاب، أي: لا يضيق صدرك بالإبلاغ ولا تخاف من صد قومك وعدم استماعهم له، ولا تشك وحاشاه أن يشك، ولكن الخطاب يوجه له وإن قصد غيره فهو ﷺ كان حريصاً على استجابة قومه، وعلى أن يسمعوا منه، وهو ﷺ حريص كل الحرص على ذلك، فلذلك قيل له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وكان ع يتعب نفسه في إبلاغ هذا الدين للناس، وقيل إنها ترجع إلى مضمير وقد دل عليه الإنذار وهذا المضمير هو التكذيب كما قاله ابن الأنباري وغيره.

فمعنى الآية على هذا لا يضيقن صدرك أن كذبك قومك.

وقوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾، أي لتنذر بهذا القرآن، وهو ﷺ نذير للبشر كلهم، وهو منذر للناس جميعهم، فهو ينذر بهذا القرآن أي يخوف به هؤلاء إن لم يستحيوا لله ولم يسمعوا كلامه؛ فإنه ينذرهم العاقبة الوخيمة التي لا شك هم صائرون إليها، وهو بعد ذلك ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، أي أن هذا القرآن فيه النذارة وهو ذكرى للمؤمنين أي ليتذكر به هؤلاء ويتعظوا به، ولذلك قال بعده مباشرة ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، فهنا بدأت النذارة منه ﷺ، وهي

عامة للناس كلهم، وهي ذكرى للمؤمنين؛ لأنه لا يتذكر إلا أهل الذكرى وأهل التقوى وأهل المغفرة، أما غيرهم فيندرون فإن سمعوا وإلا فإن الحجة قد قامت عليهم.

ثم قال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

إخوتي الطلاب أخواطي الطالبات: إن نبينا ﷺ كان حريصاً على الناس جميعاً أن يسيروا على جادة التوحيد، وأن يسيروا على طريق الهداية فكان يأمرهم أن يؤمنوا بما أنزل إليهم من رحمهم، وألا يتبعوا من دونه أولياء، وكم من الناس من اتبع هؤلاء الأولياء وضل عن طريقه القويم والله ﷻ أمرنا أن نجعل ولايتنا لمن يستحقها، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، قال بعد ذلك سبحانه: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، هنا ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾ يعني ما أكثر القرى التي أهلكها الله بسبب ظلمهم كم قال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۖ﴾ [الإسراء: ١٧]، فهنا كم لبيان الكثرة فهنا ألا يتعظ هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الأمم التي سبقتهم وكانوا أكثر منهم أموالاً، وكانوا أكثر عتاداً وكانوا أكثر قوة، فلم يمنع ذلك شيء من عذاب الله لما حلَّ بهم، وهذا الهلاك المتوعد به هؤلاء الضالون هو واقع لا محالة وهم في طريق الهلاك ما داموا على غير الوجهة الصحيحة ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، البيتوتة: هي النوم في الليل، والقيلولة: هو النوم في وسط النهار أو الراحة، إذن يأتيهم العذاب وهم في وقت راحتهم وفي وقت لهوهم، فاللهو يقع في الليل ويقع في وسط النهار عند الاستراحة، فيقع منهم ذلك فيأتيهم العذاب وهم على هذه الحالة لا يدرون ولا يتوقعون أن يقع عليهم. وإلى الدرس الثاني. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد:

إخوتي الطلاب والطالبات اليوم معنا الدرس الثاني في مقرر التفسير للمستوى الخامس كلية الدعوة.

قال جل وعلا: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، كم تدل للكثرة، قوله جل وعلا ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾، فالمعنى هنا وكم من أهل قرية فحذف الأهل؛ لأن في الكلام دليلاً عليه، قوله سبحانه: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ محمول على لفظ القرية والمعنى فجاءهم بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له، إما ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون، قال ابن قتيبة: معنى ﴿بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ومعنى ﴿بَيَاتًا﴾ أي ليلاً ومعنى ﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة وهي نصف النهار، وتسمى قائلة وقيلولة وهي الاستراحة في وسط النهار عند ارتفاع حرارة الشمس سواء صاحبها نوم أم لا، وهذا من المولى جل وعلا بيان أن القرى قبلها لما عصت ربها أهلكها سبحانه وهي كثيرة، فما الذي أهلك قوم عاد؟! وما الذي أهلك قوم هود؟! وما الذي أهلك قوم صالح؟! وما الذي أهلك قوم فرعون؟! وما الذي أهلك قوم لوط إلا المعاصي؟!، فكم من هؤلاء قد أهلكوا وأبيدوا وانتهوا! وقد ذكر القرآن كثيراً من الأمم المباداة في القرآن والتي انتهت ولم يبق لها عين تتطرف، بسبب عصيانها لله ﷻ، والله يغار على محارمه وليس بينه وبين خلقه نسبا.

قال جل وعلا: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥] أي: ما كان دعوى هؤلاء، أي ما كان دعاء هؤلاء وتداعيمهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم.

قال ابن الأنباري: وللدعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الادعاء، والثاني: القول وهو الدعاء.

قال الشاعر:

إذا ما ذلت رجلي دعوتك اشتفي بدعواك من مذلي بها فيهون

يقول هذا الشاعر: إن رجله إذا خدرت يذكر من يحب فيهون عليه ما وقع فيه.

قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧] يعني أن الأمم يسألون هل بلغكم الرسل، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ويسأل الرسل -يسألون- هل بلغتم أقوامكم؟ وماذا كانت إجابتهم لكم؟! كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ [المائدة: ١٠٩] يسألهم سبحانه وهو العالم بهم، ماذا أجابكم هؤلاء الذين أرسلناكم إليهم؟

قال سبحانه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٧] أي فلنخبرنهم بما عملوا بعلم منا، وما كنا غائبين أي هو مطلع سبحانه إطلاعاً تاماً كاملاً ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم هل أدى هؤلاء الرسل ما أمروا به؟ وهل هؤلاء الأقوام استجابوا لأمر الله ﷻ.

وقد قال ﷺ كما جاء في الصحيحين وغيرهما: (كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعيةٌ، وهي مسئولة عن رعيتهما، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته).

فكلنا سنسأل يوم القيامة ماذا أجبنا نبينا ع وماذا عملنا بهذا الوحي الذي بلغنا إياه؟!

قال ابن عباس ؓ: يوضع الكتاب فيتكلم بما كانوا يعملون والله سبحانه لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ثم قال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ۖ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، يقول سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، لأن من في معنى جميع يدل عليه قوله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾، وفي معنى ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قولان: أحدهما: يحدون والثاني: يكفرون، قال الفراء: والمراد بموازينه أي وزنه، والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك ويقولون: داري بميزان دارك، ووزن دارك ويريدون حذاء دارك. قال الشاعر:

عندي لكل مخاصم ميزانه

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة

يعني عندي مثل كلامه ولفظه.

وكما قال القائل:

وما وزنك به فزنه

زن من وزنك بما وزنك

أي ساويه في هذا وقابله به.

وفي هذه الآية دلالة على الميزان والأحاديث في الميزان المنسوب يوم القيامة مشهورة معروفة، وظاهر القرآن ينطق به وهناك من طوائف الضلال من أنكر هذا الميزان المنسوب للأعمال يوم القيامة كالمعتزلة وغيرهم، وقالوا: إن الأعمال أعراض فكيف توزن وهي أعراض؟! ويجاب على اعتراضهم هذا أن الوزن يرجع إلى الصحائف بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ب عن النبي ع أنه قال: (إن الله سبحانه يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر، ثم يقول له أنتكر من هذا شيئا؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟، فيقول: لا يا رب، فيقول الله ألك عذر أو حسنة فبهت الرجل وقال لا يا رب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب فما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء) أخرج هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه وقال حسن غريب، وروى أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: (يؤتى بالرجل الطويل الأكل الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة) فعلى هذا يوزن الإنسان.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن سورة

فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح سورة فيوضع في كفة الميزان فيخف وزنه.

وقال الحسن - رحمه الله - للميزان لسان وكفتان وجاء في الحديث: **(أنه ليؤتى بالرجل العظيم الثمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)**، فدل على أن لهذا وزن وأنه يوزن كما قال حذيفة رضي الله عنه: جبريل هو صاحب الميزان يوم القيامة، فيقول له ربه: زن بينهم ورد من بعضهم على بعض، فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة، فإن لم تكن له حسنة، أخذ من سيئات المظلوم فرد على سيئات الظالم فيرجع وعليه مثل الجبال، فإن قيل: أليس الله يعلم مقادير الأعمال فما الحكمة في وزنها؟ والجواب إخواني الطلاب والطالبات من وجوه: أحدها: أن في ذلك امتحان للخلق بالإيمان بذلك في الدنيا؛ لأن العامل إذا عرف أنه سيحاسب وسيوزن عمله اجتهد.

والثانية: إظهار لعلامة السعادة والشقاوة في الأخرى، فإن من رأى حسناته وقد رجحت يسعد ومن رأى سيئاته وقد خفت خف بها الميزان بمعنى أنها غلبت على حسناته؛ فهذا يشقى. أما الحكمة الثالثة: فهي تعريف العباد ما لهم من خير وشر، وقيل في ذلك إقامة الحجة عليهم، وقيل أيضاً في ذلك من الحكمة الإعلام بأن الله عادل لا يظلم، ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب واستنسخها من غير جواز نسيان عليه سبحانه، وإنما وضع هذا الميزان ليكون بين الناس ظاهراً لهم هذا العدل بالمعنى الحسي الذي يعرفونه في الدنيا فهم يزنون ما يشترون وما يبيعون ويعرفون ذلك في بيعهم وشرائهم فيعلمون أن هذا الأمر إنما جاء من قبلهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قوله جل وعلا: **﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** [الأعراف: ١٠]، يقول سبحانه ممتنا علينا فيما مكن لنا في الأرض وجعلها قراراً وجعل لها رواسي من فوقها، وجعل في خلالها أنهاراً وجعلها قارة ساكنة بنا امتناناً منه علينا **﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾**، مكننا لهم مكننا إياها وسهلها علينا لتتصرف بها وفي قوله: **﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۚ﴾**، في ذلك قولان للمفسرين قولان مشهوران:

أحدهما: أن معنى قوله: **﴿فِيهَا مَعَايِشَ ۚ﴾**، أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب.

أما القول الثاني: فهو ما تتوصلون به إلى المعاش من زراعة وعمل وكسب، فإن ذلك سبب لتحصيل المعيشة ففي الزراعة زرع للنبات، وبعد ذلك حصد له وأكل وفي العمل أيضاً تحصيل للأجرة، والأجرة يشتري بها ما يعيشه وفي الكسب في التجارات أيضاً، وفي قوله **﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۚ﴾**، أكثر القراء على ترك الهمز في معاش وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة.

روى خارج عن نافع قراءة مهموزة أي: وجعلنا لكم فيها معاش.

قال الزجاج: وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ؛ لأن الهمز إنما يكون في الباء الزائدة نحو صحيفة وصحائف فصحيفة من الصحف والياء زائدة فأما معاش فهي من العيش فالياء فيها أصلية.

قوله تعالى: **﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾**، وهذا نظير آيات كثيرات في القرآن، كقوله سبحانه: **﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي﴾**

الشُّكُورُ [سبأ: ١٣] فقليل من عباد الله من يشكر الله أي قليل شكرهم لله، وقال ابن عباس: "يريد أنكم غير شاكرين نعمه الكثيرة"، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، نعم الله علينا تترى الليل والنهار لكن من يشكرها قليل.

وشكرها يقع باللسان فنحمد الله على كل نعمة أنعمها علينا، وشكرها بالفعل أن نصرفها في طاعته سبحانه، كما قال ﷺ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ۖ﴾ [سبأ: ١٣]، فالشكر لا يكون فقط باللسان وإنما يكون بالعمل وإن أخذنا لهذه النعم من حلها ونصرفها في محلها هذا من شكرها أيضًا ومن شكر هذه النعمة أن نقدرها حق قدرها فلا نسرف فيها، فما زاد من طعام نصرفه إلى من يحتاجه ولا نرمي هذا الطعام في أماكن لا تليق به، فإن نعم الله إذا شكرت قرت وإذا كُفرت فرت، نعوذ بالله من زوال نعمه والله ﷻ هو المنعم المتفضل فحقه أن يشكر سبحانه ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] نعوذ بالله من كفران النعم.

قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] للمفسرين في هذه الآية أقوال كثيرة، أجمالها بالآتي:

قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أحد هذه الأقوال ولقد خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم في الأرحام، روى هذا القول عبد الله بن الحارث عن ابن عباس ؓ.

والثاني: ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال، وصورناكم في أرحام النساء. روى هذا القول سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ وهو قول لعكرمة.

القول الثالث: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني أن المعنى بقوله ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ آدم والمعنى بقوله ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ذريته من بعده، روى هذا القول عطية العوفي عن ابن عباس ؓ.

القول الرابع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي في ظهره، قال هذا القول مجاهد.

أما القول الخامس: فقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي نطقًا في أصلاب الرجال وترائب النساء.

أما قوله: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ عند اجتماع النطف في الأرحام وهو قول منسوب لأبن السائب.

القول السادس: قوله ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي في بطون أمهاتكم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فيما بعد الخلق. صورناكم بشق السمع والبصر قاله: معمر.

القول السابع: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم خلقناه من تراب ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: صورناه كم قاله الزجاج وابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه، فمن قال عني بقوله ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ آدم، فمعناه خلقنا أصلكم ومن قال صورنا ذريته في ظهره أراد إخراجهم يوم الميثاق كهيئة الذر.

القول الثامن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني الأرواح ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يعني الأجساد، وفي ثم المذكورة مرتين، قولان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، قاله الأخفش، والثاني أنها للترتيب كما قاله الزجاج وغيره.

وفي هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ امتناناً منه ﷻ أنه الخالق لنا والله الذي صورنا في الأرحام كيف يشاء ﷻ وهو المتصرف في خلقنا وتصويرنا على أكمل وأتم صورة، وهو تكريم لنا بهذا الخلق، فإن الله جلّ وعلا قد كرم بني آدم كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فمن هذا صنعه؛ يستحق الشكر ويستحق التمجيد سبحانه لا إله سواه ولا نعبد إلا إياه، عليه نتوكل وإليه ننيب، وإلى الدرس الثالث بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد أيها الإخوة والأخوات، هذا هو الدرس الثالث من دروس التفسير للمستوى الخامس في كلية الدعوة، وبدء هذا الدرس من قوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۚ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] هذه الآية تابعة للآية قبلها في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، فإبليس عدو الله اللعين رفض السجود لأبينا آدم تكبراً منه وعناداً، ورفض أن يسجد لآدم ظناً منه أنه أفضل من آدم؛ لأنه هو خلق من نار وآدم خلق من تراب فقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، ما هنا استفهامية ومعناها: الإنكار، أي لماذا لا تسجد؟ وقيل: إن (ما) في موضع رفع والمعنى أي شيء منعك من السجود؟ ويذكر أهل اللغة أن لا في هذا الموضع تأتي للتوكيد كقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ يَنْحَلُّ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، قال ابن قتيبة: وقد يؤتى بها وتأتي للتوكيد في الكلام والمعنى طرحها للإباء في الكلام أو جحد كهذه الآية، وإنما أوتي بها في هذا المكان؛ لأنه لم يسجد ومثله ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] على قراءة من فتح أنها، فزاد لا لأنهم لم يؤمنوا و ما يذكره أهل اللغة في بعض الأحرف من أنها للزيادة يقصدون بها التوكيد، ويقصدون الزيادة من الناحية الإعرابية أي أنها لا تؤثر إعراباً، لا يعنون أن حرفاً زاد في كلام الله أو نقص، ومعلوم حكم من قال هذا، ولا يصح أن ينسب إلى عالم من علماء المسلمين المعروفين الموثوقين أن يقول ذلك ولكنها الصنعة الإعرابية عند أهل النحو.

ومثل ذلك قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] كما في سورة الأنبياء، قال الفراء وغيره: لا ها هنا جحد محض وليست بزائدة والمعنى راجع إلى تأويل القول، والتأويل ما مر في هذه الآية معناه: من قال لك لا تسجد يعني الله جلَّ وعلا يقول لإبليس لماذا لا تسجد؟ فأحل المنع محل القول، ودخلت بعده أن لبدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه، وقال ابن جرير - رحمه الله - : في الكلام محذوف تقديره ما منعك من السجود فأحوجك ألا تسجد؟.

قال الزجاج: وسؤال الله تعالى لإبليس ما منعك؟ هو توبيخ له وليظهر أنه معاند ولذلك لم يتب عدو الله وأتى بشيء في معنى الجواب ولفظه غير جواب؛ لأن قوله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۚ﴾ [ص: ٧٦] إنما هو جواب لسؤال: أيكما خير؟ ولم يقل له هذا السؤال، لم يقل لإبليس أيكما خير؟، وإنما قيل له لماذا لا تسجد؟ فاكتمى بجواب لم يسأل عنه، كأنه يقول: منعني من السجود فضلي عليه، ومثله لو قلت لرجل كيف أنت؟ فقال: أنا صالح وإنما الجواب كنت صالحاً فيجيب بما يحتاج إليه وزيادة.

قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار وفضل ذلك من وجوه ذكرها بعض أهل التفسير.

بعض المفسرين رداً على إبليس وتفضيله لنفسه، يقول: إنك أنت من النار وآدم من الطين، وإن الطين أفضل من النار من طرق منها: يقولون: إن من طبع النار الطيش والالتهاب ومن طبع النار العجلة وكل ذلك مذموم، وإن من طبع

الطين الهدوء والرزانة وذلك ممدوح.

ويقولون أيضا: إن الطين سبب للإنبات والإيجاد والنار سبب للإعدام والإهلاك والإتلاف وكل ذلك سوء.

والثالث: أن الطين سبب في جمع الأشياء وتثبيتها والنار سبب لتفريقها، ومن هنا فإن خلق آدم أفضل، والعنصر الذي خلق منه أفضل من العنصر الذي خلق منه إبليس، والذي تفاضل به وهو هذا التفاضل من إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ هذه الأنانية عنده قد يأتي من يقلده فيها فيتكبر على الناس ويتعظم عليهم بدعوى أنه كذا أو أنه كذا يفخر بماله، يفخر بمكانته، يفخر بنسبه، يفخر بحسبه، يتعظم على عباد الله وما ذلك من عمل الأخيار، وما ذلك من الإسلام في شيء، فإن الإسلام أمرنا أن نكون مع بعضنا إخوة متحابين لا يفخر أحد على أحد، وقد جاء النص في عالمية هذه الرسالة كما في سورة الحجرات في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] فلا وجه أن يفخر أحد على أحد فكلنا لآدم وادم من تراب.

قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، قوله سبحانه: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ في هاء الكناية هنا قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى السماء، يعني اهبط من السماء، فاهبط منها: أي من السماء. القول الثاني: أنه عائد إلى الجنة أي اهبط من الجنة، قاله السدي وهو قول أكثر المفسرين كما قاله ابن كثير وغيره ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ يعني اهبط من الجنة، ومعلوم أن الجنة في السماء.

قوله سبحانه: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] إن قيل: فهل لأحد أن يتكبر في غيرها؟! يعني الآية هنا ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يعني في الجنة، هل لأحد أن يتكبر في غيرها؟ الجواب: أن المعنى ما للمتكبر أن يكون فيها، وإنما المتكبر في غيرها وأما الصاغر فهو الذليل، والصغار: الذل. قال الزجاج: استكبر إبليس بإبائه السجود فأعلمه الله أنه صاغر بذلك.

والكبر والخيلاء والتكبر ليس من أوصاف المسلم، فإن المسلم يتواضع لإخوانه وإن المسلم يحب للناس كل الناس الخير، كما قاله سبحانه مسترشداً بقوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، قال سبحانه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥]، إبليس عليه لعنة الله، لما علم مكانه من الإبعاد والطرده من رحمة الله طلب الإمهال والتأخير، قال ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأراد أن يعبر قنطرة الموت وسأل الخلود، فلم يجب إلى ذلك، وإنما أنظر إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، وقد بين مدة إمهاله، بين الله جلّ وعلا مدة إمهال إبليس كما في سورة الحجر بقوله سبحانه: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨] هو أمهل وأعطى النظرة والإمهال ولكن ليس على الإطلاق، وإنما هو إلى يوم الوقت المعلوم، ولماذا سأل الإمهال؟ أو ما هو الذي طلبه؟ قيل: إنه طلب الإمهال في الموت، وقيل طلب الإمهال في العقوبة، فإن قيل كيف قيل له ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وليس أحد أنظر سواه، الجواب: أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت، منظرون بأجلهم فهو منهم، وإن امتد العمر فليس العبرة بطول العمر وإنما العبرة بحسن العمل والخواتيم، كما قال الله عن أهل الكتاب ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] ليست العبرة بطول السنوات، ولكن العبرة بالعمل وبالخاتمة، فكم من الناس

يعيش السنوات الطوال وإنما يزداد بطولها الإثم نسأل الله السلامة.

وكم من الناس يعيش عمراً قصيراً، لكنه حافل بالخيرات يبارك له فيه فيموت يوم يموت وربه راض عنه غير غضبان فينال السعادة الأبدية التي لا نهاية لها، طول عمر إبليس لم ينفعه، هذا الإمهال لا ينفعه، فإنه من الصاغرين، وإنه من المبعدين، وإنه من المعذبين، نسأل الله السلامة ونسأله البعد عنه وعن ذريته.

ثم قال سبحانه حاكياً عن إبليس قال ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] لا زال يتوعد ولا زال يهدد آدم وذريته، لأنه سيقعد لهم طريقهم المستقيم، وسيأخذ عليهم جنبات الطريق ويعددهم عن الخير ويدلهم ويحثهم ويؤزهم على الشر، كما قال الله عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي ۚ﴾ [إبراهيم: ٢٢] يقول: لا أنفعكم ولا تنفعوني، إني كفرت بما أشركتموني من قبل.

نظرت أيها الإخوة كيف أن إبليس يتبرأ ممن أطاعوه! يتبرأ منهم يوم القيامة لما يدخلون النار ويأتي خطيباً فيهم ويقول لهم: هذا التبكيت لهم فيكون عذاباً أبدياً عليهم كما هم في العذاب الحسي، نسأل الله السلامة، فهنا يقول: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قيل في معنى الإغواء قولان مشهوران عند المفسرين:

أحدهما: أنه بمعنى الإضلال، قاله ابن عباس وعليه جمهور المفسرين.

القول الثاني: أنه بمعنى الإهلاك ومنه قوله جلّ وعلا في سورة مريم ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي هلاكاً، ذكر ذلك ابن الأنباري وغيره، وفي معنى قوله ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ معنى قوله ﴿فِيمَا﴾ قولان:
أحدهما: أنها بمعنى القسم أي فبإغوائك لي.

والثاني: أنها بمعنى الجزاء، أي فبأنك أغويتني ولأجل أنك أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال الفراء والزجاج: أي لأقعدن لهم على صراطك ومثله قولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

وفي المراد بالصراط ها هنا أقوال ثلاثة:

أحدها: أن المقصود به طريق مكة كما روي عن ابن مسعود وعن الحسن وسعيد بن جبير كأنه يريد أن يصددهم

عن الحج. القول الثاني: أن معنى ﴿لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن الصراط هنا المعنى به الإسلام كما هو مروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وعن ابن الحنفية ومقاتل. القول الثالث: أن الصراط المستقيم هنا المقصود به الحق كما قاله مجاهد. وهذا القول الثالث يدخل فيه ما قبله من القولين، فإن الإسلام والحج حق فيدخلان في هذا القول الثالث.

والصراط المستقيم هو الذي لا عوج فيه ومن هو غير الحق، الطريق القويم هو الحق؛ فإن الطرق المعوجة هي طرق الضلال فهو منتهى من أهل الضلال، وإنما يقعد لأهل الاستقامة يقعد لهم طريقهم الخير، طريقهم في النفع العام، يقف لهم في هذه الطرق ليصددهم عن الخير وليحثهم على الشر ويؤزهم إليه، ثم قال سبحانه ﴿ثُمَّ لَا تِنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] لا زال إبليس يتوعد.

﴿ثُمَّ لَا تَنْتَهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]

وهنا حتى يعني يبين أن النتيجة معلومة عنده أنهم لن يكونوا شاكرين، وإن الشكر لن يقع إلا من القلة القليلة.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَنْتَهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ﴾ للمفسرين في هذا أقوال سبعة:

أحدها: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي من قبل حسناتهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من قبل سيئاتهم كما هو مروي عن ابن عباس وغيره.

الثاني: مثل هذا القول الأول إلا أنهم جعلوا ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة كما هو مروي عن

النخعي والحكم بن عيينة.

أما القول الثالث: فهو مثل الثاني إلا أنهم جعلوا ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الحق أصدهم عنه، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾

من قبل الباطل أردهم إليه. كما هو مروي عن مجاهد والسدي.

القول الرابع: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من سبيل الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من سبيل الباطل، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل

آخرتهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من أمر الدنيا كما هو مروي عن أبي صالح.

القول الخامس: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من حيث يصرون ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾

من حيث لا يصرون نقل هذا القول عن مجاهد أيضاً.

القول السادس: أن المعنى لأتصرفن لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، كما قاله الزجاج وأبو سليمان الدمشقي.

فعلى هذا إخواني الطلاب والطالبات، على هذا يكون ذكر هذه الجهات للمبالغة في التأكيد.

أما القول السابع فهو: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فيما بقي من أعمالهم فلا يقدمون فيها طاعة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ فيما

مضى من أعمارهم فلا يتوبون عن معصية ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الغنى فلا ينفقونه في الطاعة ولا يشكرون الله على هذه النعم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محذور كما هو في تفسير الماوردي - رحمه الله -.

وإن إبليس هذا قد ذكر أنه سيقف لنا في جميع الطرق صداً عن الخير ودعوة إلى الشر، وإن إبليس لما ذكر هذه

الجهات ذكرها كلها إلا أنه لم يذكر أنه سيأتينا من فوقنا فيحول بيننا وبين رحمة الله فهو غير مسلط علينا من فوقنا وإننا نستعين الله عليه ونستعيز بالله منه وهو ضعيف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] قيل في معنى قوله شاكرين: أي موحدين كما هو

مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقيل: شاكرين لنعمتك، وإبليس اللعين توهم وظن وقدر ما كان واقعاً في الواقع، كما قال

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] وهو في هذا ساع ليل نهار في

إضلال عباد الله وجرهم إلى النار، نعوذ بالله من إبليس ومن ذريته ومن أعوانه ومن أتباعه، ونسأله جلّ وعلا أن يتوب علينا وأن يغفر لنا وأن يتولانا بلطفه ورحمته وأن يغفر لنا ما سبق لنا من ذنوبنا إنه على كل شيء قدير.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وإلى الدرس الرابع إن شاء الله تعالى.

المحاضرة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين،
الدرس الرابع من دروس التفسير للمستوى الخامس في كلية الدعوة.

قال جلّ وعلا: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۚ لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٨-١٩]،
قوله سبحانه: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ [الأعراف: ١٨] قرأ الأعمش: مذومًا بضم الذال من غير همز، وقرأ الفراء: الذأم الذم، قال الفراء: الذأم الذم يقال ذأمت الرجل أذؤمه ذأما، وذمته أزمه زمًا، وزمته أزمه زمًا، ويقال: رجل مذوم ومذوم ومذم.

وقال ابن قتيبة: المذوم المذموم بأبلغ الذم والمدحور المقصى المبعد.

وقال الزجاج: معنى المذوم كمعنى المذموم والمدحور المبعد من رحمة الله، واللام في قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم والكلام بمعنى الشرط والجزاء، كأنه قيل له: من تبعك أعذبه فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد فلام ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هي لام القسم ولام ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ توطأة لها، فأما قوله سبحانه: ﴿مِنْهُمْ﴾ فقال ابن الأنباري: الهاء والميم عائدتان على ولد آدم؛ لأنه حين قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ كان مخاطبًا لولد آدم، فرجع إليهم فقال ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، فجعلهم غائبين؛ لأن مخاطبتهم في ذا الموضع ترجع إليه، والعرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب ويسمى التفاتًا عند أهل اللغة.

ومن قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] خطاب لآدم، قال فأعاد الضمير الهاء والميم على ولده؛ لأن ذكره يكفي من ذكرهم، والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد، إذا انكشف المعنى.
قوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ يعني أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، قوله جلّ وعلا ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ قيل: إن الوسوسة إخفاء الصوت، كما قال ابن فارس: الوسواس صوت الحلي، ومنه وسواس الشيطان، و﴿لَهُمَا﴾ بمعنى إليهما، ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما، ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ أي ما ستر، وقيل: إن لام ﴿لِيُبْدِيَ﴾ لام العاقبة وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عوراتهما، ولم تكن الوسوسة لظهورها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾، قال الأخفش والزجاج معناه: ما نحاكما إلا كراهة أن تكونا ملكين.

وقال ابن الأنباري: المعنى إلا أن تكونا فاكنتي بأن من لا فأسقطها، فإن قيل: كيف انقاد آدم لإبليس مستشرقًا إلى أن يكون ملكًا، وقد شاهد الملائكة ساجدة له؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: أنه عرف قريهم من الله، واجتماع أكثرهم حول عرشه فاستشرف لذلك، كما هو عند ابن الأنباري وغيره.

القول الثاني: أن المعنى إلا أن تكونا طويلي العمر مع الملائكة أو تكونا من الخالدين لا تموتان أبدًا، كما قاله أبو

سليمان الدمشقي، وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير أن تكونا ملكين بكسر اللام وهي قراءة الزهري: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا بِخَصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۚ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٥].

قوله سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما، فدلاهما في المعصية بأن غرهما.

قال ابن عباس: غرهما باليمين وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً وما أكثر الشياطين الذين يحلفون وهم كذبة فيغترون الناس ويضلونهم، ومن الناس من يظن الناس صادقين كلهم، فيصدق هؤلاء الأبالسة، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، أي فلما ذاقا ثمر الشجرة، وهذا يدل على أنهما إنما ذاقا ذواقا ولم يبالغا في الأكل.

وهنا يتبين أن المعصية معصية حتى وإن قلَّت فهي معصية، والسوءة كناية عن الفرج، لا أصل له في تسميته، ومعنى طفحا أي أخذوا في الفعل، والأكثر طفحا يطفق، وقد رويت طفق يطفق بكسر الفاء، ومعنى ﴿يُخَصِّفَانِ﴾ أي يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذي يرقع النعل خَصَّاف وفي الآية دليل على إن إظهار السوءة قبيح من لدن آدم، ألا ترى إلى قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَوَرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَاتِهِمَا﴾ فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف، ولا زال إبليس وجنده ساعون ماضون في كشف العورات، وإبدائها وإظهارها وإلى اقتحام سور الفضيلة، وإلى إخراج هذه العورات التي أمر الله أن تستر، وفي الآية دليل على إن إظهار السوءة قبيح من لدن آدم وهو بفطرته يعرف ذلك، ولذا أخذ يجمع الأوراق ليستر عورته من أن تنكشف، وقيل: إنما سميت السوءة سوءة؛ لأن كشفها يسوء صاحبها.

قال وهب بن منبه: "كان لباسهما نوراً على فروجهما، لا يرى أحدهما عورة الآخر، فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوءاتهما، وقرأ الحسن ﴿سَوءَاتِهِمَا﴾ على التوحيد، وكذلك قرأ ﴿يُخَصِّفَانِ﴾ بكسر الياء وقرأ الزهري بضم الياء ﴿يُخَصِّفَانِ﴾ وفتح الخاء، ﴿يُخَصِّفَانِ﴾ مع تشديد الصاد وفي الورد المذكور قولان: أحدهما: أنه ورق التين كما قاله ابن عباس، والثاني: أنه ورق الموز كما ذكره كثير من المفسرين ولا دليل على تخصيص أي منهما إذ لم يرد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم تحديد لذلك، والقصة واضحة ومغزاها مفهوم دون تحديد أي ورق كان هذا الورد الذي أخذوا يخصفانه، وأما ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني في الأرض واختلف القراء في ﴿تُخْرَجُونَ﴾ فقرأ ﴿تُخْرَجُونَ﴾ وقرأ ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوءَاتِكُمْ وَرِيشًا ۚ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قوله ﴿يُؤَارِي﴾: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾، سبب نزولها أن ناساً من العرب كان يطوفون بالبيت عراة، كانوا يعتقدون أن الثياب التي عصوا الله فيها لا يصح أن يطوفوا بها في بيته وهم قد عصوا الله فيها، فينتقلون إلى معصية أخرى، وهم لا يشعرون فيطوفون عراة، فنزلت هذه الآية ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوءَاتِكُمْ﴾ وهو امتنان من الله أن رزقنا هذا اللباس الذي نستتر به عوراتنا، وقيل: إنه لما ذكر عري آدم من علينا سبحانه بأن أوجد لنا اللباس.

وفي معنى ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أقوال:

قيل: خلقنا لكم، وقيل: ألهمناكم كيفية صنع اللباس، وقيل: أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباسا، وأكثر القراء قرءوا وريشا، وقرأ ابن عباس والحسن وزر بن حبيش وقتادة والمفضل وأبان عن عاصم ﴿وريشا﴾ بآلف. قال الفراء: تجوز أن تكون الرياش جمع ريش ويجوز أن تكون بمعنى الريش، كما قالوا: لبس ولباس. قال ابن عباس ومجاهد: الرياش المال، وقال عطاء: المال والنعيم، وقال ابن زيد: الريش: الجمال، وقال معبد الجهني: الريش: الرزق، وقال ابن قتيبة: الريش والرياش ما ظهر من اللباس، يعني اللباس الخارجي، وقال الزجاج: الريش اللباس، وكل ما ستر الإنسان في لبسه ومعيشته، يقال تريش فلان: أي صار له ما يعيش به، وعلى قول الأكثرين الريش والرياش بمعنى واحد.

قال قطرب: الريش والرياش واحد، وقال سفيان الثوري: الريش: المال والرياش: الثياب. قوله سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ ولباس بالرفع، وقرأ ابن عامر ونافع والكسائي بنصب اللباس، قال الزجاج: من نصب اللباس عطف به على الريش، ومن رفعه، فيجوز أن يكون مبتدأ ويجوز أن يكون مرفوعا بإضمار هو، المعنى: وهو لباس التقوى، أي وستر العورة لباس المتقين، وللمفسرين في ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ أقوال أجملها بالآتي: في قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ أقوال:

أحدها: أنه السمت الحسن، قاله عثمان بن عفان، ورواه ابن عمرو الزبالي عن ابن عباس.

والثاني: أنه العمل الصالح، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أنه الإيمان، قاله قتادة وابن جريج والسدي، فعلى هذا سمي لباس التقوى؛ لأنه يقي العذاب.

القول الرابع: أنه خشية الله تعالى، قاله عروة بن الزبير.

والقول الخامس: أنه الحياء قاله معبد الجهني وابن الأنباري.

القول السادس: أنه ستر العورة للصلاة كما قاله ابن زيد وغيره.

القول السابع: أن لباس التقوى هو الدرع وسائر آلات الحرب، قاله زيد بن علي.

أما القول الثامن: فهو العفاف كما قاله ابن السائب، والعفاف يدعو إلى ستر العورة.

القول التاسع: أن لباس التقوى هو ما يتقى به الحر والبرد، قاله ابن بحر.

أما القول العاشر في تفسير ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ هنا: أن المعنى ما يلبسه المتقون في الآخرة خير مما يلبسه أهل الدنيا،

رواه ابن عطاء عن أبيه.

والتقوى إخوتي الطلاب والطالبات شأنها عظيم جدًّا، والقرآن من فاتحته إلى خاتمته كأنما هو حديث عن التقوى، إذ

التقوى تشمل الدين كله، ظاهره وباطنه، أقواله وأفعاله، وانظروا إلى أول سورة بعد الفاتحة وهي البقرة ماذا قال الله فيها:

﴿الْم ۖ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۚ فِيهِ ۚ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، هدى لمن هدى للمتقين، ثم ذكر أوصافهم،

والحديث عن التقوى يطول، فهو جماع الخير كله، فإن المتقين هم عباد الله وهم الذين تتقبل أعمالهم، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهم الذين يحصلون العلوم النافعة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبتقوى الله تصلح الأمور، وتهون الصعاب، ويحصل الخير، وتنزل الأمطار، وتكثر الخيرات، وتندفع الشرور.

التقوى أمرها عظيم وخطير، وكم من المؤلفات ألقت فيها ولم تفيها حقها وقدرها، فأمرها وشأنها عظيم وخطير ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فلباس التقوى: التذرع بالتقوى، جعلها لباساً، جعلها نبراساً، جعلها هدفاً للإنسان، جعل التقوى نصب عينيه، يتقي الله سبحانه فيما يأتي وفيما يذر، يفكر قبل أي عمل يعمل، هل هو مما يحبه الله ويرضاه، هل هو وفق شرع الله، وما شرعه رسول الله ﷺ.

المتقي لله دائماً مراقباً لله، يحذر مما يغضب الله لا يفعل فعلاً إلا على هدى ونور من الله، يرجو رضا الله سبحانه، يخاف عقابه، فهو من أولياء الله المتقين وهو من حزيه المفلحين.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾، قال ابن قتيبة: المعنى ولباس التقوى خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فهو بادي العورة وذلك أمر ظاهر، فإن أصحاب الفجور وأصحاب المنكرات، وإن حاولوا يغطون فجورهم وطغيانهم بألبسة متنوعة، وألبسة منمقة، وألبسة مزخرفة إلا أن شؤم المعصية ورائحة الذنوب تزكم أنوف من حولهم ويُدرون ما عند هؤلاء، ولا يستطيعون أن يخفوا ما هو داخل قلوبهم.

كما قال عثمان ؓ: ما أسر امرؤ سريرة إلا أظهرها الله على قسماط وجهه وعلى فلتات لسانه، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه، كما قال الحسن البصري: "لا يغرنك من أهل المعاصي والمنكرات وإن دملحت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال، فإن شؤم المعصية لا يفارقهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

التقوى هي الخير ولباس التقوى هو الخير، وهو العاصم من الفتن بإذن الله، وهو التاج على رؤوس الأنقياء والصلحاء وعباد الله الصالحين، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ أي لباس التقوى هو الخير، وهو اللباس الأول وإنما أعاد هذا لما أخبر عنه بأنه خير من التعري، إذ كانوا يتعبدون في الجاهلية بالتعري في الطواف.

قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي هذه الثياب وهذا المال من آيات الله سبحانه التي أوجدها لنا ومكننا منها، واستخلفنا فيها في هذه الأرض كيما نتذكر، وكيما نعتبر في صنع الله ﷻ، وفي خلقه وفي جمال ما صنع سبحانه، فنشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وكم في الناس من يكفر هذه النعم، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وانظروا - رعاكم الله - كيف غاير بين الأمرين فيما يتعلق بالشاكرين والكافرين، فهنا إما شاكرًا على وزن فاعل وإما كفورًا على وزن فاعول، ومعلوم في اللغة الفرق بين وزن فاعل وفاعول، فإن فاعول تدل على المبالغة والكثرة، كما قال سبحانه ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] يعني قليل الذي عنده الشكر الكثير، وإنما يوجد شاكر كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾ يوجد من يشكر لكن أن يكون على الكثرة، فالكثرة في هؤلاء الكافرين؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ﴾ [الأنعام: ١١٦] وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، فإن الكثرة الكاثرة قضى الله قدرًا وشرعًا أن تكون في الكافرين، هم

الكثرة وهم باقون بهذه الكثرة منذ وقت البعثة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فأكثر أهل النار هم هؤلاء الكفار وهم باقون في كثرتهم ولن يضرهم المسلم أن يوجد من هؤلاء الكثرة، وإن الحق أبلغ وإن الباطل لجلج وأنت القوي وأنت الكثير، وإن كنت وحدك على الحق، وهؤلاء وإن كثروا وإن تزحرفت لهم الحياة فإنهم إلى وبال، نعوذ بالله من حال الكفر وأهله.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد.

المحاضرة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخواني الطلاب أخواقي الطالبات، نحن اليوم مع الدرس الخامس من دروس التفسير من سورة الأعراف ومع قوله ﷻ ﴿بَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۚ إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] يخاطبنا جلّ وعلا جميعا نحن بني آدم ألا نفتتن بالشیطان وأن الشیطان واقف لنا بالمرصاد ليفتننا عن ديننا وليضلنا عنه وهو خطاب موجه لبني آدم في جميع العصور وفي أي مكان كانوا.

وإن قال بعض المفسرين: إن هذا الخطاب عام مخصوص إذ خصوه بالذين كانوا يطوفون عراة في البيت الحرام، والصحيح أن هذا الخطاب عام وإن دخلوا فيه دخولاً أولياً، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، هذا إذا توجه السبب وكان له توجه صحيح، فكيف وهو عام فيبقى على عمومته ويدخل فيه جميع أفرادها، فالله يخاطب بني آدم جميعاً قائلاً لهم ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وعلى بني آدم أن يأخذوا عبرة من قصة الأبوين آدم وحواء عندما فتنهما عدو الله إبليس، وعندما تسبب في خروجهما من الجنة، لا يخدعنا هذا الشيطان ولا يضلنا بغروره، فيزين لنا كشف العورات كما أخرج أبونا من الجنة بغروره، وهو اليوم هو وأعوانه قد وقفوا لبني آدم في جميع الطرقات داعين لهم بكشف العورات وما هذا التعري الحاصل في العالم اليوم والدعوة إليه إلا من فتنة إبليس وذريته، وأضيف الإخراج هنا ونزع اللباس إليه؛ لأنه هو المتسبب وفي ﴿لِبَاسَهُمَا﴾ الوارد هنا للمفسرين أربعة أقوال:

أحد هذه الأقوال أن ﴿لِبَاسَهُمَا﴾ هو النور كما رواه أبو صالح عن ابن عباس، وقد مر معنا أنه قول لابن منبه.

أما القول الثاني: فإن لباسهما الذي انتزع عنهما بسبب إضلال إبليس لهما، فإنه كان كالظفر فلما أكلا لم يبق عليهما منه إلا الظفر رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وبه قال عكرمة وابن زيد.

القول الثالث: أن هذا اللباس هو التقوى كما قاله مجاهد، ولا شك أن التقوى خير لباس، ولا شك أن لباس التقوى خير، ولا شك أن التقوى تعصم من إضلال إبليس ومن فتنته وهي بإذن الله تكون عاصمة وممانعة من وقوع هذا الإضلال منه قاتله الله.

القول الرابع: أن هذا اللباس كان من ثياب الجنة ذكره القاضي أبو يعلى والآية هنا لم تذكر لباساً معيناً فبقاؤها على عمومها أولى إذ لا نص عن المعصوم ﷺ يعتمد عليه وما هي إلا اجتهادات من هؤلاء الذين قالوا هذه الأقوال وقد تدخل كلها وقد يكون غيرها، فالآية أطلقت اللباس فيبقى على إطلاقه وهو مؤيد للمعنى.

قوله جلّ وعلا ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۚ﴾ أي ليري كل واحد منهما سوءة صاحبه.

﴿إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٢٧] قال مجاهد -رحمه الله- : قبيله هنا هم الجن والشیاطین، قال ابن عباس: جعلهم الله يجرّون من ابن آدم مجرى الدم وجعل صدور بني آدم مساكن لهم، فهم يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم، لأنه يوسوس لهم ويزين لهم ويدلهم على هذه الشرور وينمقها لهم، فكأنه يخاطبهم وكما صح في الحديث عنه ﷺ أن (الشیطان یجری من ابن آدم مجرى الدم) بمعنى أنه يخاطب له ولكن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿وَمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

نَزَّ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ ﴿الأعراف: ٢٠٠﴾ إن استعاذتنا بالله قولاً وعملاً تعصمنا من عدونا ومن إضلاله ومن فتنته.

قوله جلّ وعلا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال الزجاج: أي سلطانهم عليهم يزيدون في غيهم وقال أبو سليمان: جعلناهم موالين لهم والشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، هم اتخذوهم أولياء، إذ هم سمعوا ما تمليه عليهم هذه الشياطين من شياطين الجن والإنس ويسمعون عنهم ويأخذون بما يملونه عليهم، فكانوا كالأولياء لهؤلاء وكانوا موالين لهم أي مُصادقين لهم مُحبين لهم مقتفين آثارهم، كل منهم اتخذ الآخر ولياً وحميماً.

قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۖ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] هكذا كان اعتذار هؤلاء الكفرة، يفعلون الذنوب ويعتذرون بالتقليد، والتقليد لا يكون سبباً مُبيحاً لفعل المعاصي والموبقات، فإن المقلد قد باع حرّيته وقد باع شخصيته لغيره، فاقتفى أثره ولا يكون هذا من العاقل، إنما العاقل يتبع الحق أيّاً كان هذا الحق ومع من كان هذا الحق، أما الباطل فيتركه ويتجنبه وإن قال به من قال.

هؤلاء يفعلون تلك المعاصي والموبقات ويعتذرون بعد ذلك بأنهم وجدوا الآباء عليها ثم يزيدون الطين بلّة، ويدعون أنها من شرع الله وأن الله قد أباحها لهم كما يفعل الأبالسة وأعوانهم، يضلّلون على الناس بأن هذا الأمر مشروع وجائز شرعاً كما يميل قلوب الناس إليهم، وهذا فرض زور وبهتان منهم، في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ من المعنى بها قيل هم ثلاثة:

قيل: هم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة وهو في الحقيقة عام يشملهم ويشمل غيرهم، والفاحشة: هي كشف العورة، إذ إن كشف العورة بريد وطريق لفعل الفاحشة.

رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس وبه قال مجاهد وزيد بن أسلم والسدي.

إن إبداء الفاحشة محرم ولا شك وإن إبداءها وإظهارها هو طريق إلى وقوع الفاحشة الكبرى.

القول الثاني: أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس.

القول الثالث: أنهم هم المشركون والفاحشة: هي الشرك، قاله الحسن وعطاء والشرك معلوم أنه هو أكبر الكبائر وأنه

أكبر الذنوب التي عصي الله بها ولكن هذا الشرك تحته معاصي كبار، منها: الفاحشة المعروفة بالزنا واللواط والشذوذ وغيرها من الفواحش، إذ الفواحش في اللغة معناها ما فحش وما غلظ من الأمور القبيحة وما استعظم أمره وخطره.

قال الزجاج: فأعلمهم ﷻ أنه لا يأمر بالفحشاء؛ لأن حكمته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن والقسط: هو

العدل، والعدل: ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره مميز، فكيف يأمر الله بالفحشاء وهي ما عظم قبحه؟! إن هذا لافتراء من هؤلاء وزعم بجعل الباطل حقاً وإلباسه لباس الشرع؛ من أجل أن يضلّلوا على البسطاء من الناس، يضلّلوا عليهم تلك الطوام وتلك المصائب وتلك العظائم كيما يسرون عليها.

قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٩] هم يقولون: إن الله أمر بالفاحشة يرد عليهم قائلاً:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

[الأعراف: ٢٩]، قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ﴾ أي أمر بالحق وأمر بالعدل ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ للمفسرين أربعة أقوال في تفسير هذه الآية:

القول الأول: معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ القول الأول: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي، قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة.
كم من الناس وهو يسير في الطريق يسمع الأذان فيقول: أصلي في المسجد القريب من بيتي فتفوته الصلاة ثم يصل إلى البيت وقد أغلق باب المسجد، فيقول أصلي في البيت فيدخل البيت وإذا به قد أصابه الكسل والإعياء والتعب وقد ينام عن تلك الصلاة فيخرج وقتها، وهو الطامة الكبرى؛ لأن الله سبحانه جعل للصلوات أوقاً لا تصح إلا فيها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

القول الثاني: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، قاله مجاهد والسدي وابن زيد ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩] أي اجعلوا وجوهكم إلى القبلة هذا هو القول الثاني.

القول الثالث: اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره، قاله الربيع بن أنس ولا شك أن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢] ما معنى أحسن عملاً؟ أي أخلصه وأصوبه، فإن الله لا يقبل العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، كذا لا يقبله إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لوجهه ﷻ.

القول الرابع: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمراً بالجماعة لها وهو على الرجال، كما هو معلوم أن صلاة الجماعة واجبة على الرجال أي اجعلوا صلاتكم في المسجد جماعة، ذكره الماوردي في تفسيره وغيره وفي قوله ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].
قوله: ﴿وَادْعُوهُ﴾ في معناها قولان:

القول الأول: أتمها العبادة، يعني ادعوه، أي اعبدوه يدل لذلك قوله جلّ وعلا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فسمى الدعاء هنا عبادة.

القول الثاني: ﴿وَادْعُوهُ﴾ بمعنى الدعاء، القول الأول: بمعنى العبادة والقول الثاني: بمعنى الدعاء ويظهر أن كلاهما يطلق على الآخر، فإذا أطلقت العبادة، دخل فيها الدعاء وإذا أطلق الدعاء، فالدعاء هو عبادة وكما جاء في الحديث الحسن أن (الدعاء هو العبادة) أو أن (الدعاء مخ العبادة).
وفي تفسير قوله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قولان:

أحدهما: مفردين أو مفردين له العبادة، يعني تعبدونه وحده لا شريك له.

والثاني: موحدين له غير مشركين، كما قال سبحانه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، فالعبادة لا بد أن تكون خالصة وأن تكون واقعة على وفق ما جاء به محمد ﷺ ولا بد لكل عبادة من شاهدي عدل من الكتاب والسنة، وإلا ردت على صاحبها كما قال ع من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد، وفي قوله جلّ

وعلا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ثلاثة أقوال:

القول الأول: كما بدأكم سعداء وأشقياء كذلك تبعثون، روي هذا المعنى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال مجاهد والقرظي والسدي ومقاتل والفراء.

القول الثاني: كما خلقتكم بقدرته كذلك يعيدكم سبحانه، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن زيد والزجاج وقال هذا الكلام متصل في قوله ﴿فِيهَا تَخْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

والثالث: كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تعودون، ذكره الإمام الماوردي في تفسيره وغيره ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] كما بدأنا ﷻ وبدأ خلقنا سعيدينا سبحانه وسيعثنا وسيحاسبنا، والإعادة أهون من البداءة وكله عليه هين سبحانه، فهو الذي خلقنا من العدم وأوجدنا وهو الذي سيعثنا بعد موتنا ويحاسبنا على أعمالنا ويجازي كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فكما بدأنا سعيدينا سبحانه إلى النشأة الأخرى.

قوله جلّ وعلا: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]

قوله سبحانه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ قال الفراء في تفسيرها: نصب (فريقاً) بقوله (تعودون)، وقال ابن الأنباري: نصب (فريقاً) على الحال من الضمير الذي في تعودون يريد تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين بعضكم سعداء وبعضكم أشقياء. قوله ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ﴾ أي بالكلمة القديمة والإرادة السابقة، أي بما كتب عليهم في اللوح المحفوظ بما هم فاعلون فالله قد علم أفعال العباد قبل أن يخلقوا، علم ما هم عاملون، وعلمه سبحانه لا يعني إجبارهم على العمل وإنما هم يعملون الخير ويعملون الشر مختارين لا مجبرين، ويجازون على أعمالهم؛ لأن الله وهبهم الاختيار فهم هنا مختارون وليسوا مسيرين.

قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال جلّ وعلا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمرنا ﷻ أن نأخذ الزينة عند كل مسجد، قال بعض المفسرين: أي عند كل صلاة، نأخذ للصلاة اللباس الطيب، اللباس الطاهر، اللباس النظيف، من أجل أن تكتمل هيئتنا لأننا نصلي صلاة نتجه بها إلى خالقنا جلّ في علاه، وكما يقع بعض المصلين في أخطاء عندما يأتي إلى المسجد بثياب فيها روائح كريهة فيؤذي المصلين، أو يؤثر في فرش المسجد بما يعلق بالفرش مما كان عالقاً في لباسه والله قد أمره أن يأخذ زينته عند كل صلاة حتى ولو كان سيصلي في بيته عليه أن يصلي وهو على هيئة طيبة، وقد لبس لباساً نظيفاً، ولباساً نقيّاً من أجل أن يقابل الله في هذه الصلاة وهو على هذه الحال.

جاء في سبب نزول هذه الآية ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال يطوفون بالنهار وتبقى النساء إلى الظلام فتطوف وهي عارية، وكانت المرأة تعلق على فرجها سيورا، أي أشبه ما يكون بالحبل القليل الذي لا يغطي، وترتجز بعضهن وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

إذا كانت تقول هذا وتشعر أنها فعلت محرماً، تقول: وما بدا لا أحله، فلماذا أصلاً تخرجه؟! عجيب من بعض هؤلاء النسوة اللاتي يبدن شيئاً من زينتهن، مع أنهن لو رأين رجلاً ينظر إليهن كرهن نظره إليهن، وهن السبب في لفت انتباهه، فالأولى بالمسلمة أن تتستر وأن تحفظ نفسها من عيون هؤلاء الذين يأكلونها بعيونهم.

نزلت هذه الآية في هؤلاء الذين كانوا يطوفون عراة، فأمرهم الله أن يتزينوا بألبستهم؛ لأداء هذه العبادة ولا شك أن الطواف عبادة.

قال هذا القول ابن عباس، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: "كانوا إذا حجوا فأفاضوا من منى لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشتروا أن يطوفوا في ثوبين، فيلقيهما حتى يقضي طوافه، يعني جاء من خارج مكة فيتزع لباسه الذي كان عليه، ويلبس لباساً آخر ظناً منه أنه إذا غير لباسه أنها تقبل طاعته وأنها تغفر ذنوبه فنزلت هذه الآية.

وقال الزهري: كانت العرب تطوف بالبيت عراة، إلا الحمسا من قريش وأحلافها، فمن جاء من غيرهم وضع ثيابه، وطاف في ثوبي أحس من هؤلاء الذين كانوا يلبسون ثياباً - طائفة كانت في قريش -، فإن لم يجد من يعيره من الحمس ألقى ثيابه وطاف عرياناً. فإن طاف في ثياب نفسه جعلها حراماً عليه إذا قضى الطواف لا يلبسها؛ فلذلك جاءت هذه الآية وفي هذه الزينة قولان:

أحدهما: أنها الثياب ثم في الثياب المرادة هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ورد في ستر العورة في الطواف قاله ابن عباس والحسن وجماعة.

والثاني: أنه ورد في ستر العورة في الصلاة قاله مجاهد والزهري.

والثالث: أنه ورد في التزين بأجل الثياب في الجمع والأعياد، ذكره الماوردي.

والناظر لهذه الأقوال الثلاثة يجدها مقصودة كلها، مقصودة في هذا، فإن التزين لا بد أن يكون لهذه الأمور يكون للصلاة ويكون للطواف ويكون للجمع والأعياد وقد وردت السنة بذلك.

الثاني: أن المراد بالزينة المشط، قاله أبو رزين، ولا شك أن المشط يستخدم للشعر عندما يكون شعثاً، وعندما يكون علق به ما علق به فتمشط المرأة شعرها؛ ليكمل جمالها وأيضاً الرجل لو كان ذا شعر طويل فإنه يحتاج له أو حتى للحيته من أجل أن يرتبها ومن أجل ألا يكون فيها شعر متناثر من هنا ومن هناك. والتجمل والزينة مطلوب شرعاً.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ قال ابن السائب: كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دسماً ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً يعني ما يقيتهم تعظيماً لحجهم وظناً منهم أن ذلك يكمل لهم العبادة، فنزل قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ كما جاء في قوله ﷺ عن أيام التشريق، (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله) كأن في هذا الحديث رداً لما كانت تفعله قريش في جاهليتها عندما لا تأكل في أيام الحج إلا قوتاً ظناً منهم أن هذا تعظيم للحج.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في تفسيره أربعة أقوال:

القول الأول: لا تسرفوا بتحريم ما أحل الله لكم رواه ابن عباس، ولا شك أن تحريم الحلال مثل تحليل الحرام، كله حرام ولا يجوز.

والثاني: لا تأكلوا حراماً فإن ذلك الإسراف قاله ابن زيد، ومن يأكل الحرام فقد أسرف على نفسه عندما تعدى

الحد.

القول الثالث: معنى الإسراف هنا لا تشركوا، يعني فسروا الإسراف هنا بمعنى الإشراك، لماذا؟ لأن الإشراك هو تعدي الحد، وتعدي الحد في أي شيء يعد إسرافاً.

والرابع: لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة، قاله الزجاج، ولا شك أيضاً أن الأكل حتى من الحلال فوق الحاجة يضر بالصحة، وهو مضر فإن الإنسان إذا أكل أكثر من حاجته يضر بجسمه.

نُقل عن الخليفة الرشيد -رحمه الله- أنه كان له طبيب حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد يسأله: هل في كتابكم من علم الطب شيء؟ وكأن هذا الطبيب غير مسلم، لأنه يسأله يقول: هل في كتابكم من علم الطب شيء؟ يقصد القرآن؛ فرد عليه علي بن الحسين بن واقد فقال: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا، فقال له هذا الطبيب: ما هذه الآية، قال هي قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ﴾ وحقيقة إن الأكل والشرب بدون إسراف هذا هو الصحة، والإسراف في أي شيء خطير ومضر، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم للأطباء شيئاً.

ومن بصر في كتاب ربنا وفي سنة نبينا ع وجد فيها الخير ووجد فيهما الهداية ووجد فيهما النبراس للبشر جميعاً في صحة أبدانهم، وفي صحة أديانهم ومعتقداتهم، وصحة علاقاتهم، وفيما يأتون وفيما يذرون، فأين البشرية الضالة المتنكبة للطريق المستقيم أين هي عن هذا الهدى؟ وأين نحن من دعوة هؤلاء لهذا الدين القويم؟! نسأل الله جل وعلا أن يمن علينا بالتوفيق وأن يتوفانا ونحن على الملة؛ إنه على كل شيء قدير.

وهنا نكون قد انتهينا من الدرس الخامس وإلى الدرس السادس -إن شاء الله- وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً اللهم يسر لنا أمورنا واختم لنا بالسعادة إنك على كل شيء قدير، إخواني الطلاب أخواطي الطلاب نحن اليوم على موعد مع الدرس السادس من دروس التفسير في سورة الأعراف، ونبدأ هذا الدرس من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] قوله جل وعلا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ﴾ جاء في سبب نزول هذه الآية أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المشركين عيروا المسلمين إذ لبسوا الثياب في الطواف وغيروهم إذ أكلوا الطيبات، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

القول الثاني: أنهم كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الزروع وغيرها فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

القول الثالث: نزلت في طوافهم بالبيت عراة قاله طاووس وعطاء، وفي الزينة هنا في زينة الله الواردة في هذه الآية قولان: أحدهما أنها ستر العورة فالمعنى من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم والثاني: أنها زينة اللباس وفي الطيبات هنا قولان: أحدهما: أنها الحلال والثاني: أنها المستلذ من الأطعمة، وفي معنى ما عني به ثلاثة أقوال: أحدها أنها البحائر التي كانوا يحرمونها والسوائب والوصائل والحوامي التي حرموها كما قاله ابن عباس وقتادة.

والثاني: أنها السمن والألبان واللحم، وكانوا قد حرموا ذلك عليهم في الإحرام، كما مر علينا في الدرس الخامس، قاله ابن زيد.

والثالث: أنهم حرموا على أنفسهم الحرث والأنعام والألبان كما قاله مقاتل، تحريم هذه الطيبات التي أحلها الله لنا لا يجوز بحال من الأحوال، فإن هذه الطيبات أباحها الله لعباده وأخرجها لهم كي ما تقيم أبدانهم وكي ما يستعينون بها على أعمالهم وعلى عبادتهم والله ﷻ إنما سخرها لهم من بهيمة الأنعام ومن الثمار ما دامت طيبة؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طيب والله أمرنا سبحانه كما أمر المرسلين أن نأكل من الطيبات وأن نشكره عليها، وألا نسرف في هذا الأكل ولا في غيره.

قوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً﴾ هذه الطيبات للمؤمنين خالصة؛ لأنها حلال لهم في الدنيا ويؤجرون على هذا السعي للطيب وعلى النية الطيبة هي لهم في الدنيا ويؤجرون عليها في الآخرة، بخلاف غيرهم ممن لا يستحضر النية الطيبة في أعمالهم كلها، قال ابن الأنباري: ﴿خَالِصَةً﴾ تُصَبُّ عَلَى الْحَالِ مِنَ اللَّامِ الْمُضْمَرَةِ تَقْدِيرُهَا: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُشْتَرَكَةٌ وَهِيَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَالِصَةٌ؛ فَحُذِفَتِ اللَّامُ لَوُضُوحِ مَعْنَاهَا، كَمَا تَحْذِفُ الْعَرَبُ أَشْيَاءَ لَا يَلْبَسُ سَقُوطُهَا، ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَإِنْ شَارَكُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي الطَّيِّبَاتِ وَالْكَفَّارِ جَمِيعًا إِذَا شَارَكُونَا فِي الطَّيِّبَاتِ فَأَكَلُوا وَلَبَسُوا وَنَكَحُوا، فَإِنَّا نَخْتَلِفُ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهَا خَالِصَةٌ لَنَا فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ: مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، مِمَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا لَدَى وَطَاءٍ وَهَذَا الْكَفَّارُ يَخْتَلِفُونَ فَإِنَّهُمْ يُحْرَمُونَ

ذلك وإنما هم في جهنم يُعذبون وليس للمشركين في الآخرة إلا النار، نعوذ بالله منها ومن أهلها، وقيل في معنى قوله: ﴿خَالِصَةً﴾ أي أنها خالصة للمؤمنين من ضرر أو إثم، بحيث إن المؤمن لا يأكل إلا الطيب وإذا أكل الطيب فإن الطيب لا يصيبه بضرر، أما غيره فيأكل المحرم، والله ما حرم هذه المحرمات إلا لضررها على الأبدان، يأكل الميتة يأكل الخنزير يشرب الخمر يحتسي السموم من المخدرات وغيرها وهي محرمة؛ لأنه قاعدة معروفة في ديننا: (لا ضرر ولا ضرار) فأى شيء مضر فإنه لا يجوز.

قوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي هكذا نبينها، يبينها الله لنا جميعا الحق والباطل لنا، ولكن من يتبع الحق ويستقيم عليه هو الفائز في الدنيا والآخرة وهو الذي ينال البركة في عيشه وينال السعادة في آخرته.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] هنا يأتي الحديث في مقابلة ما ادعت الكفار أن الله قد حرم تلك الطيبات هنا يأتي التوجيه بأنه لا يحرم الطيبات ولكنه يحرم الخبائث ولكنه يحرم ما يضر بالأبدان وما يضر بالأعراض والأنساب، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ حرم الفواحش التي هي كلها، فهي جمع فاحشة، والفاحشة كل ما غلظ وعظم إثمه فهو فاحشة.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] هذه المحرمات من المفسرين من قال: إنها مرتبة على الأخف فالأكبر إلى الأكبر فبدأت بالأخف، وأعظمها وأكبرها جرما آخرها، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا هو أكبرها وهو أخطرها أن نقول على الله ما لا نعلم، وإن كانت التي قبلها معاصي كبار وكبائر إلا أن القول على الله بغير علم هو أخطرها وهو أكبرها وهو مذلة الأقدام، فلا بد أن يتريث المسلم في أي حكم يطلقه لا بد أن يكون على نور من الكتاب والسنة لا بد أن يكون مستبصراً بذلك، لا بد أن يرجع إلى أهل الفضل وإلى أهل الفضل من علمائنا الذين رسخت أقدامهم في العلم والذين أمضوا أعمارهم في البحث والتحصيل؛ لا أن يأتي شخص غر صغير لم يأخذ مدة في التحصيل فيأتي فيحلل ويحرم هنا يكون قد أخطأ على نفسه وعلى الأمة معه.

قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وفي ذلك للمفسرين تأويلات: منها: أن المقصود في قوله ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أنه الزنا ما ظهر منه علانية، وما بطن أي كان سراً كما هو مروي عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جبير.

القول الثاني أن المقصود منها بقوله ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نكاح الأمهات كما كان عندهم في الجاهلية، وما بطن أي الزنا، رواه ابن جرير عن ابن عباس وبه قال علي بن الحسين.

القول الثالث: أنه ما ظهر أي أنه نكاح الأبناء نساء الآباء، كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية وقد حرمه الله، وقيل: الجمع بين الأختين وكانوا يفعلونه في الجاهلية وقد حرمه الله، وأن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها، وما بطن أي الزنا، روي ذلك عن ابن عباس أيضاً.

القول الرابع: أن ما ظهر هو الزنا، وما بطن هو العزل، قاله شريح.

والخامس: أن ما ظهر طواف الجاهلية عراة، وما بطن الزنا، قاله مجاهد.

والقول السادس: أنه عام في جميع المعاصي وهو الذي يظهر، فإن الله حرم الفواحش كل الفواحش ما ظهر منها بمعنى على الجوارح أو رآه الناس، وما بطن أي وما كان مستورًا لا يراه الناس؛ فإنه وإن لم يراك الناس فإن الله يراك، ويعلم سرّك ونجواك تختفي عن من؟ إن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، سورة النور، فالفواحش كلها الظاهر منها والباطن كله محرم، وقيل: فيما ظهر منها وما بطن أن الظاهر هو العلانية وأن الباطن هو السر قاله أبو سليمان الدمشقي وقيل: إن ما ظهر هو أفعال الجوارح وأن ما بطن هو اعتقاد القلب ولا شك أن اعتقاد القلب لا بد أن يظهر أثره على الجوارح وفي الإثم للمفسرين ثلاثة أقوال في تفسيره:

أحدها: أنه الذنب الذي لا يوجب الحد قاله ابن عباس والضحاك والفراء.

والثاني: أن الإثم هي المعاصي كلها، كما قاله مجاهد، والثالث: أن الإثم هو الخمر، قاله الحسن وعطاء. قال ابن الأنباري: أنشدنا رجل في مجلس ثعلب بحضرته وزعم أن أبا عبيدة أنشد هذا البيت:

نشرب الإثم بالصواع جهارا ونرى المدك بيننا مستعارا

والمقصود بالمدك هنا الأترجة، فقال أبو العباس: لا أعرفه ولا أعرف الإثم أنها تطلق ويراد بها الخمر، لكن في كلام العرب يوجد ذلك كما أنشد أحدهم:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

ولا شك أنها أم الكبائر وأم الخبائث، هذه الخمرة ولا شك أنها الداعية إلى الزنا وإلى الموبقات ولذلك حرمها الله علينا صيانة لعقولنا.

والإثم أيها الإخوة يشمل الأقوال التي سمعتموها وغيره فهو كلمة عامة تشمل الشر كله، فالشر كله إثم، وإن تفاوتت درجاته من كبائر وصغائر إلا أنه إثم بمعنى أنه يعاقب عليه، فما دام أنه معاقب عليه فهو إثم.

فإن قيل إن الخمر تدخل تحت الإثم فصحيح؛ لأنها تسبب هذا الإثم وتوقع صاحبها فيه ثم لنا أن نستفهم ونقول لما فُصلت الإثم عن الفواحش، ومعلوم أن الفواحش كلها إثم؟ فقل في ذلك: إن كل فاحشة إثم وليس كل إثم فاحشة، بمعنى أن الفاحشة هي الغليظة فهي إثم وقد يأثم الإنسان ويعاقب على أمر لم يصل إلى درجة الفاحشة، كأن يصير على صغيرة فيعاقب عليها وإن لم تكن في مسماها فاحشة أي لم يعظم أمرها وخطرها فكل فاحشة إثم وليس كل إثم فاحشة فكان الإثم كل فعل مذموم والفاحشة هي العظيمة، أما البغي فقليل هو الاستطالة على الناس أن يبغى على الناس يعني يتناول على الناس ولا يرى الناس شيئا، ويحتقرهم ويزدرهم ولا ينظر إليهم إلا شذرا، وما هكذا تكون أخلاق المسلم فإن المسلم يعلم أنه بخلقه وبحسن تعامله يدرك درجة الصائم القائم فإن الأخلاق هي أساس الحياة ولذا نبه نبينا ﷺ في من نختار لمن يأتي لخطبة بناتنا قال: **(إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)** فالرسول ﷺ جعل للأخلاق مكانا عاليا في الإسلام وأولاه اهتمامه ﷺ وخالف أتباعه بالأخلاق الطيبة فسمعوا منه واستجابوا له وفدوه بأنفسهم قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وكان ﷺ يأمره بالأخلاق الطيبة ويأمر بحسن التعامل مع الناس وكان ﷺ نبراسا في ذلك:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن حسن الخلق تدرك به خيري الدنيا والآخرة.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج: موضع أن نصب نُصِبَ هنا فالمعنى: حرم الفواحش وحرم الشرك وحرم كلها، قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا عام في تحريم القول في الدين من غير يقين، وكما أسلفت بأن هذا هو أخطرها ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكم من الناس من يتجرأ على الفتيا وليس هو أهل لها، فيحرم الحلال ويحلل الحرام، ويقول وهو لا يشعر على الله ما لا يعلم؛ فقد يحرم حلالاً وهذا قول على الله بغير علم، أو يحل حراماً وهو أيضاً مثله، فهذا أمر خطير ولا يتجاسر عليه إلا من قل فقهه وقل ورعه.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا هو أمر خطير بل هو أخطرها ثم قال ﷺ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ جاء في سبب نزولها أنهم سألوا النبي ﷺ سألوه العذاب، سأله قريش يعني إن كنت أنت على حق فعذبنا، اطلب من ربنا أن يعذبنا، وهو من شقائهم المفروض أن يقولوا: إن كنت على حق فإننا نسأل الله أن يهدينا إليه، ولكن لشقاواتهم قالوا: إن كنت على حق فليأتنا العذاب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ومحمد ﷺ فيهم، وجاء أكثر من مرة ملك الجبال يسأله أن يطبق على أهل مكة الأخشبين، فقال: (إني أترث فيهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله سبحانه).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني ليس هذا الأمر إليكم لا أن يُنزل عليكم العذاب ولا غيره، فإن الأمر بيد الله سبحانه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

أجل العذاب أو أجل الحياة، ووكلاهما داخل في هذا المعنى، لكل أمة أجل (أجل) مدة في بقائها وازدهارها وارتفاعها وحضارتها، وأيضاً لهذه الحضارة وهذا الرقي وهذا التقدم له أيضاً أمد ولا يعلمه إلا الله ﷻ، الحياة كلها لها أمد، سواء للأفراد أو للمجتمعات أو للأحياء كلها أو للكون كله أمره كله بيده ﷻ، بيده أزمة الأمور كلها سبحانه لا إله غيره ولا نعبد سواه.

قال الزجاج: لكل أمة أجل، الأجل هو الوقت المؤقت ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ إذا جاء الأجل الذي أرادته الله ولا راد لقضائه لا يقدر أحد أن يؤخر ما أرادته الله ولا أقل ساعة ولا أقل، والساعة هنا المقصود بها أقل برهة من الوقت وليس مقصوداً بها ما نتفاهم بها اليوم من الزمن بأنها ستين دقيقة، إنما المقصود الساعة هي أقل شيء يقع في أسماء الوقت لأنها أقل أسماء الوقت كما قال كثير من المفسرين، لا يستطيع هذا أحد أن يؤخر الأمر ولا أقل برهة من الوقت إذا جاء الأمر.

ثم قال ﷺ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٧]

قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ قال الزجاج: أضمر فأطيعوهم، بتممة الكلام المضمر فأطيعوهم.

قوله: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ جاء في معنى هذا سبعة أقوال: أحدها: ما قدر لهم من خير وشر، رواه مجاهد عن ابن عباس، والثاني: نصيبهم من الأعمال فيجزون عليها رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، والثالث: ما كتب عليهم من الضلالة والهدى، قاله الحسن وقاله مجاهد وابن جبير، والرابع: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال، قاله الربيع والقرضي وابن زيد، والخامس: ما كتب لهم من العذاب، قاله عكرمة وأبو صالح والسدي، والسادس: ما أخبر الله تعالى في الكتب كلها أنه من افترى على الله كذباً أسود وجهه ونالته العقوبة قاله مقاتل، والسابع: ما أخبر في الكتاب من جزاهم نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ قاله الزجاج، وفي تفسير الكتاب هنا خمسة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ، والثاني: أنه كتب الله كلها، والثالث: القرآن، والرابع: كتاب أعمالهم والخامس: القضاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي جاءتهم أعوان ملك الموت أو ملك الموت وحده أو ملائكة العذاب يوم القيامة.
﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

يتوفونهم بالموت كما قاله أكثر المفسرين، والثاني: يتوفونهم إلى الحشر يسوقونه إليه وإلى النار قاله الحسن، والثالث: يتوفونهم أو يوفونهم عذاباً كما تقول قتلت فلاناً بالعذاب وإن لم يمت، كما قاله الزجاج.

قوله: ﴿أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدون من دون الله، كما مر معنا أن الدعاء يطلق ويراد به العبادة، وهذا سؤال تبكيت وتقريع، قال مقاتل: المعنى فيمنعوكم من النار. ومعنى ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ بطلوا وذهبوا فيعترفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين، نسأل الله السلامة والعافية من طريق الكفار ومن أهل النار، وهنا ينتهي الدرس السادس وإلى الدرس السابع وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد فمع الدرس السابع من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة.

قوله قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ إن الله ﷻ يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة، قال ابن قتيبة -رحمه الله- : ﴿فِي أُمَمٍ﴾ بمعنى مع أمم وفي قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في تفسيره قولان: أحدهما مضت إلى العذاب، والثاني مضت في الزمان، يعني كفار الأمم الماضية.

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وهذه إخوة الدين، الدين والملة لا إخوة النسب، قال ابن عباس: يلعنون من كان قبلهم، قال مقاتل: كلما دخل أهل ملة لعنوا أهل ملتهم فيلعن اليهود اليهود، ويلعن النصارى النصارى، ويلعن المشركون المشركين، ويلعن الأتباع القادة، ويقولون: أنتم أضللتمونا وألقيتمونا هذا الملتقى حين أطعناكم، قال الزجاج: إنما تلاعنوا لأن بعضهم ضل باتباع بعض.

قوله جل وعلا: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ قال ابن قتيبة: أي تداركوا فأدغمت التاء في الدال وأدخلت الألف ليسلم السكون لما بعدها، يريد تتابعوا فيها واجتمعوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ في تفسيره ثلاثة أقوال؛ أحدها: آخر أمة لأول أمة قاله ابن عباس، والثاني آخر أهل الزمان لأوليهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين قاله السدي وغيره، القول الثالث: آخرهم دخولاً إلى النار وهم الأتباع لأولهم دخولاً إلى النار وهم القادة، قاله مقاتل، وهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]

قوله سبحانه: ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ قال ابن عباس: شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلهاً، قوله سبحانه: ﴿فَاتَّخِذُوا ضِعْفًا﴾ قال الزجاج: أي عذاباً مضاعفاً.

قوله سبحانه: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أي عذاب مضاعف ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل عن عاصم يعلمون بالياء قال الزجاج: لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر، وقرأ الباقون: تعلمون بالتاء وفيها وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب والثاني: لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك وقيل: إنما طلب الأتباع مضاعفة عذاب القادة ليكون أحد العذابين على الكفر والثاني على إغرائهم به فأجيبوا: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أي كما كان للقادة ذلك فلهم عذاب بالكفر وعذاب بالاتباع؛ لأن هؤلاء منحهم الله سبحانه وتعالى الإرادة فأبوا تلك الإرادة الممنوحة لهم وأبوا إلا الاتباع لهؤلاء الضالال فلذلك يعاقبون بهذا ويعاقب هؤلاء الذين قادوهم إلى المرتع

الوخم.

قوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي عذاب مضاعف، ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لكل ضعف كما كان للقادة كذلك فلکم عذاب بالكفر ولكم عذاب بالاتباع. ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في تفسيره قولان أحدهما: في الكفر نحن وأنتم فيه سواء قاله ابن عباس، والثاني: في تخفيف العذاب، قاله مجاهد.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ قال مقاتل من الشرك والتكذيب، وهكذا يتلاومون في النار، وهكذا كل يلقي التبعة على الآخر ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فإن هؤلاء وهؤلاء الأتباع والقادة كلهم في الجرم سواء.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بحججنا وأعلامنا التي تدل على توحيد الله ونبوة الأنبياء وتكبروا على الإيمان بها ﴿لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر: تَفْتُحُ، بالتاء وشدودو التاء الثانية، وقرأ أبو عمرو: لَا تُفْتُحُ، بالتاء خفيفة ساكنة الفاء، وقرأ حمزة والكسائي: لَا يُفْتُحُ بالياء مضمومة خفيفة، وقرأ اليزيدي عن اختياره: لَا تُفْتُحُ، بتاء مفتوحة. ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ ينصب الباء، فكأنه أشار إلى أفعالهم. وقرأ الحسن بياء مفتوحة مع نصب الأبواب، كأنه يشير إلى الله ﷻ وفي معنى الكلام أربعة أقوال:

أحدها: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو قول أبي موسى الأشعري والسدي في آخرين.

والثاني: لا تفتح لأعمالهم، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم، رواه عطاء عن ابن عباس.

والرابع: لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم، قاله ابن جرير ومقاتل.

وفي ﴿السَّمَاءِ﴾ قولان؛ أحدهما: أنها السماء المعروفة وهو المشهور من أقوال المفسرين، القول الثاني: أن المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها والجنة في السماء، ذكر ذلك الزجاج وغيره.

قوله سبحانه: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الجمل هو الحيوان المعروف فإن قال قائل كيف خص الجمل من دون سائر الدواب وفيها ما هو أعظم منه؟ ولذلك جوابان: أحدهما: أن ضرب المثل بالجمل يحصل المقصود، والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه جاز، والناس يقولون: فلان لا يساوي درهما، وهذا لا يغني عنك فتيلة وإن كنا نجد أقل من الدرهم الفتيل ولكنه مضرب مثل.

والثاني: أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب فإنهم يقدمونه في القوة على غيرهم؛ لأنه يوفر لهم الجهد ولأنه يوفر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عجبهم من خلق الإبل فقال لهم سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى

الإِنْبِلَ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿﴾ فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى، وقد ذكر الجوابين الآنفين ابن الأنباري، قال: وقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قرأ: (حتى يلج الجمل) بضم الجيم وتشديد الميم، وقال هو القلس الغليظ، ومعنى القلس هو الحبل الغليظ للسفن، قال المصنف وهو ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير: وهي قراءة أبي رزين ومجاهد وابن محيصن، وأبي مجلز وابن يعمر وأبان عن عاصم قال: وروى مجاهد عن ابن عباس: (حتى يلج الجمل) بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها (حتى يلج الجمل) قلت -يقول ابن الجوزي رحمه الله في تفسيره زاد المسير: وهي قراءة قتادة وقد رويت عن سعيد بن جبير وأنه قرأ (حتى يلج الجمل) بضم الجيم وتسكين الميم، وهي قراءة عكرمة، قال ابن الأنباري رحمه الله: فالجمل يحتمل أمرين يجوز أن يكون بمعنى الجمل ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجمال قيل في جمعها جمل، كما يقال حجرة وحجر وكما يقال ظلمة وظلم، وكذلك من قرأ الجمل يسوغ له أن يقول: الجمل بمعنى الجمل وأن يقول الجمل بمعنى جملة، مثل بسرة وبسر، وأصحاب هذه القراءات يقولون: الحبل والحبال أشبه بالإبرة والخيوط من الجمال، وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ الجمل بضم الجيم والميم وبالتخفيف، وهي قراءة الضحاك والجحدري وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء الجمل بفتح الجيم وبسكون الميم خفيفة.

قوله: ﴿**فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ السم في اللغة الثقب، وفيها ثلاث لغات: فتح السين، وبها قرأ الأكثرون، سم، وضمها وبها قرأ ابن مسعود وأبو رزوين وقاتدة وابن محصين وطلحة بن مصرف وكسرها وقرأ بكسرها وبه قرأ أبو عمران الجوني وأبو نهيك والأصمعي عن نافع.

قال ابن القاسم: والخياط المخطط بمنزلة اللحاف والملحف والقرام والمقرم وقد قرأ ابن مسعود وأبو رزوين وأبو مجلز في سم المخطط، وقال الزجاج: الخياط الإبرة وسمها ثقبها والمعنى في ذلك أنهم لا يدخلون الجنة أبداً لأن دخولهم علق على مستحيل هذا المستحيل هو دخول الجمل الحيوان المعروف في ثقب الإبرة أو دخول حبل السفن الغليظ المعروف بغلظه وضخامته في ثقب الإبرة وذلك لا يمكن فما دام هذا مستحيل فإن دخول هؤلاء الضالين المتبعين للضلال على عمى هؤلاء مستحيل دخولهم الجنة كما استحال دخول هذا وهذا في ثقب الإبرة، المعنى أنهم لا يدخلون الجنة أبداً، قال ابن قتيبة: هذا كما يقال: لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب وحتى يبيض القار.

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾ أي مثل ذلك نجزي الكافرين أنهم لا يدخلون الجنة.

قوله سبحانه: ﴿**لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤١-٤٢]

قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ**﴾ المهاد الفراش، وفي المراد بالغواشي هنا ثلاثة أقوال: أحدها: اللحف قاله ابن عباس والقرضي وابن زيد، والثاني: ما يغشاهم من فوقهم من الدخان، قاله عكرمة، الثالث: غاشية فوق غاشية من نار، قال ذلك الزجاج وغيره، قال ابن عباس: والظالمون هاهنا هم الكافرون فهؤلاء الكفار لهم عذاب في جهنم عذاب من فوقهم وعذاب من تحت أرجلهم هكذا يجزي هؤلاء الظالمون المتعدون للحد المتجاوزون له.

ثم ذكر بعد ذلك حال المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهكذا القرآن إخواني الطلبة يذكر أحوال هؤلاء ثم يذكر أحوال هؤلاء، يذكر هؤلاء الذين هذا مصيرهم وهو النار ثم يذكر الفائزين وأن مصيرهم إلى الجنة والقرآن مثاني تذكر فيه هذه وتلك من أجل أخذ العبرة والعظة في ذلك فمقابل هؤلاء المعذبون في جهنم الصالون لحرها وعذابها، هنالك أقوام منعمون لا يدخلون النار، وإنما هم من أهل الجنة منعمون فيها، وهذا النعيم مستمر لهم لا نفاد له والله جل وعلا لما كلفهم بالطاعات لم يكلفهم إلا بقدر وسعهم فالله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، قال بعد ذلك: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا لِمَن كَانَ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِبُ﴾ [الأعراف: ٤٣] قوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ هنا تفرغ على ما سبق من قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ هذا حالهم في جنات النعيم وقد نزع الله ما في صدورهم من غل وفيمن عني بهذه الآية للمفسرين فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن المقصود بذلك الذين نزع ما في صدورهم من غل والذين وعدوا بهذا النعيم أنهم أهل بدر، روى الحسن عن علي عليه السلام أنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ وروى عمرو بن الشريد عن علي أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾

والثاني: أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا، روى كثير عن أبي جعفر قال: نزلت هذه الآية في علي وأبي بكر وعمر، قلت: لأبي جعفر: فأبي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في الجاهلية شيء من العداوة فلما أسلم هؤلاء تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده ويكمد بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية.

والثالث: أنها عشرة من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود قال ذلك أبو صالح.

والرابع: أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا هَذَبُوا وَنَقَوْا أَذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا) أخرجه البخاري وغيره، وقال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل وغيره مما كان في الدنيا، ثم يدخلون إلى العين الأخرى فيغتسلون منها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتجري عليهم نضرة النعيم، فأما النزاع فهو قلع الشيء من مكانه والغل الحقد الكامن في الصدور، وقال ابن قتبية: الغل الحسد والعداوة.

قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ قال الزجاج: معناه هداانا لما صيرنا إلى هذا قال ابن عباس: يعنون ما وصلوا إليه من رضوان الله وكرامته.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ قرأها أكثر القراء بإثبات الواو، غير ابن عامر قرأ (مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ) بغير واو وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، قال أبو علي: وجه الاستغناء عن الواو أن القصة ملتبسة بما قبلها؛ فأغنى التباسها به عن حرف العطف، ومثله قوله سبحانه: ﴿زَارِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً، ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ قال الزجاج: إن ما قال تلکم لأنهم وعدوا بها في الدنيا فكأنه قيل لهم هذه تلکم التي وعدتم بها، وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر (أورثتموها) غير مضغمة وقرأ أبو عمرو وحمره والكسائي: (أورثتموها) مدغمة، وكذلك قرءوا في الزخرف، قال أبو علي من ترك الإدغام فلتباین مخرج الحرفين، ومن أدغم فلأن التاء والتاء مهموستان متقاربتان. وفي معنى ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أربعة أقوال للمفسرين:

أحدها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾) وقال بعضهم: لما سمى الكفار أمواتاً بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ وسمى المؤمنين أحياء بقوله: ﴿لِيُنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أورث الأحياء الموتى.

وإلى هنا ينتهي الدرس السابع وإلى الدرس الثامن بحول الله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثامنة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخواني الطلاب أخواقي الطالبات مع الدرس الثامن من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس في كلية الدعوة، ومع قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْثَرْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل فيها أقوالا القول الأول: ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله: ﴿أَوْثَرْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾) وقال بعض المفسرين: لما سمى الكفار أمواتا بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ والموت هنا هو موت الروح وإن بقي البدن حيا والروح ميتة بمعنى لا تعرف خالقها ولا تعرف حقه فإنه وإن عاش البدن ما عاش فإن صاحبه ميت، وسمى المؤمنين أحياء بقوله: ﴿لِيُنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ فإن الحي هو حياة القلب وحياة الروح فهو الذي ينتفع بالوحي وهو الذي يراقب ربه جل وعلا وهو الذي ينفع نفسه وينفع من حوله وينشر الخير إلى الغير أورث الأحياء هؤلاء مكان هؤلاء الموتى.

القول الثاني: أنهم أورثوا الجنة عن الأعمال؛ لأنّ لجنة جعلت جزاء لأعمالهم وجعلت ثوابا عليها إذ هي عواقبها كما حكى ذلك أبو سليمان الدمشقي.

القول الثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، وأقسام الدرجات وارتفاعها وحصول كل داخل للجنة على الدرجة التي له إنما يكون ذلك التنافس ويكون ذلك التفاوت في الدرجات إنما هو حاصل بالأعمال، لكن دخول الجنة برحمة الله سبحانه، فلما كان يفسر نيلها عن عوض سميت ميراثا، والميراث ما أخذته عن غير عوض.

القول الرابع: أن معنى الميراث ها هنا أن أمرهم يؤول إلى الجنة كما يؤول الميراث إلى الوارث فقد أورثوا هذه الجنة وحصولها بعد رحمة الله وتوفيقه بسبب أعمالهم الصالحة التي عملوها.

قال جل وعلا: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥] قوله: سبحانه: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ أي من العذاب وهذا سؤال تقرير هؤلاء ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن، وكان الكسائي يكسرها، قال الأخفش: وهما لغتان.

قوله سبحانه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي نادى مناد: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير في قراءة قبل ونافع وعمرو وعاصم أن لعنة الله خفيفة النون ساكنة وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي: أن بالتشديد، لعنة الله بالنصب، قال الأخفش في قوله: ﴿أَنْ تَلْكُمُ﴾ وفي قوله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ هي أن الثقيلة خففت ومعناها وفي قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أذن المؤذن أن لعنة الله على الذين كفروا والذين صدوا عن سبيل الله، وسبيل الله هو طريق الخير وهو الإسلام وهو الخضوع لله والانقياد لشريعته فكل ذلك هو سبيل الله، سبيله طاعته سبيله هو الحق الذي نزلت به الكتب وجاءت به الرسل.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي لا يريدون الطريقة القويمية ولا يريدون الصراط المستقيم ولا يريدون الحق الأبلج وإنما يريدون المنعرج وإنما يريدون طرقا ملتوية وإنما يريدون ضلالات.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يريدونها غير الحق، ومعلوم أن طرق الباطل معوجة وأن طرق الخير مستقيمة وأن صراط الله صراط مستقيم لا ﴿عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ لكن طرق الباطل هي المعوجة، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا أعوج الصراط المستقيم

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدونها ذات طرق ملتوية ولا يريدونها طريقة مستقيمة، قال سبحانه: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي وهم يكون حالهم بالآخرة أنهم كافرون بها، لأن من تكون الآخرة له على بال فإنه يتقي الله سبحانه ويطيع الله سبحانه؛ لأن عبادة الله المخلصين من الأنبياء والمرسلين كانوا دائماً على الحق؛ لأن الآخرة على بالهم دائماً وأبداً كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي أن تذكر الدار الآخرة على بالهم. وأيم الله أي عاص يعصي الله لو أنه كان يتذكر ماله ويتذكر مصيره ويتذكر العقوبة التي أعدها الله للمخطئين والعاصين لما عصى الله في ذلك ولكنه الذهول ولكنه استيلاء الغفلة ولكنه التقليد الأعمى لهؤلاء الضلال.

قال سبحانه: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسمائهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون [الأعراف: ٤٦]

قوله سبحانه: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسمائهم بين الجنة والنار حاجز، وهذا الحاجز حاجز مرتفع، والعرب تسمي كل مرتفع يفصل بين شيئين تسميه أعرافاً أو تسميه عرفاً وجمعه أعراف، كما يطلقون على عرف الديك وعرف الفرس، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي بين الجنة والنار حاجز، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ فسمى هذا السور بالأعراف لارتفاعه، قال ابن عباس: الأعراف هو السور الذي بين الجنة والنار له عرف كعرف الديك وقال أبو هريرة: جبال بين الجنة والنار، فهم على أعرافها، يعني على ذراها، خلقها الله خلقة كعرف الديك، قال اللغويون: الأعراف عند العرب كل ما ارتفع من الأرض وكل ما علا منها يقال له عال، فيطلقون عليه عرف وجمعه أعراف، وفي أصحاب الأعراف هؤلاء المذكورين قولان: أحدهما أنهم من بني آدم كما هو قول الجمهور من المفسرين وذكر مقاتل أنهم من أمة محمد ﷺ خاصة، وهو قول له وحده، وفي أعمالهم التي ساروا بها إلى هذا المقام تسعة أقوال للمفسرين:

أحدها: أنهم قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم؛ فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله وهذا مروي عن بعض الصحابة والتابعين.

والثاني: أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم تبلغ بهم حسناتهم دخول الجنة، ولا سيئاتهم دخول النار، قال ذلك ابن مسعود وحذيفة وابن عباس وأبو هريرة والشعبي وقتادة.

القول الثالث: أنهم أولاد الزنا، رواه صالح مولى ابن عباس.

والرابع: أنهم قوم صالحون فقهاء علماء قاله الحسن ومجاهد، فعلى هذا يكون لبسهم على الأعراف على سبيل النزهة.

القول الخامس: إنهم قوم رضي عنه آبائهم دون أمهاتهم، أو رضيت أمهاتهم دون آبائهم كما يروى عن عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم وغيره.

القول السادس: أنهم الذين ماتوا في الفترة، ولم يبدلوا دينهم قاله عبد العزيز بن يحيى.

القول السابع: أنهم أنبياء كما حكاه ابن الأنباري.

القول الثامن: أنهم أولاد المشركين.

القول التاسع: أنهم قوم عملوا لله لكنهم رءوا في عملهم، ذكره بعض أهل العلم.

مر معنا أن القول الأول أنهم من بنى آدم ومرت الأقوال التسعة في عملهم الذي استحقوا فيه أن يكونوا بهذه المنزلة، القول الثاني: أنهم ملائكة قاله أبو مجلز، واعترض عليه فقيل: إنهم رجال فكيف تقول ملائكة، فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي على معرفة أهل الجنة من أهل النار، ذكر الزجاج وابن الأنباري، وفيه بعد وخلاف للمفسرين، وأهل الأعراف هؤلاء الذين هم بهذه المنزلة التي علمتهم هم أناس شرفهم الله بها، وبهذه المكانة الرفيعة وتُسميت هذه السورة بهم، والله أعلم أن هؤلاء هم ممن أراد الله لهم هذا الشرف وهذه المكانة من الأنبياء ومن شابههم وسار على نهجهم من أولئك المقربين فيكون بهذه الدرجة العالية لا أن يكونوا من أناس من أهل فترة أو غيرها هذا بعيد، والله أعلم؛ فإنهم هؤلاء لهم مكانة ولهم منزلة رفيعة أنزلهم الله إياها عندما يكون على هذا المكان ويشرفون على هؤلاء وهؤلاء.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي يعرف أصحاب الأعراف أهل الجنة ويعرفون أهل النار وسيما أهل الجنة بياض الوجوه، وسيما أهل النار سواد الوجوه، وزرقة العيون، والسيما كما هو معلوم هي العلامة وإنما عرفوا الناس لأنهم على مكان عال يشرفون فيه على أهل الجنة والنار.

﴿وَنَادَوْا﴾ يعني أصحاب الأعراف نادوا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قولان:

أحدهما: أنه إخبار من الله تعالى، إخبار لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها كما قاله الجمهور، **والثاني:** أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يذهب بهم إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها، هذا قول السدي.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني أصحاب الأعراف، والتلقاء هي جهة اللقاء وهي جهة المقابلة قال أبو عبيدة: تلقاء أصحاب النار أي حيالهم، يسألون الله ألا يجعلهم كحالهم ويتعوذون بالله من حال هؤلاء، وحال مآلهم الذي صاروا إليه، ويسألونه العفو والعافية ويحمدونه جل وعلا أن وفقهم للهدى وأبعدهم عن طريق الردى.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:

[٤٨]

قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس قال: ينادون يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا عاصي بن وائل، يا أمية بن خلف، يا أبي بن خلف، يا سائر رؤساء الكفار ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا، المال والولد وما كنتم تستكبرون، أي تتعظمون به عن الإيمان، وهذا الخطاب موجه لكل من جعل غناه سبباً للبغي والطغيان وكل من كان سبب جمعه وسبب قوته داعياً له إلى العصيان يكون هذا حاله ويكون هذا مآله.

﴿أَهْؤْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]

﴿أَهْؤْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فيه قولان: أحدهما أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معاً وأن الله لن يدخلهم الجنة فيقول الله لأهل النار ﴿أَهْؤْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي أهل الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ رواه وهب بن منبه عن ابن عباس.

قال حذيفة: بين أصحاب الأعراف هنالك أطلع عليهم ربه فقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ فإني قد غفرت لكم، والثاني: أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزئون بهم كسلمان وصهيب وخباب فينادون الكفار: ﴿أَهْؤْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وأنتم في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قاله ابن السائب. فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة وقد ذكر المفسرون في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف الثاني: أن يكون خطاباً من الله لأهل الجنة، الثالث: أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة، ذكرهم الزجاج، فعلى هذا الوجه الأخير يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ اعلوا إلى القصور المشرفة وارتفعوا إلى المنازل المنيعة؛ لأنهم قد رأوهم في الجنة.

روى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال: يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له الحياة، عليه قضبان الذهب مكللة باللؤلؤ فيغمسون فيه فيخرجون كما تبدو في نحرهم شامة بيضاء يعرفون بها ويقال لهم: تمنوا ما شئتم ولكم سبعون ضعفاً فهم مساكين أهل الجنة، إذا حال هؤلاء المستهزأ بهم في الدنيا من أهل الطغيان والاستكبار والعناد والتجبر والبعد عن طاعة الله حال هؤلاء المستهزأ بهم أن يدخلوا الجنة؛ لأنهم ساروا على نهج نبيهم ولأنهم اقتفوا أثره ولأنهم أطاعوا ربه قبل ذلك سبحانه، فهنا يقال لهؤلاء تبكيتم هؤلاء الذين كنتم تستهزئون منهم في الدنيا وتسخرون منهم هؤلاء قد رفع

الله مقامهم وأعلى شأنهم في الجنة وأنتم أيها الطغاة أيها المتكبرون المتجبرون أنتم في جهنم خالدون.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]

قوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا: يا ربنا إن لنا قربات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم ونظر أهل الجنة إلى قرباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم قد اسودت وجوههم وصاروا خلقا آخر، فناد أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأخبروهم بقرباتهم فينادي الرجل أخاه: يا أخي يا أخي قد احترقت فأغثنني فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وعنى بقوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الطعام، قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أن ابن آدم غير مستغني عن الطعام والشراب حتى وإن كان معذباً، فهؤلاء الذين في النار يتعذبون فيها ويلاقون الويلات وإذا طلبوا الماء يسقون ماء حميماً يقطع أمعاءهم وإذا طلبوا طعاماً يعطون طعاماً لا يسد جوعتهم وإنما يكون ألماً وعذاباً على العذاب الذي هم فيه، فهؤلاء الكافرين هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُلْواً وَلَعِباً وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُلْواً وَلَعِباً﴾ قال ابن عباس: هم المستهزون والمعنى أنهم تلاعبوا بدِينهم الذي شرع الله لهم وقال قتادة: معنى قوله: ﴿حُلْواً وَلَعِباً﴾ أي أكلاً وشرّاً، وقال غيره: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والمكاء والتصدية ونحو ذلك من خصال الجاهلية.

قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ قال الزجاج: أي نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، وما نسق على كما في موضع جر، والمعنى وكجحدهم، قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى فالיום نتركهم في النار على علم منا ترك ناس غافل كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون ما يستعمله من نسي وغفل والجزاء من جنس العمل. وهذا نهاية هذا الدرس. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

المحاضرة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد فمع الدرس التاسع من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١] هذه أوصاف أهل النار من الكفار وهذا من أوصافهم أنهم اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: إن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا هم المستهزون والمعنى أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرعه الله لهم وقال أبو روق: معنى دينهم أي عيدهم وقال قتادة: ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي أكلا وشربا، وقال غيره: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة ومن تحريم السائبة ومن تحريم الوصيلة ومن تحريم الحام وما يعملوه من المكاء والتصدية عن ذكر الله وعن الصلاة ونحو ذلك من خصال الجاهلية.

قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ قال الزجاج: أي نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء هذا اليوم، وما نسق على كما في موضع جر، والمعنى وكجحدهم، قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: فالיום نتركهم في النار على علم منا ترك ناس غافل كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون ما يستعمله من نسي وغفل.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] خص المؤمنين هنا؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن وهذا كتاب أنزلناه مبارك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني هذا القرآن، ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بيناه بإيضاح الحق من الباطل وقيل: فصلناه فصولاً مرة بتعريف الحلال ومرة بتعريف الحرام ومرة بالوعد ومرة بالوعيد ومرة بالحديث عن الأمم السابقة قبلهم وفي قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للمفسرين فيها قولان:

أحدهما: على علم منا بما فصلناه، والقول الثاني على علم منا بما يصلحهم مما أنزلناه فيه، وقرأ ابن السميع وابن حيصن وعاصم والجحدري ومعاذ وابن القارئ: فصلناه بضاد معجمة.

قال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لم ينتفعوا بأنفسهم و ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي بطل عنهم، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مما كانوا يقولون أن مع الله آلهة أخرى.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هل ينظرون إلا تصديق ما وعدوا في القرآن، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي جزاؤه ويأتي خبره، وهو يوم القيامة وفي يوم القيامة ما وعدهم الله من الجزاء والحساب، يعني هل آمنوا به قبل أن يعينوه فإنهم إذا عاينوه قبل يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ فالإيمان قد ذهب وقته والابتلاء والاختبار في الدنيا وإلا فكل من عاين يوم القيامة علم حق اليقين وعين اليقين أن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق لكن لا ينفعهم ذلك ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ما أسمع الكفار وما أبصرهم يوم القيامة يوم يعاينون الأمور

على حقيقتها لكنهم فاتهم الإيمان بالغيب لما كانوا بالدنيا، تركوا هذا ونسوه من قبل أي في الدنيا.
﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي يعترفون أن رسل الله جاءوهم بالحق لكن هذا الاعتراف قد تأخر وقته.

قوله: ﴿أَوْ نُزِدُ﴾ كما قال الله عن الكافر يوم يعاين العذاب فيتمنى الرجعة وأن له ذلك، ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيأتي الجواب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ إنها مجرد كلمة لا تقدم ولا تؤخر مجرد كلمة يتمناها رب ارجعون، ولكن أنى له الرجعة: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

والمعنى أن هؤلاء يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيعملوا العمل الصالح ويؤمنوا بما جاءت به الرسل.
وقوله: ﴿فَنَعْمَلُ﴾ منصوب على جواب الفاء للاستفهام.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عندما فات عليهم وقت الإمهال فلم يؤمنوا بما جاءت به الرسل ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يختلقونه من أفكار إنما هي نحات أفكارهم وليس لها مستند من الوحي هذا الذي كانوا يفترونه في الدنيا لم ينفعهم في الآخرة.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]
رد على هؤلاء الذين لم يؤمنوا إلا بعد فوات الأوان لم يؤمنوا بهذا الرب الذي هذه أفعاله وهذه قدرته سبحانه كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام يبين سبحانه أنه المتفرد بقدرة الإيجاد فهو الذي يعبد لا غيره.

وفي قوله: بدأ الخلق للمفسرين ثلاثة أقوال: متى بدأ هذا الخلق للسماوات والأرض أحدها: أن هذا اليوم هو يوم السبت، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: (خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) وهو مخرج في المسند أيضا، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: تعليقا على هذا الحديث أن هذا الحديث: من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني وتكلم عليه البخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب الأحبار وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك الإمام البيهقي وهذا هو اختيار محمد بن إسحاق قال ابن الأنباري: وهذا إجماع أهل العلم أن الخلق ابتداء به يوم السبت.

القول الثاني: أن الخلق ابتدئ به يوم الأحد قاله عبد الله بن سلام، وكعب والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري وبه يقول أهل التوراة.

القول الثالث: أن بدأ الخلق بدأ يوم الاثنين قاله ابن إسحاق وبهذا يقول أهل الإنجيل.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ أي في مقدار ذلك لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها ولم تكن الشمس حينئذ، قال ابن عباس: مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة، وهو قول كعب ومجاهد والضحاك ولا يعلم مخالف لهم، ولو قال قائل: إن هذه الأيام هي كأيام الدنيا كان قوله بعيداً من وجهين **أحدهما:** أن هذا القول مخالف للآثار الواردة في ذلك، **والثاني** أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في خلقها في ستة آلاف سنة يتوهمه أيضاً في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ فهو سبحانه قادر على خلق كل شيء بقوله: ﴿ **كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ إذن فطول المدة أو عدم طولها لا يؤثر في هذا شيئاً لأنه القادر على أن يخلق الشيء بقوله كن فيكون، فإن قيل: هلا خلقها سبحانه في لحظة وهو قادر على ذلك؟ وللعلماء في هذا التساؤل أجوبة خمسة:

أحدها: أنه أراد سبحانه أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ذكره ابن الأنباري.

والقول الثاني: أن الثبوت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

القول الثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة لكن الثبوت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك كما يظهر قدرته في قوله: ﴿ **كُنْ فَيَكُونُ** ﴾.

القول الرابع: أنه تعليم لعباده، يعلم عباده سبحانه الثبوت في فعل الأمور وعدم العجلة وهو القادر على أن يخلق السماوات والأرض في قوله: ﴿ **كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ ومع ذلك خلقها في ستة أيام، كله تعليم لنا أن نثبت في أمورنا، فإنه إذا تثبت من لا يزل كان ذا الزلل أولى بالثبوت.

القول الخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.

قوله سبحانه: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ قال الخليل بن أحمد: العرش هو السرير، وكل سرير للملك يسمى عرشاً، وقلما يجمع العرش إلا في الاضطراب، وعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية وفي الإسلام، قال سبحانه: ﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا** ﴾ وقال سبحانه: ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ قال أمية أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسوى فوق السماء سريراً

شرجعاً لا يناله ناظر العين ترى دونه الملائكة سوراً

وقال كعب: إن السماوات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض، وروى إسماعيل بن أبي خالد عن سعد الطائي قال: العرش ياقوتة حمراء وإجماع السلف منعقد على ألا يزيدوا في قراءة الآية، وقد شذ قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك وهو عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة هذا القول للآثار المتضافرة، ألم يسمعوا قول الله سبحانه: ﴿ **وَكَانَ** ﴾

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ أترأه كان الملك على الماء؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى وهو قول أضعف وأشد فحشا من الذي سبقه ويحتجون بقول الشاعر:

حتى استوى بشر على العراق

من غير سيف ودم مهراق

ويحتجون بقول الشاعر أيضاً:

هما استويا بفضلهما جميعاً

على عرش الملوك بغير زور

وهو منكر حتى عند أهل اللغة، فقد قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ومن قال ذلك فقد أعظم الفرية، قالوا: وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ثم تمكن منه بعد ذلك والله **عَلَّمَ** لم يزل ولا يزال مستولى على الأشياء كلها وهو على كل شيء قدير، وكل الكون بيده يديره كيف يشاء وكل الكون ملكه فهو الخالق لكل شيء وهو القادر على كل شيء وهو الذي بيده أزمة الأمور كلها، ثم إن البيتين لا يعرف قائلهما ولا يصحان كذا قال ابن فارس اللغوي وغيره، ثم حتى ولو صحا فلا حجة فيهما لما ذكرنا من أن الاستيلاء لا يكون إلا من ضعيف غلب فغلب أما الله فهو غالب لا يُغلب، نعوذ بالله من تعطيل الملحدة ومن تشبيه المجسمة.

ومذهب سلفنا الصالح في الاستواء أنه استواء يليق بجلاله، قال جل وعلا: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** وهم يقولون: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب ومن ينكر ذلك فهو معطل ويؤمنون بذلك من غير تكيف أي من غير بحث في الكيفية، ولا تشبيه لا يشبهون الله بشيء من خلقه، ولا تعطيل فمن شبه الله بخلقه فقد كفر بالله ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر بالله وليس فيما وصف الله به نفسه أو فيما وصفه به رسوله ليس في ذلك تشبيه، وعلى المسلم أن يثبت لله تعالى من الصفات ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته ونفي النقائص عنه وهو سبيل الهدى ولا سبيل غيره.

قوله تعالى: **﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾** بينان لعظمة قدرته سبحانه: **﴿وَأَيَّاهُ هُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾** لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

قوله سبحانه: **﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾** قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، يغشي ساكنة الغين، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم يغشي مفتوحة الغين مشددة وكذلك قرءوها في الرعد قال الزجاج: المعنى أن الليل يأتي على النهار فيغطيه وإنما لم يقل ويغشي النهار الليل؛ لأن في الكلام دليل عليه، وقد قال في موضع آخر: **﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾** وهو دليل قدرته سبحانه أن يأتي الليل فيغطي النهار ويأتي النهار فيذهب الليل وهكذا يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وقال أبو علي: إنما لم يقل يغشي النهار الليل؛ لأنه معلوم من فحوى الكلام كقوله: **﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾** وانتصب الليل والنهار لأن كل واحد منهما مفعول به فأما الحثيث فهو السريع.

قوله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ قرأ الأكثرون بالنصب فيهن وهو على معنى خلق السماوات والشمس وقرأ ابن عامر: (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) بالرفع فيهن هاهنا وفي النحل أيضا، تابعه حفص في قوله: (والنجوم مسخرات) فحسب والرفع على الاستئناف والمسخرات بمعنى المذلات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير حسب إرادة المدبر لهن، وكانت العرب في جاهليتها تعظم هذه المخلوقات كالشمس والقمر ويظنونها أنها تفعل شيئا من ذاتها، وهي مسيرة مخلوقة لله مع عظم خلقها وارتفاعها فإنها تسير بإرادة الله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ لأنه خلقهم، وله الأمر فله أن يأمر بما يشاء ويتصرف بما يشاء، وقيل: إن معنى قوله ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي القضاء.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فيه أربعة أقوال للمفسرين:

أحدها: تفاعل من البركة، رواه الضحاك عن ابن عباس، وكذلك قال غير الزجاج وقال أبو مالك: افتعل من البركة، وقال الحسن تحيي البركة من قبله، وقال الفراء: تبارك من البركة وهو في العربية كقولك: تقديس ربنا.

والثاني: أن معنى تبارك بمعنى تعالى رواه أبو صالح عن ابن عباس، وكذلك قال أبو العباس: ارتفع . والتبارك بمعنى المرتفع.

والثالث: أن المعنى باسمه يتبرك بكل شيء قاله ابن الأنباري.

والرابع: أن معنى تبارك تقديس، أي تطهر، ذكره ابن الأنباري وغيره.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية هذا الدرس التاسع، وإلى الدرس العاشر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة العاشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخوتي الطلاب أخواتي الطالبات مع الدرس العاشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

لا يحب المعتدين في الدعاء وغيره.

قوله سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ التضرع هو التذلل والخضوع والخفية هو خلاف العلانية، قال الحسن: كانوا يجتهدون في الدعاء، ولا تسمع إلا همسا، ومن هذا حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو مخرج في الصحيحين: (أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائب). قال النووي في تفسيره لهذا الحديث: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه من أجل أن يسمعه وأنتم إنما تدعون الله تعالى وليس هو أصم ولا غائب، بل هو سميع قريب وهو معكم سبحانه بعلمه وإحاطته.

وفي الاعتداء المذكور هنا في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في تفسيرها قولان مشهوران لعلماء التفسير:

أحدها: انه الاعتداء في الدعاء، ثم في هذا القول ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يدعو على المؤمنين بالشر كالخزي أو اللعنة، قال ذلك سعيد بن جبير ومقاتل.

القول الثاني: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز.

القول الثالث: أنه الجهر في الدعاء قاله ابن السائب.

أما القول الثاني وهو أن المقصود بالدعاء قلنا الأول أنه الاعتداء فيه، القول الثاني أنه مجاوزة المأمور به، كما هو

مشهور قول الزجاج وغيره.

قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يأمرنا جل وعلا أن ندعوه تضرعا وخفية نخفي ذلك ليكون أبلغ في العبادة وأبعد عن الرياء ندعو الله دائما وأبدا لا نحتاج أن ندعوه وأنت مع الناس ادع الله وأنت مع نفسك، اخل بنفسك مع ربك وتضرع إليه واذكر حاجتك بين يديه تجب.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ يأمرنا الله أن ندعوه ويغضب سبحانه إذا لم ندعوه ونسأله:

فإن الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

الله يأمرنا بدعائه ودعاؤه عبادة وقال ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ندعو الله سبحانه ونحن موقنون بالإجابة، ندعو الله في كل أمورنا، ندعوه تضرعا وخفية فإنه لا يحب المعتدين، في كل شيء كما لا يحب المعتدين في الدعاء بأن يدعوا دعاء فيه تدع واستطالة كأن يدعوا دعاء مستحيلا كأن يطلب ما ليس له كأن يسأل الله أن يجعله نبينا، أو أن يسأل الله شيئا لا يمكن أن يكون لأحد من البشر فهذا من التعدي في

الدعاء أو أن يخصص أشياء في الجنة، كما جاء في بعض الآثار أن يقول: اللهم إن أسالك المكان الفلاني في الجنة.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

وهو كقوله سبحانه عن أنبيائه المقربين وعن أنبيائه والمرسلين قال عنهم: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ هؤلاء هم صفوة الخلق يدعون ربهم رغبا ورهبا وهو أمر لنا في أن نقتدي بهؤلاء الصفوة من خلق الله بهؤلاء الأنبياء فدعو الله رغبا ورهبا.

قال سبحانه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ينهى سبحانه عن الإفساد في الأرض؛ قل هذا الإفساد أو كثر وما أضر الإفساد فيها بعد الإصلاح والسداد فإن الفساد إذا وقع بعد ذلك بعد الإصلاح فيها وبعد استقامة حال أهلها واجتماع كلمتهم على الحق يكون أضر شيء على الناس؛ فنهى الله عن جميع أنواع الفساد نهي عن الفساد في العقائد ونهي عن الفساد في السلوك ونهي عن الفساد في البيئة وكما أفسد الناس فيما حولهم من سلوكيات طيبة كانت مُنسجمة مع الكتاب والسنة، وكم أفسد الناس ما حولهم من أمور الطقوس والبيئة حتى تغيرت الأجواء وحتى فسدت الأرض كما قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ وكم أفسد الإنسان الحياة عليه وعلى إخوانه البشر والله سبحانه لا يحب الفساد فهو ينهى عنه قل هذا الفساد أو كثر.

قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا نهي لنا أن نفسد فيها والنهي يقتضي التحريم وفي تفسير قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أقوال ستة:

القول الأول: لا تفسدوها بالكفر بعد صلاحها وإصلاحها بالإيمان.

القول الثاني: لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل ولا شك أن الظلم فساد وأن العدل إصلاح كما أن الكفر فساد والإيمان إصلاح.

القول الثالث: لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة ولا شك أن المعاصي مفسد وأن المعاصي لها شؤم يقع على الفرد وعلى الأسرة وعلى المجتمع وشؤم المعاصي نعوذ بالله منه يعم الصالح والطالح.

القول الرابع: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ لا تعصوا الله فيها فيمسك الله عنكم الخير ومنه المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها سبحانه بالخيرات والخصب والأمطار.

القول الخامس: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه؛ لأن المؤمن التقي النقي فيه صلاح ومنه إصلاح كما أن الكافر فيه فساد ومنه يقع الإفساد.

القول السادس: لا تفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في تفسير ذلك قولان:

أحدهما: ادعوه خوفاً أي من عقابه، وادعوه طمعا في ثوابه، **القول الثاني:** خوفاً من الرد وطمعاً في الإجابة والله قد وعد من دعاه بالإجابة، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد وعدنا بالإجابة وما علينا إلا الدعاء والتضرع والإنابة وأن نخلص في الدعاء له سبحانه وأن نقوم بسنن الدعاء ومستلزماته كيما تحصل لنا الإجابة.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الفراء: رأيت العرب تؤنث القرية في النسب لا يختلفون في ذلك، فإذا قالوا: دارك منا قريب، أو فلانة منا قريب، من القرب والبعد، ذكروا وأنثوا وذلك أنهم جعلوا القريب خلفاً من المكان كقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ولو أنث ذلك لكان صواباً، قال عروة:

عشية لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيد

وقال الزجاج: إنما قال قريب؛ لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي قال الأخفش: جائز أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر أو لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال قريب.

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]

لما ذكر تعالى أنه خالق السماوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدير أرشد كذا سبحانه إلى دعائه لأنه على كل شيء قدير ثم نبه هنا أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ قرأ أبو عمرو وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالرياح على الجمع، وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي الريح على التوحيد، وقد يأتي لفظ التوحيد ويراد به الكثرة كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، فالدرهم هنا يقصدون به الدارهم ومثله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

قوله سبحانه: ﴿بُشْرَى﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع نُشْرَى بضم النون والشين، أرادوا جمع نشور، وهي الريح الطيبة الهبوب تهب من كل ناحية، ومن كل جانب، قال أبو عبيدة النضر: المتفرقة من كل جانب، وقال أبو علي: يحتمل أن تكون النشور بمعنى المنشر وبمعنى المنتشر وبمعنى الناشئ، يقال: أنشر الله الريح مثل أحيائها فنشرت أي حييت والدليل على أن إنشاء الريح إحيائها قول الفقعي:

وهبت له ريح الجنوب وأحييت له ريذة يحيي المياه نسيمها

ويدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت قول الشاعر:

إني لأرجو أن تموت الريح فاقعد اليوم وأستريح

والريذة والريذانة الريح، وقرأ ابن عامر عبد الوارث والحسن البصري نُشْرَى بالنون مضمومة وسكون الشين وهي في

معنى نشر، قال يقال: كُتِبَ وَكُتِبَ وَرُسِلَ وَرُسِلَ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف والمفضل عن عاصم نشرى، نشرى بفتح النون وسكون الشين، قال الفراء: النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب. وقال ابن الأنباري النشر المنتشرة الواسعة المبوب وقال أبو علي: يحتمل النشر أن يكون خلاف الطي، كأخها كانت بانقطاعها كالمطوية، ويحتمل أن يكون معناها ما قاله أبو عبيدة في النشر أنها المتفرقة في الوجوه، ويحتمل أن يكون معناها النشر الذي هو الحياة، كقول الشاعر:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجا للميت الناشر

قال وهذا هو الوجه، وقرأ أبو رجاء العطاردي وإبراهيم النخعي ومسروق ومروق العجلي: نَشَرَا، بفتح النون والشين، قال أبو القاسم: وفي النشر وجهان: أحدهما أن يكون جمعا للنشور كما قالوا: عمود وعمد، وإيهاب وأهب، والثاني: أن يكون جمعا واحده ناشر، يجري مجرى قوله غائب وغيب، وحاقده وحقد، وكل القراء نون الكلمة، وكذلك اختلافهم في الفرقان وفي النمل، هذه قراءات من قرأ بالنون وقد قرأ آخرون بالباء، فقرأ عاصم إلا المفضل: بُشِّرَى: بالباء المضمومة وسكون الشين مثل فعلى، قال ابن الأنباري: وهي جمع بشيرة، وهي التي تبشر بالمطر والأصل ضم الشين إلا أنهم استقلوا الضميتين وقرأ ابن خثيم وابن جذلم مثله إلا أنهم نونا الرء، وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران وابن أبي عبله بضم الباء والشين وهذا على أنه جمع بشيرة، والرحمة ها هنا المطر، سماه الله رحمة لأنه كان بالرحمة.

ومعنى أقلت أي حملت قال الزجاج: السحاب جمع سحابة وقال ابن فارس: سمي السحاب لانسحابه في الهواء.

قوله سبحانه: ﴿ثَقَلَا﴾ أي محملة بالماء وقوله: ﴿سُقْنَاهُ﴾ رد الكناية إلى لفظ السحاب ولفظه لفظ الواحد وفي قوله ﴿يَلِدِ﴾ قولان مشهوران:

أحدهما: إلى بلد والثاني: لإحياء بلد، والميت الذي لا ينبت فيه أو الذي لا نبت فيه، كقوله سبحانه: ﴿وَأَيَّةَ هَمِّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا﴾ فهي أرض محتاجة إلى المطر وفي قوله سبحانه: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ في تفسير ذلك أقوال ثلاثة:

أحدهما: أن الكناية ترجع إلى السحاب والثاني: أنها ترجع إلى المطر، ذكرهما الزجاج وغيره، والثالث: أنها ترجع إلى البلد ذكر ذلك ابن الأنباري.

فأما هاء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فتحتمل الأقوال الثلاثة كذلك نخرج الموتى، أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها بالمطر كذلك نحي الأجساد في قبورها وهذا كثير في القرآن، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بالمطر مثلا لإحياء الناس في قبورهم لنشرهم وليعادهم كذلك نخرج الموتى أي كما أحيينا هذا البلد وكان بلدا ميتا لا نبت فيه فأنزلنا عليه المطر فأنبتت الأرض واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم، كذلك يحيي الله الموتى كحياة هذه الأرض، قال مجاهد: نحيي الموتى بالمطر كما أحيينا البلد الميت بالمطر وقال ابن عباس: يرسل الله تعالى بين النفختين مطرا كمني الرجال فينبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أمهاتهم والله على كل شيء قدير.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعل ترجي وإنما خوطب العباد على ما يرجوه بعضهم من بعض والمعنى لعلكم بما بيناه لكم تستدلون على توحيد الله وأنه يبعث الموتى وانه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من

في القبور، فهذا الدليل الحسي الماثل أمامكم من إحياء الأرض الميتة بعد أن نزل عليها المطر بشتى أنواع النبات هذا مثل ظاهر يحسه الناس كذلك يقدر سبحانه على إحياء الموتى بعد أن يموتوا ويدفنوا في قبورهم ولا شك أن الإعادة أهون من البداية وهو كله عليه هين سبحانه وهو على كل شيء قدير.

قال بعد ذلك: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨] هذا أيضاً مثل ضربه الله للمؤمن والكافر وهو مثل أيضاً للقلب الطيب وللقلب المريض.

قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ يعني الأرض الطيبة في تربتها يخرج نباتها طيباً وقرأ ابن أبي عملة: يخرج أو يخرج بضم الياء وكسر الراء، بنصب التاء.

﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ﴾ وقد روى أبان عن عاصم لا يخرج بضم الياء وكسر الراء، والمراد بالذي خبث الأرض السبخة.

قوله: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قرأ الجمهور بفتح النون وكسر الكاف، وقرأ أبو جعفر نكدا بفتح الكاف، وقرأ مجاهد وقتادة وابن محصين نكدا بإسكان الكاف، وقرأ أبو عبيدة قليلاً عسيراً في شدة، قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبأن أثره عليه فشبهه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحصل أثر نزول المطر عليه وعكسه الكافر وكذلك القلوب مع القرآن، هناك قلوب تنتفع بالقرآن وتتأثر به ويظهر أثره على جوارح هذا الانسان، وثمة قلوب أخرى لا ترعوي ولا يؤثر فيها القرآن، نعوذ بالله من القلوب القاسية.

وإلى هنا ينتهي الدرس العاشر وإلى الدرس الحادي عشر. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الحادية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخوتي الطلاب أخواتي الطالبات مع الدرس الحادي عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢]

نوح أول الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما الصلاة والسلام ولما بيّن سبحانه أنه الخالق القادر على كل شيء ذكر بعد ذلك أقاصيص الأمم المباداة في القرآن، ذكر أقاصيص الأمم المعاقبة في القرآن، ذكر أقاصيص الأمم المعذبة في على كفرها وعلى عنادها وعلى شقاقها وعلى عصيانها لرسل ربها، وهذا تحذير للكفار وقت البعثة، وتحذير للعصاة إلى قيام الساعة؛ إن ينحوا نحوهم فإن عاقبتهم ستكون كعاقبة أولئك.

قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهكذا الرسل يخافون على أممهم ويرحمونهم ويرجون لهم الخير ويحبونه لهم؛ لكن المترفين والرؤساء والعظماء والمتنفذين يقفون أمام هؤلاء الأنبياء: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي قال أشرف القوم ورؤساء القوم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأن هؤلاء الطغاة وهؤلاء الظلمة يرون أنه لا مكان لهذا النبي إلا أن يأخذ أمكتهم وأنه سيكون له الصولة والجولة وأن الناس سيميلون إليه ويتركونهم ولذا ما كان منهم إلا أن وصفوا هذا النبي بالضللال المبين، وهو حال الأمم جمعا يصف الطغاة والظلمة فيها يصفون الأنبياء والمصلحين بالضللال ويصفونهم بأقبح الأوصاف ليعبدوا الناس عنهم، وليبعدوا الناس عن الاستجابة لهم؛ كما قال فرعون لقومه محذرا لهم ومخوفا من موسى عليه السلام قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ يا سبحان الله! فرعون يتظاهر بالصلاح ويخاف على قومه من فساد موسى وأنه سيفسد في الأرض هكذا يكون قلب الحقائق، ويوجد من الدهماء ويوجد من الغوغائيين ويوجد من النفعيين ممن يستجيبيون لهؤلاء ويصدقون كلامهم ضد هؤلاء الأنبياء وضد هؤلاء المصلحين.

قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ هكذا بهذه البساطة وبهذا الأدب الجم وبهذا الرد على نحو من قولهم، يقولون: فيك ضلال مبين، يقول: ليس بي ضلالة، فقط ولا يزيد على ذلك، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ يعني هذه هي الغاية التي جئت من أجلها أن أبلغكم رسالات ربكم وأنا في ذلك ناصح لكم وأنا في ذلك أعلم مما علمني الله ما لا تعلمون.

قوله سبحانه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه وهو وارد على لسان الأنبياء كلهم مع أممهم، كلهم ينادون أممهم أن اعبدوا الله.

قوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ قرأ الكسائي غيره بالخفض، قال أبو علي: جعل غير صفة لإله على اللفظ.

قوله: ﴿ أَبْلَغُكُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو أبلغكم ساكنة الباء، وقرأ الباقون أبلغكم مفتوحة الباء مشددة اللام.

قوله: ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ وهكذا الأنبياء عليهم السلام نصيحة لأمرهم يقال: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له.

قوله سبحانه: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من مغفرته لمن تاب ولعقوبته لمن أصر على الذنب، وقال مقاتل: أعلم من نزول العذاب ما لا تعلمون، وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم عذبوا قبلهم.

قوله سبحانه: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٣-٦٤]

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: لا تعجبوا أن يوحى الله وحيا من عنده على رجل منكم تعرفون نسبه وهو من جنسكم ولم يكن من غير جنسكم فتنفرون منه أرسله الله رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم عقابه حتى تتقوا سخطه وتتقوا نعمته وتلتالوا رحمته ولكن هؤلاء لم يصغوا للكلام نوح وكذبوه بل تمادوا على تكذيبه وعلى مخالفته وما آمن منهم معه إلا قليل، فحق عليهم الكتاب ونزل بهم العذاب ولم ينبج إلا نوح ومن آمن معه وما آمن معه إلا قليل؛ فأجنيناه وأصحاب السفينة وقال سبحانه: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ وسنة الله في عبادة في الدنيا والآخرة أن العقابة الحسنة للمتقين ولهم الظفر والغلبة وأن الهلاك والشقاء للعصاة والمعرضين.

قوله سبحانه: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ ﴾ قال الزجاج: هذه واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام فبقيت مفتوحة، وفي الذكر قولان: أحدهما: الموعظة، والثاني: البيان.

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ وفي قوله: ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ قولان: أحدهما: أن على بمعنى مع قاله الفراء، والثاني: أن المعنى على لسان رجل منكم قاله ابن قتيبة.

قوله: ﴿ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي إنما أرسل إليكم رجل منكم لتفهموا قوله ولتعرفوا مراده لتحصل لكم التقوى فتصلح أعمالكم وتحصل لكم الرحمة لكنهم كذبوه وأنجاه الله والمؤمنين معه وأغرق الذين كذبوا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله ومعرفة قدرته وشدة بطشه وعميت عن الحق كما قاله قتادة، هؤلاء كانوا قَوْمًا عَمِينَ ليس عمى البصر ولكنه عمى البصيرة وهو الأشد قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ وهذا هو العمى المركب، وهذه هي الطامة الكبرى ألا يفيق هذا القلب وألا يعروي وألا يتقي الله فيما يأتي ويذر، فهؤلاء وُصفوا بأنهم قوم عمين عن الحق وعن الدلالات البينة، ثم قال سبحانه بعد أن ذكر قصة نوح مع قومه إلى قصة أخرى حصلت مع نبي أيضًا من أنبياء الله ومع قوم عصوا نبينهم كما عصى قوم نوح نوحا قال سبحانه: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَادُّكُّوا إِذْ جَعَلَكُمْ

خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٠]

قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وكما أرسل الله إلى قوم نوح نوحا أرسل إلى قوم عاد أخاهم هودا ولكنهم كما قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِذْ مَاتَ الْعِمَادُ ﴿٦٦﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم لكن هذه القوة لم تغن عنهم شيئا لما جاءهم عذاب الله ولما جاءهم انتقامه ممن عصاه.

﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ المعنى وأرسلنا إلى عاد أخوهم هودا وإنما قيل أخوهم لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم لأنهم من قومهم، والمرء من قومه أخا لهم، وقال أبو سليمان الدمشقي: وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح وإنما سماه أخاهم لأنه كان نسبيا لهم وهو وهم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سُفَاهَةٍ﴾ أي قال هؤلاء القوم لنبيهم إنا لنراك أحق وفيك خفة عقل قال ابن قتيبة: السفاهة الجهل، وقال الزجاج: السفاهة خفة الحلم والرأي يقال: ثوب سفاهة إذا كان خفيفا، ويرد عليهم نحو من قولهم: ﴿لَيْسَ بِي سُفَاهَةٌ﴾ يرد عليهم من لفظ قولهم ردًا يحمل كل معاني الأدب، بهذه البساطة لا يجارهم ولا يتأثر بأداهم وإنما كما أدبه ربه يرد عليهم بهذا الأدب ردًا على نحو من الكلمة التي قالوها: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سُفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيقول: ليس بي كذا، ليس بي ما تقولون.

ثم بعد ذلك ينتقلون إلى وصف آخر: ﴿وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي إنا ظانين غير مستيقنين ونتوقع أو أن تكون بمعنى اليقين فإنها من كلمات الأضداد، إنا مستيقنين أنك كاذب، كذا يزعمون وكذبوا، بل هم الكاذبين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سُفَاهَةٌ﴾ هذا موضع أدب يؤدبنا الله فيه أن نتأدب بهذا الأدب الذي أدب الله به أنبياءه في رداهم على المخالفين وردهم على المعاندين والمعارضين فهو يقول لهم: ﴿لَيْسَ بِي سُفَاهَةٌ﴾ ولا يؤثر هذا فيه، فيخل بالأدب وإنما يرد عليهم بهذا الأدب ﴿لَيْسَ بِي سُفَاهَةٌ﴾ هذا موضع أدب، أدب الله به الأنبياء في حسن المخاطبة للمخالفين فإنه دفع ما سبوه به من السفاهة بماذا؟ بنفيه فقط، لم يزد على ذلك، أحق، لا لست أحق، أنت جاهل، لا لست جاهل، ولا يزيد على ذلك وهكذا الأنبياء مع أممهم بكل نصيح وبكل أمانة وبكل أدب مع الناس.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قال الضحاك: أنا أمين على الرسالة، وقال ابن السائب: كنت فيكم أمينًا قبل اليوم وهكذا يوحى الله سبحانه إلى الكمل من الرجال في كل رسالة يرسل به رسولا فإنه يختار سبحانه الرجال بمعنى الرجولة يختار سبحانه الكمل منهم، يختار من هو معروف في قومه بالأخلاق العالية فهذا كان أمينًا يعرفونه كما كان نبينا ﷺ يلقب قبل البعثة بالصادق الأمين، والله سبحانه وتعالى يربي هؤلاء على عينه، يربيه من أجل أن يتحملوا رسالته.

قوله سبحانه: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ﴾ ذكرهم بهذه النعمة حيث أهلك من كان قبلهم وأسكنهم مساكنهم

وهكذا الخلف يأتون بعد السلف فهي نعمة أن أبقاهم بعد من كان قبلهم ممن أهلكهم ثم ذكر نعمة أخرى فقال: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي زاد في طولكم وزاد في قوتكم، وقال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع يقول: الطويل منهم مائة ذراع، وأقصرهم ستون ذراع، هذا على قول والله أعلم بحقيقة الأمر، ولكن الله ذكر: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ زادهم قوة زادهم مناعة زادهم ما زادهم والله يؤتي من يشاء ما يشاء.

قال الزجاج: وآلاء الله نعمه واحدها إلى أو إليها أو ألى، وقوله: ﴿فَاتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من نزول العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن العذاب نازل بنا وقال عطاء: في نبوتك ورسالتك إلينا إن كنت من الصادقين فأنزل العذاب علينا، ولو أنهم كانوا متأدبين لقالوا: اللهم إن كان نبيك صادقا فارزقنا الاستفادة مما جاء به والتصديق به والإيمان به ولكنها الحماقة، قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ [الأعراف: ٧١-٧٢] قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾.

قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ قال لهم هود عليه السلام: وجب عليكم من ربكم رجس وغضب، قال ابن عباس: عذاب وسخط، وقال أبو عمرو بن العلاء: الرجز بالزاي والرجس بالسين هما بمعنى، قلبت السين زاي.

قوله: ﴿أَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ يعني الأصنام وفي تسميتهم لها قولان: أحدهما: أنهم سموها آلهة والثاني: أنهم سموها بأسماء مختلفة والسلطان هو الحجة، فانظروا نزول العذاب، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي، هؤلاء القوم المكذبين لنبيهم المستهزئين به الواصفين له بالسفاهة قال لهم: ﴿وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ يعني اتخذتموها من عندكم آلهة وعبدتموها من دون الله ما أنزل الله بها من حجة وإن العذاب واقع بكم وأنا معكم من المنتظرين وقد طلبتم أن يأتيكم العذاب إن كنتم صادقين وها هو العذاب يقع عليكم فأجابه الله ومن معه وقطع دابر القوم الذين كذبوا وما كانوا مؤمنين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] أرسل الله إلى قبيلة ثمود أخاهم صالح ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهكذا جميع الرسل يدعون أممهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي وكما أرسلنا إلى عاد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا يدعوهم إلى الله وينذرهم عذابه ويخوفهم من عذابه إن عصوه، فطلبوا آية على ذلك وهي ناقة تخرج من الجبل؛ فأخرج الله لهم هذه الآية

ولكنهم لم يصدقوا بها قال لهم هذه ناقة الله في إضافتها إلى الله قولان:

أحدهما: أن ذلك للتخصيص والتفضيل كما يقال بيت الله.

والثاني: لأنها كانت بتكوينه من غير سبب ظاهر يروونه.

﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي علامة تدل على قدرة الله، وإنما قال لكم لأنهم هم الذين اقترحوها وإن كانت آية لهم ولغيرهم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه الآية، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية هذا الدرس، وإلى الدرس التالي بعده بحول الله. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

المحاضرة الثانية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخوتي الطلاب أخواقي الطالبات مع الدرس الثاني عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤]

أرسل الله جل وعلا إلى قبيلة ثمود أرسل إليهم أخاهم صالحًا، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهكذا جميع الرسل يدعون أمهم إلى عبادة الله جل وعلا لا شريك له كما قال جلا وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وكما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وهنا دعا صالح قومه أن يذكروا نعمة الله عليهم وأن يشكروها كما ذكر هود عاد بذلك وذكرهم صالح أن يذكروا أن الله جعلهم خلفاء يخلفون من قبلهم وبوأهم الأرض ومكنهم بناء منازلهم فيها إن في السهول أو في الجبال، فادكروا آلاء الله وادكروا نعمه عليكم.

قوله جلا وعلا: ﴿وَالِى ثَمُودَ﴾ قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها، قال ابن فارس: الشمد الماء القليل الذي لا مادة له.

قوله سبحانه: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ في إضافتها إلى الله قولان: أحدهما: أن ذلك للتخصيص والتفضيل كما يقال: بيت الله، والقول الثاني: لأنها كانت بتكوينه سبحانه إذ أنها خرجت من غير سبب يعلمونه فلذلك نسبت إلى الله وقال ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾.

قوله جل وعلا: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ سياق قصة الناقة لا يذكر تفصيلا عن الناقة إلا أنها آية بينة من الله وأنها ناقة الله وأنها من عنده سبحانه دلالة على صدق رسوله صالح عليه السلام، ويدل قوله ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وإضافتها إلى الله أنها ناقة لا كالنوق أو أنها خرجت خروجاً غير مألوف لديهم مما يجعلها بينة وآية على صدق نبوته لكن ثمود كذبت نبيها كما قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانها وهو خروجها عن الحد في العصيان ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث هذا الشقي لعقرها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ يعني صالحاً، ناقة الله أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء وذروها وشربها فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها الله من الصخرة جعل لها شرب يوم من بئرهم وجعل لها شرب يوم معلوم، فعصوا وكذبوا، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ كذبوا صالحاً وعقروا الناقة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ أي أهلكهم بجرمهم وأطبق عليهم العذاب وسواهم بالتراب، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فأصبحوا نادمين ولقد جاء ذكر الناقة في غير ما سورة من سور القرآن.

قوله: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي أنها علامة تدل على قدرة الله، وإنما قال لكم لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم

ولغيرهم وفي وجه كونها آية قولان:

أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء فتمحضت بها تمخض الحامل، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم وتسقيهم اللبن مكان هذا الماء.

قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: ليس عليكم مؤنتها وعلفها و (تأكل) مجزوم على جواب الشرط المقدر أي أنت تذروها تأكل.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ أي لا تصيئوها بعقر.

قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم يقال: تبوأ فلان منزلاً إذا نزله وبوأته أنزلته قال الشاعر:

وبوأت في صميم معشرها

فتم في قومها مبوأها

أي أنزلت من الكرم في صميم النسب كما هو عند الزجاج وغيره.

قوله جلا وعلا: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا﴾ السهل ضد الحزن والقصر ما شيد وعلا من المنازل قال ابن عباس: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ونقبوا في الجبال للشتاء، قال وهب بن منبه كان الرجل منهم يبني البيوت فتمر عليه مائة سنة فيخرب ثم يجدده فتمر عليه مائة أخرى فيخرب ثم يجدده فتمر عليه مائة أخرى فيخرب هذا البناء فأضجرهم ذلك فاتخذوا من الجبال بيوتاً، هذا وإن هؤلاء القوم الذين مكنهم الله هذه المكنة من بناء هذه البيوت وفي الجبال على عمل لم يشأه عمل غيرهم دليل على ما مكنهم الله به، من الحضارة والرقي الذي كان عندهم وهي حضارة مادية كانوا بها يروعون في بناء بيوتهم ويضعون تلك الزخارف وتلك الأبنية المشيدة والتي لا زال بقيتها باقية إلى الآن وكأنه لتوه صنّع ولتوه نحت في الجبال لكن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم هذه النعم أنعم عليهم بالخيرات ووفرة الأرزاق وأنعم عليهم بأن سهل لهم عمل ما يسكنونه من قصور تكبروا وتنكبوا صراط الله وعصوا رسول الله وكذبوا بهذه الآية التي جاءتهم على حسب طلبهم.

قوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]

قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقرأ ابن عامر وقال الملاء بزيادة واو، وكذلك هي في مصاحفهم، ومعنى الآية تكبروا عن عبادة الله ولم يكتفوا بهذا التكبر بل أرادوا أن يصدوا غيرهم عن الدين ويصدوهم عن طاعة هذا الرسول فتوجهوا إلى هؤلاء الذين استضعفوا من أتباع نبيهم فقالوا للذين استضعفوا يريدون المساكين والضعفاء من الناس لمن آمن منهم وهو بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ لأنهم المؤمنون يقولون لهم أتعلمون أن صالح مرسل من ربه؟ وهو استفهام إنكاري كأنهم يلومونهم أن آمنوا برسالة صالح وأنه مرسل من ربه كأنهم يقولون لهم: أأنتم متأكدون من إيمانكم؟ هل أنتم آمنتم بمجاملة أو أن إيمانكم ليس إيماناً كاملاً؟ فرد عليهم هؤلاء الضعفاء المؤمنون بصالح أنهم مؤمنون بما أرسله الله

به، وقال الذين استكبروا لهم رادين عليهم لكننا لا نؤمن بالذي آمنتم به وإنا به كافرون. وهكذا دائماً وأبداً شياطين الجن والإنس يقفون للمؤمنين في الطرقات ويقفون لهم في كل طريق يسبرونه طالبين رجوعهم عنه ساعين إلى صدهم عنه ثم إن هؤلاء لم يكتفوا بهذا الكفر بنبيهم صالح ولم يكتفوا بصد الناس عنه ولا بتشكيكهم برسالته بل إنهم توجهوا إلى هذه الآية التي طلبوها كيما يؤمنوا بصالح ثم جاءت كما طلبوا توجهوا إلى هذه الآية وهي الناقة ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ كأنهم يتحدثون بنبيهم صالح ويقولون له إن كنت كما تقول وأن الله سيستجيب لك وأن الله سيعاقبنا إن نحن تعرضنا لهذه الناقة فائتنا بالعذاب فجاءهم العذاب فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فعقروا الناقة أي قتلوها قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل ومنه قوله عليه الصلاة والسلام عند ذكر الشهداء: (من عقر جواده) وقال ابن إسحاق: كمن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها قال الأزهري: العقر عند العرب قطع عرقوب البعير، ثم جعل العقر نحرًا، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره، وقيل للنحر عقر لأن العقر سبب النحر في الغالب وجاء في صحيح مسلم خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: (إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَالِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ) انتهى. وقيل في اسم عاقر الناقة أنه قدار ابن سالف أو قدار بن سالف.

قوله: ﴿وَعَتَوْا﴾ قال الزجاج: أي جاوزوا المقدار في الكفر، قال أبو سليمان عتوا عن اتباع أمر ربهم، قوله: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من العذاب.

قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وكما قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ قال الزجاج: معنى الرجفة هي الزلزلة الشديدة.

قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي في مدينتهم. فإن قيل كيف وحد الدار هاهنا وجمعها في مواضع أخرى؟ قيل كما قال في ديارهم فعن ذلك جوابان ذكرهما ابن الأنباري:

أحدهما: أنه أراد بالدر المعسكر أي فأصبحوا في معسكرهم وأراد بقوله في ديارهم المنازل التي ينفرد كل واحد منهم بمنزله. والثاني: أنه أراد بالدار الديار فاكفى بالواحد من الجميع.

قوله جلا وعلا: ﴿جَاثِمِينَ﴾ قال الفراء: أصبحوا رمادًا جاثمًا وقال أبو عبيدة أي بعضهم على بعض جثوم والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل، قال ابن قتيبة: الجثوم البروك على الركب، وقال غيره: كأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال، وقال الزجاج: أصبحوا أجسامًا ملقاة على الأرض كالرماد الجاثم، قال المفسرون معنى جاثمين أي أن بعضهم على بعض أي أنهم سقطوا سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي لم تقبلوا نصحي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ

شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٠﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف : ٨٠ - ٨٢]

قوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي انصرف صالح عن قومه بعد عقر الناقة؛ لأن الله أوحى إليه أن اخرج من بين أظهرهم فإني مهلكهم وقال قتادة: ذُكر لنا أن صالحًا سمع قومه أو أسمع قومه كما أسمع نبينا قومه يعني بعد موتهم فإني نبينا بعد ما قُتل من قُتل من المشركين جاء إليهم وهم في الحفر التي وضعوا فيها فقال لهم: (هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا: فإني وجدت ما وعد ربي حقًا) وهكذا صالح تولى عنهم بعد أن حصل عليهم ما حصل وقال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ أي أنني أعذر أمام الله وأني بذلت ما أستطيع وأني نصحت لكم لكنكم أبيتم إلا الضلال أبيتم إلا العناد فهنا وقعت عليكم الطامة ولا مسئولية علي وإن بذلت ما أستطيعه ولكنكم لا تحبون الناصحين.

ثم ينتقل السياق معنا إلى نبي آخر من أنبياء الله وإلى معالجة أخرى من القضايا التي في قومه فكل نبي يأتي إلى قومه يعالج القضية الكبرى عندهم ولا شك أن كل الأنبياء يدعون إلى دعوة واحدة وهي عبادة الله، لكن كل مجتمع وظروفه وكل مجتمع ومشكلاته فلو طوا ^{الطوا} لما بعث في أهل سدوم كان هؤلاء القوم عندهم قضية أخلاقية ليست عند غيرهم بل لم يسبقهم أحد إليها، قال سبحانه: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فقد بعث الله لوطًا إلى أهل سدوم وما حولها وما جاورها من القرى وهي الآن البحر الميت وما حوله، بعث إليهم لوطا ^{عليه السلام} يدعوهم إلى الله ^{تعالى} ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم ومن المحارم ومن الفواحش التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين ألا وهو الشذوذ الجنسي؛ إتيان الذكور للذكور، وهو أمر لم تكن بنو آدم تعهده ولم تكن تألفه ولم يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم، قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي: والله لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا.

ثم قال الله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني إتيان الرجال ما سبقكم بها من أحد، قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط. وقال بعض اللغويين: لوط من مشتق من لطت الحوض إذا ملسته بالطين، قال الزجاج: وهذا غلط، لأن لوط اسم أعجمي كإسحاق ولا يقال إنه مشتق من السحق أو من السحق وهو البعد، والأسماء أصلا لا تعلق، كيف إذا كانت أسماء أعجمية.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ وهذا استفهام إنكاري والمسرف هو المجاوز ما أمر به.

قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ يعني لوطا وأتباعه المؤمنين ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: أي يتنزهون عن أدبار الرجال ويتنزهون عن أدبار النساء، وهكذا عابوهم بغير عيب وهكذا أهل الضلال وأهل الفساد يصفون غيرهم بالذنب الذي هم واقعون فيه وكأن هذا الناصح لهم هو المخطئ وهو المحرم وكأنهم يتنصلون من جريمتهم ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ و يا سبحان الله عيبتهم التطهر عيبتهم النظافة عيبتهم أنهم ابتعدوا عن الدنس ابتعدوا عن الفاحشة ابتعدوا عن المرض ابتعدوا عما يغضب الله فصار هذا كأنه هو ذنبهم فعابوهم بغير عيب.

قال سبحانه: ﴿فَأُنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [الأعراف : ٨٣-٨٤]

قوله جلا وعلا: ﴿فَأُنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ابتناه والثاني: المؤمنون به، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي كانت من الهالكين أي كانت من الباقين في عذاب الله وإنما قال: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ لأن صفة النساء مع صفة الرجال تُذكر إذا أشرك بينهما وامرأته كانت من الظالمين وكانت على دين قومها ولذلك هلكت مع من هلك ونجا نبي الله لوط ومن آمن معه.

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة قال مجاهد: نزل جبريل فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط ورفعها ثم قلبها عليهم فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة، وقد اتفق علماء الإسلام على تحريم اللواط وأنه كبيرة من كبائر الذنوب. قال أبو حنيفة رحمه الله: عقاب من وقع في اللواط أن يلقي اللائط من شاهق وأن يتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وقال مالك رحمه الله: يرحم اللائط أحصن أو لم يحصن وهو أحد قولي الشافعي، قال ﷺ: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به). نعوذ بالله من هذا العمل الشنيع.

يروى عن أبي بكر ﷺ لما ذكر عنده حال من وقع في اللواط قال: عيذا بالله من ذلك أنفر من الغائط ونأتي إليه في حشه. يعني أنفر من الغائط وهي العذرة - أعزكم الله - أن تلامس ثيابنا فضلا عن أبداننا ثم نأتي إليها في حشها، يعني نأتي إليها في مستقرها، إن هذا لا يفعله من عنده ذرة من فطرة سليمة، نعوذ بالله من سوء الفتن ونسأله السلامة لنا ولجميع المسلمين والحفظ من هذا وغيره، وهو على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثالثة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخوتي الطلاب أخواتي الطلاب مع الدرس الثالث عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٨٥] أرسل الله إلى جل وعلا إلى أهل مدين شعيب عليه السلام ليدعوهم إلى توحيد الله ويدعوهم إلى ترك عبادة من سواه، ويأمرهم بعدم بخس المكاييل بعد إصلاحها وكان الفساد الاقتصادي رائجا عندهم ف جاء هذا النبي إليهم مرشدا لهم ومعلما وموجها إلى الخير.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ أي وكما أرسلنا إلى أمم قبلهم رسلا أرسلنا إلى أهل مدين شعيبا ومدين ماء كان عليه قوم شعيب وكذلك قال الزجاج، وقيل لا ينصرف لأنه اسم البقعة، وقال مقاتل هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه، وقال أبو سليمان الدمشقي مدين هو ابن مديان ابن إبراهيم والمعنى أرسلنا إلى ولد مدين فعلى هذا هو اسم قبيلة وقال بعضهم هو اسم للمدينة، فالمعنى وإلى أهل مدين، وقيل إن مدين اسم أعجمي فإن كان عربيا فالياء زائدة من قولهم: مدن بالمكان إذا قام به.

قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ قال الزجاج: البخس النقص والقلة يقال: بخست أبخس بالسين وبخصت عينه بالصاد لا غير، وبخصت يأتي بالصاد لا غير، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تعملوا فيها بالمعاصي، بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل وإرسال الرسل، وبعد أن صلحت هذه الأرض بالطاعة فهو أضر ما يكون عليها أن تنتشر فيها المعاصي.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أن كنتم مصدقين بما أخبرتكم به عن الله فلا تفعلوا هذه الأفعال ولا تبخسوا الناس أشياءهم، يقول جل وعلا: ﴿وَيَلِّ لِلْمُظَفِّينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي أنه إذا أراد أن يكيل لنفسه زاد الوزن وإذا كال لغير نقص الوزن وهذا بخس للمكاييل وظلم للناس، فإن شعيبا وجد قومه على هذه الصفة فلما وجدهم على هذه الحال من بخس للمكاييل أرشدهم إلى أن هذا فساد وإفساد، وإن هذا هو عين الفساد وهو فساد اقتصادي كان مستشري عندهم فأراد أن يدعوهم إلى إصلاح هذا الوضع وإلى إعطاء الناس حقوقهم فأنت تدفع له مثلا عشرةا ليعطيك بهذا المبلغ الوزن كذا من الطعام فإنه يظلمك إن نقص هذا الوزن وأخذ منك المبلغ كاملاً.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أن كنتم مؤمنين بالله مصدقين به فإن الله يأمركم أن تعدلوا فيما تأتون وفيما تدرن كما تحبون أن يعدل الناس معكم اعدلوا معهم وكما تحبون أن تأخذوا حقكم وافيا فغيركم يجب أن يأخذ حقه وافيا.

ثم قال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ [الأعراف : ٨٦] فإنهم كانوا

يقفون في طرق هؤلاء المؤمنين ويجذروهم من الإيمان بالله ومن التصديق لرسل الله، ﴿وَتَبِعُونَهَا عَوْجًا﴾ يعني تبغونها طريقا معوجا ولا تريدون الصراط المستقيم وهو طاعة الله رب العالمين.

﴿وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يذكرهم بنعم الله عليهم، وما أكثر نعم الله علينا جميعا ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فنعم الله علينا تترأ، ونعم الله تزداد مع الشكر فإن شكرنا هذه النعم أبقاها الله وزادها وشكرها لا يكون كلامًا فقط وإنما هو حمد وثناء على الله باللسان وإنما هو عمل بالأركان بالطاعة ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي بكل طريق من الطرق من طرق الناس ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالشر وتخوفنهم بالعذاب والقتل، وهكذا كانوا يفعلون بالمؤمنين بشعيب يقفون لهم بالطرقات يجذروهم من هذا الرجل والإيمان به، وإن قيل: كيف أفرد الفعل هنا وأحلاه هنا من المفعول وتعدوا بكل صراط توعدون بكذا أن العرب إذا أحلت هذا الفعل من المفعول لم يدل إلا على شر يقولون أوعدت فلانا وكذلك إذا أفردوا وعدت من المفعول لم يدل إلا على الخير فهنا قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي بالشر قال الفراء يقولون: وعدته خيرا وأوعدته شرا فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا: وعدته في الخير وأوعدته في الشر فهنا يوعدون هؤلاء أي يوعدونهم بالعذاب ويوعدونهم بالأذى إن هم آمنوا بهذا النبي.

قال ابن الجوزي رحمه الله في تفسيره زاد المسير: وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: إذا أرادوا أن يذكروا ما تهددوا به مع أوعدت جاءوا ، بالباء فقالوا أوعدته بالضرب ولا يقولون: أوعدته بالضرب قال السدي: كانوا عشارين يأخذون من الناس الأعشار فيقفون لهم في الطرق يأخذون عشر ما معهم من طعام وغيره، وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطريق أي يقفون في الطرق يأخذون ممتلكات الناس وهو قطع الطريق، وهو محرم بجميع الأديان بل بجميع القوانين حتى القوانين الوضعية تجرم ذلك أن يقف في طريق الناس السابلة ويقطع عليهم طريقهم، وقد وجد شعبيا قومه على هذا الفعل فأراد أن يبين لهم خطر ذلك وأتهم مفسدون فيه وطلب منهم ألا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تصرفون عن دين الله من آمن به، وسبيل الله هو طريق الله وهو الحق وهو صراطه المستقيم.

﴿وَتَبِعُونَهَا عَوْجًا﴾ أي تبغونها طريقًا مائلة لا تريدون الطريقة القويمة ولا تريدون الأفعال الطيبة وإنما تريدونها طرقا معوجة وتريدونها معاص وموبقات.

﴿وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ قال الزجاج: جائز أن يكون المعنى جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء وجائز أن يكون كثر عددكم بعد أن كنتم قليلاً وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار فكثروهم الله بمعنى أنهم كانوا قليلي المال فكثر الله مالهم وكانوا قليل العدد فكثر الله عددهم وكل أولئك نعم تستحق الشكر من الله سبحانه فهو المنعم المتفضل ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخُصِمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٧] يخاطبهم بكل لين ورفق يخاطبهم نبيهم شعيب قائلاً لهم: إن كان منكم من آمن بي وطائفة

لم يؤمنوا فاصبروا أيها الكافرون اصبروا أيها المعاندون، اصبروا حتى يحكم الله بيننا وترون النتيجة والعاقبة دائما للمتقين لكن هؤلاء الضلال وهؤلاء المتربصون بالحق وأهله، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف : ٨٨]

لم يقدروا على إجابة الحجة بالحجة ولم يكن عندهم منطق مقبول فما كان منهم إلا أن يستخدموا نفوذهم وأن يستخدموا قوتهم ويستخدموا مكنتهم في ذلك وقدرتهم عليه وهو أن يخرجوا هذا النبي ومن معه يخرجوهم من هذا البلد ويمنعوهم من دخوله إلا أن يعود إلى ما هم عليه، ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فوقتها تبقون معنا كما أنتم الآن وإلا فإننا لا نساكنكم البلد وتخرجون منه ونبقى وحدنا فيه فرد عليهم قائلا: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي لا نقبل ذلك وحتى لو أجبرتمونا على ذلك فإننا لا نقبله.

قوله ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي إن اختلفتم في رسالتي فصرتم على فريقين مصدقين ومكذبين فاصبروا حتى يحكم الله بيننا؛ حتى يأتي الأمر جلياً ظاهراً يعذب الله المكذبين، وينجي الله المصدقين، وهو خير الحاكمين، فهو العدل الذي لا يجور سبحانه وهو الذي يجازي كلا بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعنون ديننا وهو الشرك، قال الفراء: جعل في قوله ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾ لا من كجواب اليمين وهو في معنى شرط ومثله في الكلام: والله لأضربنك أو تقر لي فيكون معناه معنى إلا أو معنى حتى، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي أو تجبرونا على ملتكم ان كرهناها والألف للاستفهام فإن قيل كيف قالوا: لتعودون وشعيب لم يكن في كفر قط فيعودوا إليه، فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً ثم آمن خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه وغلبوا لفظه على لفظه لكثرتهم وانفراده.

والثاني: أن المعنى لتصيرين إلى ملتنا فوق العود على معنى الابتداء كما يقال قد عاد علي من فلان مكروه، أي قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن سبق منه مكروه وكان شعيب يقول لهم: أنا لم أكره أحداً على الإيمان بالله فكيف تكرهوني على دينكم؟ لم أكره أحداً على التصديق بي ولم أكره أحداً على هذا الإيمان فكيف بكم أنتم أن تكرهوا من آمن بالله أن يؤمن بدينكم وأن يكون عليه؟

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَاءَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف : ٨٩] هكذا يستجير بالله يستجير بالله شعيب وهنا يطلب من الله العون والمدد وهنا يدعو ربه أن ينجيه من هؤلاء فإنه المعين سبحانه وهو العاصم من الوقوع في الزلل يستعيز بالله أن يعود من هذه الملة وفي الضلال أن يعود أتباعه إلى الضلال بعد أن نجاهم الله من هذا الضلال ويدعو الله سبحانه أن يفتح بينه وبين قومه بالحق وهو خير

الفاتحين وهو خير الحاكمين سبحانه.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٠ - ٩٣]

قوله سبحانه عن شعيب: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وذلك أن القوم كانوا يدعون أن الله أمرهم بما هم عليه فلذلك سموه ملة، وهكذا أهل الضلال دائما وأبدا يدعون أنهم على الحق وحدهم وأن غيرهم هو النشاز وأن غيرهم هو الشذوذ.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي في هذه الملة وفي الشرك وفي الكفر بالله ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها، فهو هنا يتخلى عن مشيئته وإرادته إلى مشيئة الله سبحانه ويلتجأ إليه سبحانه فما نشاء إلا أن يشاء الله ومشية العباد كلهم مرتبطة بمشيئة الله فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأي مشيئة للإنسان فهي مشيئة ناقصة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فمشيئتنا مرتبطة بإرادة الله سبحانه فإذا أراد الله لنا شيئا أن يكون كان وإذا لم يرد فإن حولنا وقوتنا ناقصة لا تقدر على إيجاد شيء ولا دفع ضرر.

إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته وسع ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: يعلم ما يكون قبل أن يكون ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أن علم الله محيط بكل شيء يعلم كل شيء ويعلم عاقبة الأمور ويعلم مآلاتها وهو على كل شيء قدير.

قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فيما تتوعدون به فإننا نتوكل على الله فهو نعم المولى ونعم النصير، وإن توعدكم هذا لن يضرنا في شيء ولن يردنا عن الحق فنحن ماضون فيه صابرون على ما يصيبنا من أجله إلى أن نلقى الله عليه، والله سبحانه حارسنا ومعيننا وعاصمنا من الضلال.

ثم يدعون ربهم: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال أبو عبيدة: أي احكم بيننا، قال الفراء: معنى ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي الفاتح هو الفتح بمعنى وهو الحاكم، وجائز أن يكون المعنى أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وينكشف، وجائز أن يكون سألوا نزول العذاب بقولهم ليظهر أن الحق معهم.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ في تفسيرها للعلماء أربعة أقوال:

أحدهما: في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ أحد هذه التفسير الأربعة كأن لم يعيشوا في دارهم، قاله ابن عباس والأخفش: يعني لما عذبوا وحصل لهم العذاب ما كأنهم بقوا في هذه الديار ولا كأنه حصل لهم فيها غنى ولا كأنهم مروا فيها، وقال الزجاج: معنى ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ أي كأنهم لم يتمتعوا ويتنعموا فيها وهو قول قتادة، وقيل: كأن لم يكونوا فيها ولم ينعموا بها، وقيل: أي كأنهم لم ينزلوا بهذه الديار وكأنهم ما مروا بها؛ لأنها صارت خرابا يبابا، المار بها لا يرى أثرا لشيء فيها وكأن الناس ما سكنوها وما مروا بها، لشدة خرابها وفسادها عيادا بالله من أليم عقابه.

قال الأصمعي: المغاني هي المنازل يقال غنياً بمكان كذا أي نزلنا به، وقال ابن قتيبة: كأن لم يقيموا فيها ومعنى غنياً بمكان كذا؛ أي أقمنا، قال ابن الأنباري: وإنما كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيًّا﴾ للمبالغة في ذمهم، كما تقول: أخوك الذي أخذ أموالنا أخوك الذي شتم أعراضنا.

قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أعرض والثاني: انصرف: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾ قال قتادة: أسمع قومه شعيب قومه وأسمع صالح قومه كما أسمع نبينا ﷺ قومه يوم بدر، يعني أنه خاطبهم بعد الهلاك، ﴿فَكَيْفَ أَسَى﴾ أي كيف أحزن؟ قال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن شديد، ثم عاتب نفسه فقال: ﴿فَكَيْفَ أَسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ كيف أحزن على قوم كافرين بعد أن عذبهم الله فهو سبحانه أحكم الحاكمين، وهو العدل سبحانه.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤] يقول جل وعلا: وما أرسلنا في قرية، قال الزجاج: يقال لكل مدينة قرية لاجتماع الناس فيها، وقال غيره في الآية اختصار تقديره: فكذبوه ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يقول جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ يعني هذه القرى لما يأتيها الرسول ثم لا يؤمنوا بهذا الرسول فإن الله يعاقبهم على ذلك لأن الحجة قامت على ذلك ولأنه دل على فجورهم وعنادهم وليس لهم حجة بعد إرسال الرسول إليهم.

ثم قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥ - ٩٧]

يقول جل وعلا محذراً الأمم بعد هذه الأمم المباداة وبعد هذه الأمم المعذبة يحذر من جاء بعدهم ألا يقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والعناد فإنه سينالهم من العذاب ما نال غيرهم.

يقول علي عليه السلام: إن الأمم التي مضت وعذبت إن المخاطب ليس هي فتلك أمة قد مضت وإنما المعنى أنتم يعني يقصد ﷺ أن ذكر الله لنا في أحوال هذه الأمم هو تذكير لنا إذ هذه الأمم لم يبق منها أحد حتى يُخاطب وحتى يذكر له ما صار لأبائه وأجداده ولكن الخطاب لنا نحن؛ تحذيراً لنا أن نقع ما وقعوا فيه من الضلال العناد والفساد فيصيبنا ما أصابهم والله جل وعلا ليس بينه وبين خلقه نسب والله يغار على حدوده ومحارمه، نسأل الله جل وعلا أن يحمينا على الملة، وأن يتوفانا عليها وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وإلى هنا ننتهي من هذا الدرس وإلى الدرس الذي يليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الرابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخوتي الطلاب أخواي الطلاب مع الدرس الرابع عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧ - ٨٨] قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ يقول شعيب لقومه: الذين كذبوه يقول: إن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا أي إن اختلفتم في رسالتي فصرتم على فريقين فريق مصدق وفريق مكذب فاصبروا حتى يحكم الله بيننا بتعذيب المكذبين وبإنجاء المصدقين وهو خير الحاكمين؛ لأنه العدل الذي لا يجور، أي أنه يقول لهم: إنكم سترون العقوبة الحميدة لهؤلاء المؤمنين وسترون الذل والخذلان لهؤلاء المكذبين.

قوله: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعنون ديننا وهو الشرك، قال الفراء: جعل في قوله: ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾ كجواب اليمين، وهو في معنى شرط ومثله في الكلام والله لأضربنك أو تقر لي فيكون معناه معنى إلا أو معنى حتى، ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي أوتجبرونا على ملتكم ان كرهناها والألف للاستفهام فإن قيل كيف قالوا: لتعودون وشعيب لم يكن في كفر قط فيعودوا إليه، فعنه جوابان: أحدهما: أنه لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافرا ثم آمن خاطبوا شعبيا بخطاب أتباعه وغلبوا لفظه على لفظه لكثرتهم وانفراده، والثاني: أن المعنى لتصيرين إلى ملتنا فوق العود على معنى الابتداء كما يقال قد عاد علي من فلان مكروه، أي قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن سبق منه مكروه، كما قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسن مرة إلي فقد عادت لهن ذنوب.

وإلى الله ترجع الأمور وقد ذكر معنى الجوابين هنا الزجاج وابن الأنباري.

ثم قال الله ﷻ: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّأْنَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَمَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩ - ٩٣] يقول شعيب لهؤلاء الذين يطلبون منه أن يترك ما جاء به ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ يعني إن صرنا إلى ما أنتم فيه من الضلال كيف يدعونه إلى الشرك وإلى الوثنية وهو داعية التوحيد هو يدعوهم إلى إفراء الله بالعبادة، وهم يدعونه إلى أن يرجع إلى ملتهم يقول لهم فرضا أو على سبيل الفرض لو رجعنا إلى ملتكم نكون قد افترينا على الله كذبا، لأننا كيف نصدق بالجبوت والطاغوت ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّأْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أن نعود في هذه الملة وأن يعود فيها

الذين آمنوا معي إليها إلا أن يشاء ربنا يعني أن أمرنا بيد الله سبحانه هو الذي بيده الأمور كلها وأن مشيئتنا نابعة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يعني أن الله يعلم حالنا ويعلم ما لنا ويعلم ما نحن عليه ويعلم ما أنتم عليه والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ نتوكل على الله في كل أمورنا ونتوكل على الله ونستعين به مقابلة ما ترموننا به من الإفك والعدوان ومقابلة ما تقابلوننا به بالرد لهذا التوحيد الذي ندعوكم إليه ثم يدعو ربه يدعو ربه هو والذين آمنوا معه يدعون الله سبحانه أن يفتح بيننا وبين هؤلاء الضالين وبين هؤلاء القوم المعاندين ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ثم يرجع السياق مرة أخرى إلى كلام هؤلاء المأء وماذا قال هؤلاء الرؤساء وهؤلاء الذين كان لهم الكلمة في قومهم ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي من قوم شعيب هؤلاء الناس محذرين لهم من اتباع شعيب ومهددين لهم ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ يقولون لهم إن الخسارة تلاحقكم وإنكم واقعون فيها لا محالة إذا ما اتبعتم شعيباً، وهكذا نجد أهل الضلال يدافعون عن ضلالهم ويصفون الذي يأتي إليهم يدعوهم إلى الحق يصفونه بالخسارة عند ذلك، وعندما لم يسمعوا لكلام شعيب حقت عليهم كلمة العذاب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هكذا يأتي العذاب فجاءة ويأتي العذاب سريعاً ولا يقدر أحد أن يرد عذاب الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ تزلزلت الأرض من تحت أقدامهم وجاءهم الصوت من فوقهم فأصابهم ما أصابهم ثم بين سبحانه كيف كان حال هؤلاء الذين كذبوا شعيباً ﴿كَأَنَّمَا يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يعيشوا في هذه البلد وكأن هذه البلد لم يعيش فيها أحد من الخراب الذي صارت إليه.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ في مقابلة دعواهم أن أتباع شعيب هم الخاسرون، هنا وقعت الخسارة فيهم وصارت العاقبة عليهم فتولى عنهم، صار ينظر إلى ديارهم وإلى ما حصل لهم من هذا العذاب فنادهم بعد أن ماتوا كما حصل للأنبياء من قبله وكما حصل من نبينا ﷺ مع قتلى بدر لما وقفوا وقال: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ﴿فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا﴾ فهنا تولى عنهم وقال: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

قال بعض المفسرين: لما رأى الدمار الذي لحق هؤلاء كأنه رق لهم وكأنه حصل عنده شيء من هذا فأبلغه الله أن لا يأسى على هؤلاء فإنه قد أُنذرتهم وإنهم قد تجبروا وبغوا وطغوا وإن العذاب واقع فيهم ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ كيف يحصل لي التأسف على هؤلاء وهم قد عاندوه وهم قد أصروا على الطغيان ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وذلك أن القوم كانوا يدعون أن الله أمرهم بما هم عليه من الضلال فلذلك سمو ضلالهم ملة ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي أن نعود في هذه الملة إلا أن يشاء الله أي إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: أن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ولا يعلم هذا إلا الله جل وعلا، لعلمه المحيط بكل شيء.

قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فيما توعدتمونا به والله سبحانه هو الذي سيتولى حارستنا عن هؤلاء الضلال، ﴿رَبَّنَا

افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴿١٠٠﴾ قال أبو عبيدة: أي احكم بيننا وقال الفراء: إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح، قال الزجاج: وجائز أن يكون المعنى أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وينكشف فجائز أن يكون سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم.

قوله: ﴿كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ في تفسيرها للعلماء أربعة أقوال:

أحدهما: كأن لم يعيشوا في دارهم، قاله ابن عباس والأخفش، وقال الزجاج: معنى غنينا أي عشنا، والثاني: كأن لم يتنعموا فيها، قاله قتادة، والثالث: كأن لم يكونوا فيها قاله ابن زيد ومقاتل، والرابع: كأن لم ينزلوا فيها، قاله الزجاج، قال الأصمعي: المغاني هي المنازل، يقال: غنينا بمكان كذا أي نزلنا به، وقال ابن قتيبة كأن لم يقيموا فيها، ومعنى غنينا بمكان كذا أقمنا، قال ابن الأنباري: وإنما كرر قوله ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيًّا﴾ للمبالغة في ذمهم، كما تقول: أخوك الذي أخذ أموالنا أخوك الذي شتم أعراسنا.

قوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيها قولان أحدهما: أي أعرض والثاني: انصرف، ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ قال قتادة: أسمع شعيب قومه، وأسمع صالح قومه كما أسمع نبينا ﷺ قومه يوم بدر يعني أنه خاطبهم بعد الهلاك.

﴿فَكَيْفَ أَتَى﴾ أي كيف أحزن؟ قال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن شديد ثم عاتب نفسه فقال: ﴿فَكَيْفَ أَتَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي وما أرسنا في قرية من نبي فكذب أهلها هذه القرية نبينهم إلا حصل لهم هذا العذاب، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وكقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقَرْيَ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ قال الزجاج: يقال لكل مدينة قرية لاجتماع الناس فيها وقال غيره في الآية اختصار تقديره: فكذبه وما أرسنا في قرية من نبي أي فكذبه إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء، والله ﷻ سنة في القرآن، يقول ﷺ مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية الذي أرسل اليهم الأنبياء اختبرهم بالبأساء واختبرهم بالضراء لما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام والضراء وما يصيبهم من فقر وحاجة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لعلهم يدعون ربهم ولعلهم يخشعون ولعلهم يبتهلون إلى الله في كشف ما نزل بهم ثم يبتليهم بالسراء لعلهم يشركون فإذا كانوا لا خير فيهم إن ابتلاهم في الضراء لا يتضرعون وإن ابتلاهم بالسراء لا يشكرون عند ذلك يستحقون نزول العذاب ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكقوله سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ولربما قالوا: هذا الدهر يوم لك ويوم عليك ولم يعتبروا بذلك، ولم يربطوا بينه وبين الحسنة والسيئة ولا بين الطاعة والمعصية ووقتها يغفلون عن آيات الله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْيَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْيَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقَرْيَ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ وفي تفسيرها قولان:

أحدهما أن السيئة هي الشدة وأن الحسنه هي الرخاء قاله ابن عباس، الثاني: السيئة الشر والحسنة الخير قاله مجاهد.

قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ قال ابن عباس: أي كثروا وكثرت أموالهم، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم يعني أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر وليس بعقوبة من الله فينسبون هذه العقوبات إلى أنها عقوبات طبيعية وإلى أنها تقع من نفسها أو أن الطبيعة هي المحرك لها، وهذا منهم نسيان أن الله جل وعلا يعاقب على هذه الذنوب وعلى هذه المنكرات يعاقب هؤلاء لعلهم يرجعون فما نزلت مصيبة إلا بذنب وما رُفعت إلا بتوبة، وهذه المصائب التي تترى على البشرية في الشرق وفي الغرب من زلازل ومن براكين ومن أعاصير إنما تقع بسبب ذنوب الناس ويعفوا الله عن كثير، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ﴿فَأَخَذْنَا لَهُمْ بَعْثَةً﴾ أي أخذناهم فجأة بنزول العذاب، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون بنزوله حتى أهلكهم الله.

قوله سبحانه: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ قال الزجاج: المعنى أتاهم الغيث من السماء ونبتت لهم النباتات في الأرض وجعل ذلك لهم زكيا كثيرا. ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨-٩٩]

قوله: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر أو آمن أهل القرى، بإسكان الواو، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي أو آمن، بتحريك الواو، وروى ورش عن نافع (أومن) بإدغام الهمزة ويلقي حركتها على الساكن. قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوِ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الله جل وعلا ينبه عباده أنه قادر على أن يعاقبهم وأن عقابه سينزل بهم وهم غافلون وهم قارون غافلون لا يدرون ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ أي في حال لهو وفي حال غفلة أو أن يأتيهم العذاب وهم غافلون ووقت النوم وقت غفلة ووقت لهو.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا﴾ أي القرى التي تقدم ذكرها وفي غيرها قرى نوح وهود وصالح وشعيب ولوط المتقدمة وذلك تسليية لنبيينا ﷺ أن عصاه قومه.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي كما طبع على قلوب الكفرة المتقدمين يطبع على قلوب هؤلاء الكفرة.

قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ قرأ يعقوب نخدي بالنون وكذلك في طه، وكذلك في السجدة، قال الزجاج: من قرأ بالياء فالمعنى: أو لم يبين الله لهم، ومن قرأ بالنون فإن المعنى أولم نبين لهم؟ وقوله: ونطبع ليس بمحمول على أصبناهم؛ لأنه

لو حمل على أصبناهم لكان ولطبعنا، وإنما المعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي ولفظه لفظ المستقبل، كم قال: ﴿أَنْ لَّوْ نَشَاءُ﴾ والمعنى: لو نشاء وقال ابن الأنباري: يجوز أن يكون معطوفاً على أصبنا إذ كان بمعنى نصيب فوضع الماضي في موضع المستقبل عند وضوح معنى المستقبل كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾ أي إن شاء يدل عليه قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا﴾ قال الشاعر:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةَ طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا.

أي يدفنوا.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي فهم لا يقبلون من هذا الداعي الذي يدعوهم.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا الطبع الذي وقع على هؤلاء بسبب ذنوبهم قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كما قال جل وعلا في الآية الاخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ وكما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ في تفسيرها للمفسرين أقوال خمسة:

أحدها: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل، بما سبق في علم الله أنهم يكذبون أي أن الله قد علم أنهم سيكذبون هؤلاء الرسل ويعلم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وهو لتمام علمه سبحانه، علم أنهم سيكذبون به يوم أقروا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم وهو قول أبي بن كعب وأنس، واختاره ابن جرير.

القول الثاني: وما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم، فآمنوا كرها حيث أقروا بالأسن و أضمروا التكذيب قاله ابن عباس والسدي، وهو راجع في المعنى إلى القول الأول فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هلاكهم هذا قوله مجاهد، ويدل لهذا القول قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

والرابع: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية بل شاركوهم في التكذيب، حكاه ابن عطية واستحسنه ابن كثير.

والخامس: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا قبل رؤيتها.

وإلى هنا ينتهي الدرس الرابع عشر وإلى الدرس الخامس عشر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الخامسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد إخواني الطلاب أخواقي الطالبات مع الدرس الخامس عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] وذكرنا في الدرس الماضي الدرس الرابع عشر الأقوال الخمسة في تفسير هذه الآية ونقف الآن عند قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا﴾ بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية بل شاركوهم في التكذيب كما حكاه ابن عطية واستحسنه ابن كثير، وهو أقرب الأقوال لظاهر الآية ومبادرتهم إلى تكذيب الرسل، سبب للطبع على القلب والابتعاد عن الهدى وأسباب الهدى والآيات الدالة على هذا المعنى في القرآن كثيرة جدا، كما قال جل وعلا: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وكما في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ كما في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة أي أن الطبع على القلب إنما هو بسبب العبد وما يفعل من الموبقات فإن الذنوب إذا اجتمعت تهلك الإنسان وأن الإنسان إذا ألف الذنوب وأصر عليها فإنها تملكه ويكون الران الذي يحيط بالقلب فلا يستطيع أن ينفك عن المعاصي وللمعاصي إلف للنفوس لما تستمر على المعاصي وتألّفها فإنها لا تريد فراقها ووقتها هذه الذنوب تغطي على القلوب فيصير القلب بعد ذلك كما جاء في الحديث عنه ﷺ (تكون كالكوز مجحياً لا يقبل معروفاً ولا ينكر منكراً)، فيكون بعد ذلك ن إلفه للذنوب لا يألف الطاعات بل ولا يحبها بل إنه إذا رأى المعروف يراه منكراً والمنكر الذي يزاوله يراه هو لمعروف بسبب ما انطبع على قلبه نسأل الله السلامة، ولذلك فعلى العبد كلما جدد ذنبا أن يجدد التوبة كما قال ﷺ: (وأَتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) وكما قال ﷺ: (كل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون) أي الذين يجددون لكل خطيئة يجددون لها توبة فإن التائب من الذنب إذا قبلت توبته كمن لا ذنب له فلنسارع ولنبادر إلى التوبة حتى تمحو ما اقترناه وحتى نغسل قلوبنا من هذه المعاصي وأوزارها لكي لا تحيط بالقلوب فتؤثر فيها وتظلم هذه القلوب وأنتم يا أيها الطلاب، عليكم أن تحرصوا كل الحرص على أن تُقوّ نفوسكم على الطاعات وتبتعدوا عن الموبقات فإن هذا مما يعين على طلب العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ويقول الإمام الشافعي وهو يشكي على شيخه وكيع أنه ينسى فيقول في هذا القول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
ونبأني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

فالقلب ينيره العلم النافع خاصة إذا أتبع بالعمل الصالح، أما الجهل والجهالات فإنها تظلم القلب وتجعله قلباً قاسياً تجعله لا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر، عياذا بالله من ذلك.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ لَفَاسِقِينَ﴾ يقول جل وعلا: وما وجدنا لأكثرهم قال مجاهد: يعني القرون الماضية. ﴿من عهد﴾ قال أبو عبيدة: أي من وفاء، قال ابن عباس: يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم عليه حين أخرجهم من صلب آدم وقال الحسن: العهد هاهنا ما عهده إليهم مع الأنبياء ألا يشركوا بالله شيئاً، وكل مخلوق وكل

إنسان من بني آدم قد خلق على الفطرة، والفطرة هي حب الخير وكره الشر، كما جاء في الحديث القدسي: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين) وكما في قوله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) والفطرة هي بقاء النفس البشرية على النقاء وعلى الطهر، إذا المعاصي والموبقات هي طائفة على البشرية وليست أصيلة في النفوس الإنسانية.

قوله: ﴿وَإِنْ وَحَدَّنَا﴾ قال أبو عبيدة: وما وجدنا أكثرهم إلا الفاسقين، ثم قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٠٧] يقول جل وعلا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد الأنبياء المذكورين السابقين مر معنا ذكر نوح وذكر هود وذكر صالح وذكر لوط وذكر شعيب عليهم الصلاة والسلام يقول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ موسى بن عمران كليم الرحمن الذي بعثه الله بالآيات والمعجزات التي على مثلها يؤمن البشر، بعثه الله إلى الطاغية فرعون الذي تجبر وطغى وبغى بل إنه قال قولاً لم يسبقه إليه أحد: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أخزاه الله وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ إلى هذه الدرجة في التبجح والتغطرس فعاقبه الله بنقيض قصده أرسل الله موسى إلى هذا الطاغية وإلى هذا الجبار العنيد.

﴿بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أرسله الله إلى فرعون وأتباع فرعون ومن هم على ملته فظلموا بالآيات التي أرسل الله بها موسى، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، ماذا كان عاقبتهم؟ أغرقهم الله أجمعين، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ موسى يذكر لفرعون أنه لا يقول على الله إلا الحق لأنه يعرف الله ومن عرف الله حق المعرفة عبده حق العبادة، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأنه كان يعذب بني إسرائيل وكان يتعبهم بالسُّخرة في الأعمال الشاقة فيقول له: إن كنت جئت بآية فأْت بها يقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ قال ابن عباس: أي كذبوا وقال غيره: أي جحدوا بها مع أنهم مستيقنين أنها حق، وذلك لظلمهم وذلك لعلوهم كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي أنهم يدرون أن ما جاء به موسى صدق وحق لكنهم ينكرون ذلك ظاهراً وإلا فإن نفوسهم تعلم أن الحق مع موسى وأن الباطل مع فرعون.

قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وعلى هنا بمعنى الباء، أي لا أقول إلا الحق، قال الفراء: العرب تجعل الباء في موضع على، تقول: رميت بالقوس ورميت على القوس، وجئت بحال حسنة وجئت على حال حسنة، وقال أبو عبيدة: حقيق بمعنى حريص وقرأ نافع وأبان عن عاصم حقيق عليّ بتشديد الياء وفتحها، على الإضافة، والمعنى واجب علي أن أقول الحق.

قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً﴾ قال ابن عباس يعني العصا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم وأطلق سراحهم، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة ولكنه عصا وتجبر.

قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ قال أبو عبيدة: أي فإذا هي حية ظاهرة، قال الفراء: الثعبان هو أعظم الحيات وهو الذكر منها، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس: الثعبان هو الحية الذكر.

وتتوالي الآيات التي جاء بها موسى آيات معجزات دالات على صدق نبوته:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٠٨-١٢٢]

قوله سبحانه: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿هنا قال الملاء لموسى وقالوا عن موسى إنه ساحر وقال فرعون عن موسى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

قوله: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ بين سبحانه سحرهم العظيم كما جاء في قوله سبحانه في سورة طه: ﴿فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦-٦٩]. وبين في سورة طه أنهم تواعدوا مع موسى موعداً لوقت مغالته مع السحرة في قوله جل وعلا: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴿[طه: ٥٨-٥٩].

قوله سبحانه: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ قال ابن عباس: أدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي تبارق مثل البرق لها شعاع غلب نور الشمس فخروا على وجوههم ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت قال مجاهد: بيضاء من غير سوء، كقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيِّضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾. وقيل: إن السوء المقصود به البرص، يعني أن بياضها ليس بياض برص وهو المرض المعروف يصيب البشرة.

قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قال ابن عباس: ما الذي تشيرون به علي وهذا يدل على أنه من قول فرعون، وأن كلام الملاء انقطع عند قوله: ﴿مَنْ أَرْضِكُمْ﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون من قول الملاء كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه، أو خاطبوه وحده، لأنه قد يقال للرئيس المطاع: ماذا ترون؟ يخاطب بضمير الجمع تعظيماً له.

قوله سبحانه: ﴿أَرْجِهْ﴾ قرأ ابن كثير (أرجئه)، وقرأ أبو عمرو مثله، غير أنه بضم الهاء ضمة من غير أن يبلغ بها

الواو، وكان يهزان مرجؤن في التوبة وترجئ في سورة الأحزاب، وقرأ قالون عن نافع أرجه بكسر الهاء ولا يبلغ بها الياء، ولا يهمز وروى عنه ورش أرجه يصلها يياء ولا يهمز بين الجيم والهاء وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع، وهي قراءة الكسائي، وقرأ حمزة أرجه ساكنة الهاء غير مهموزة وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل، وقد روى عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز وهي قراءة أبي جعفر وكذلك اختلافهم في الشعراء، قال ابن قتيبة أرجه أي أخره، وقد يهمز يقال: أرجأت الشيء وأرجيته ومنه قوله: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ قال الفراء: بنو أسد تقول: أرجيت الأمر بغير الهمز، وكذلك عامة قيس، وبعض بني تميم يقولون: أرجئت الأمر بالهمز، والقراء مولعون بهمزها وترك الهمز أجود، كذا يقول ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير: والقراء مولعون بهمزها وترك الهمز أجود.

قوله: ﴿وَأَرْسَلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ يعني مدائن مصر، ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي من يحشر لك السحرة ويجمعهم وقال ابن عباس هم الشرط.

قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر، ساحر، وفي يونس: بكل ساحر، وقرأ حمزة والكسائي: سَحَّار، في الموضعين، ولا خلاف في الشعراء أنها سَحَّار.

قوله: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم إني لنا لأجر مكسورة الألف على الخبر، وفي الشعراء أننا لنا لأجراً ممدودة مفتوحة الألف غير أن حفصاً روى عن عاصم في الشعراء أننا بهمزتين، وقرأ أبو عمرو أننا لنا، وقرأ ابن عامر والكسائي وحمزة وأبو بكر عن عاصم بهمزتين في الموضعين، قال أبو علي: الاستفهام أشبه بهذا الموضع، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر وإنما استفهموا عن ذلك.

قوله: ﴿وَأِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يقول لهم فرعون: إنكم أيضاً لمن المقربين ولكم مع الأجر المنزلة الرفيعة عندي، إذا يكونوا قد زادهم على ما طلبوا هم طلبوا الأجر فزادهم المنزلة الرفيعة والقربة منه.

قوله: ﴿سَخَّرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ قال أبو عبيدة: عشوا أعين الناس وأخذوها؛ أي أصاب العيون العشا، وهو عدم الإبصار، ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي خوفوهم وقال الزجاج: استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس، وهكذا يفعل السحرة يسترهبون الناس فيضللوهم ويلبسون عليهم ويخيلون لهم الأمور الخيالية حتى يظنوها حقيقية.

قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ وقرئت تلقف قرأ عاصم تلقف ساكنة اللام خفيفة القاف هاهنا وفي طه، وفي الشعراء وروى البزي تلقف بتشديد التاء قال الفراء: يقال لقفت الشيء فأنا ألقفه لقفا ولقفانا والمعنى أنها تبتلع.

قوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يكذبون لأنهم زعموا أنها حيات.

قوله سبحانه: ﴿فَوْقَ الْحَقِّ﴾ أي استبان وظهر ﴿وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر ﴿وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ﴾ أذلاء مقهورين مغلوبين.

ثم إن هذه القصة التي حصلت حصلت مع موسى وفرعون ومع هؤلاء السحرة وقد اختلف في عدد هؤلاء السحرة

الذين أراد فرعون جمعهم من جميع الأقطار من جميع ما حوله وتحت مملكته جمعهم جميعا وكانوا في ذلك الزمان قد ظهر عندهم السحر، وهكذا تكون معجزة النبي في الذي يبعث فيهم من جنس ما عندهم فتأتي معجزته قاطعة غالبية لما هم فيه، كان أهل قريش يشتهرون بالفصاحة فبعث فيهم محمد ﷺ ونزل عليه القرآن بلغتهم العربية بفصاحة وبلاغة لم يصلوا إلى بدايتها فضلا أن يقاربوها فهؤلاء كانوا مشتهرين بالسحر فجاء موسى بآية معجزة من الله وليست سحرا وإنما هي آية دالة على ضلالهم ومبينة أن هذا السحر الذي يأتون به إنما هو باطل وإنما هو دجل وإنما هو من تلاعب الشياطين؛ فاختلف في عدد هؤلاء السحرة على أقوال كثيرة عند المفسرين، فبعضهم يوصلهم إلى اثنين وسبعين، وبعضهم يوصلهم إلى اثنين وسبعين ألفا، وروى ابن عباس ومقاتل وغيره أنهم سبعون ألفا، وروي أنهم اثنا عشر ألفا وقيل: سبعون وقيل غير ذلك من أعداد الله أعلم بها؛ فالله وحده العالم بهذا العدد، وإن كان هذا العدد متفاوتا عن هؤلاء الذين يروون هذا العدد ولكن لا يعلم الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس: ألقوا حبالا غلاظا وألقوا خشبًا طوالا، فكانت ميلا في ميل فألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حبالهم وإذا هي أعظم من عصيهم، وإذ بها قد سدت الأفق ثم فتحت فاها فابتلعت ما ألقوا من حبالهم ومن عصيهم وجعلت تأكل جميع ما قدرت عليه من صخرة أو شجرة والناس ينظرون وفرعون يضحك لكنه يضحك تجلدا فأقبلت الحية نحو فرعون كما قال بعض المفسرين: فصاح فرعون يا موسى يا موسى، فأخذها موسى وعرفت السحرة أن هذا من السماء، وليس هذا بسحر فخرجوا سجدوا وقالوا: ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال فرعون: إياي تعنون؟ قالوا: لا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ نعني رب موسى وهارون، فأصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، وقال وهب بن منبه: لما صارت ثعبانا حملت على الناس فانهمزوا منها فقتل بعضهم بعضا فمات منهم خمسة وعشرين ألفا، وقال السدي: لقي موسى أمير السحرة فقال: أرايت إن غلبتك غدا؟ أتؤمن بي؟ قال الساحر: لآتين غدا بسحر لا يغلبه السحر، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك، وإلى هنا تنتهي من الدرس الخامس عشر وإلى الدرس السادس عشر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة السادسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين وبعد،،

إخوتي الطلاب أخوتي الطالبات مع الدرس الثالث عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، قال جل وعلا عن فرعون عندما هدّد هؤلاء الذين آمنوا بموسى لما رأوا الآيات والبينات على يديه، قال لهم فرعون مهديداً: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٥] هكذا فرعون في بطشه وعدوانه حتى هذا الإيمان لا بد أن يستأذن فيه، ولذلك يقول لهم: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ﴾ يعني لماذا تفعلوا هذا وأنتم لم تستأذني في ذلك؟ ثم يزعم أنهم إنما فعلوا هذا لمكر وخطة كانت مسبقة هكذا يدعي، لسبب أن يخرجوا من المدينة أهلها بأن يتبعوا موسى عليه السلام، ثم أتبع ذلك بتهديده ليفعلن وليفعلن ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يبين هنا الشيء الذي توعدهم أن يصلبهم فيه ولكنه قد بُين في موضع آخر، كما في قوله جلا وعلا في سورة طه: ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: إن رجوعنا إلى الله ولا يضرنا تهديدك ذلك ولن نرجع.

قوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو آمنتم به، بهمزة ومدة على الاستفهام، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم آمنتم، فاستفهموا بهمزتين الثانية ممدودة، وقرأ حفص عن عاصم آمنتم به على الخبر، وروي عن ابن كثير قال فرعون وآمنتم به فقلبت همزة الاستفهام واوا وجعل الثانية ملينة بين بين، وروى قنبر أنه كان يهمز بعد الواو، وقال أبو علي: همز بعد الواو؛ لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة أفعلتم؟ فحققتها ولم يحققها ثم هنا حققها ولم يخففها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ﴾ لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى، فعلتموه خطة بينكم وبينه قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون وهو منه تهديد ووعيد، سوف تعلمون عاقبة ما صنعتم هكذا يهددهم ويتوعدهم فرعون في هذا، ثم أتبع تهديده قائلا: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ وهو قطع اليد اليمنى وقطع الرجل اليسرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول من فعل هذا وأول من صلب إنما هو فرعون قاتله الله، فرد عليه هؤلاء السحرة الذين آمنوا بما جاء به موسى قالوا: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ يعني أنا عيينا عندك أننا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ يسألون الله الصبر والتحمل حتى لا يفتتنوا بما سيفعله فيهم فرعون، ثم يسألون الله أن يجعل خاتمهم على الإسلام، ﴿وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ قال أتباع فرعون وكبرائه ووزرائه وأهل الحل والعقد في حكومته، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ قال موسى ردًا على تهديد فرعون هذا: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ هكذا يكون أهل الإيمان دائماً وأبداً يصبرون على ما يتلون به ويسألون الله حسن الخاتمة، وهكذا دائماً وأبداً أعوان الظلمة يغرونهم بهؤلاء الضعفاء بأن يبطشوا بهم وأن يفتكوا بهم؛ ولذلك قال هؤلاء قالوا لفرعون يزيدون من طغيانه: **﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾** هل تترك موسى وقومه بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض صلاح هؤلاء ودعواهم إلى الطهر والنقاء هي في نفوس هؤلاء فساد، **﴿ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ ﴾** يتركوا عبادتك ويتركوا آلهتك، **﴿ قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾** يبين لهم أنه ليس غافلاً عن هذا، وأنه سيؤدبهم أدباً يحجزهم ومنعهم من التمادي من الفساد كما زعموا **﴿ قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾** الأمر لنا ولن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، وتقتيل الأبناء واستحياء النساء أن هذا لعله يكون نقطة ضعف عند هؤلاء فلما فعل بهم ذلك يتركون إيمانهم ويتركون ما هم فيه، قال موسى ردّاً على تهديد فرعون: **﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾** وهكذا المسلم دائماً وأبداً مستعيناً بالله سائلاً الله التوفيق ويصبر على ما أصابه وإن هذا لمن عزم الأمور والصبر أمره عظيم في ديننا، فلا بد أن نصبر على ما يصيبنا نصبر على الطاعات فعملها ونحافظ عليها، ونصبر على المعاصي فنجنبها، ونصبر على طاعة ربنا إلى أن نلقاه **﴿ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** والله جل وعلا يورث الأرض لعباده الصالحين الذين استجابوا لأمره، والذين ساروا على هدي رسله.

قوله: **﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا ﴾** أي وما تكره منا شيئاً ولا تطعن علينا إلا لأننا آمنّا هذا هو ذنبنا عندك وهذه هي نقيصتنا. **﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾** قال مجاهد: على القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً، **﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾** لو أنه قطع أيدينا وأرجلنا من خلاف، أو لو أنه صلبنا على جذوع النخل وضررنا وقتلنا أرزقنا يا الله الصبر حتى لا نفتن في ديننا فنرجع كفاراً هكذا يدعوا هؤلاء السحرة الذين آمنوا بموسى وبما جاء به **﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾** أي توفنا نحن على الملة مخلصين لك العباد، متبعين لدينك ولما أرسلت به نبيك موسى.

قوله جل وعلا: **﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾** هذا إغراء من الملأ لفرعون، هكذا الملأ لفرعون يغرونه بالفساد ويؤزونه عليه، وما هذا الفساد ما هذا الفساد الذي يزعمونه؟ وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان للمفسرين:

أحدهما: قتل أبناء القبط واستحياء نسائهم كما فعلوا ببني إسرائيل، قاله مقاتل، والثاني: دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وإلى ترك عبادته.

قوله: **﴿ وَيَذَرُكَ ﴾** جمهور القراء على نصب الراء ويذكر وقرأ الحسن برفعها ويذكر قال الزجاج: من نصب ويذكر نصبه على جواب الاستفهام بالواو، والمعنى أياكون منك أن تذر موسى وأن يذكرك؟ ومن رفعه جعله مستأنفاً فيكون المعنى أتذر موسى وقومه وهو يذكرك وآلهتك؟ والأجود أن يكون معطوفاً على أتذر فيكون المعنى أتذر موسى؟ وأيذكرك موسى؟ أي أطلق له هذا.

﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال ابن عباس: كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً صغاراً لكنه قال: أنا ربكم ورب هذه الأصنام، فذلك قوله: **﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾** وقال غيره: كان قومه يعبدون تلك الأصنام تقرباً إليه، قال الحسن: كان يعبد تيساً في

السر، وقيل: كان يعبد البقر سرًا، وقيل: كان يجعل في عنقه شيئًا يعبد، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية وابن محصين: وإلهتك، بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبالف بعدها، قال الزجاج: المعنى ويدرك وربوبيتك وقال ابن الأنباري: قال اللغويون الإلهة العبادة، فالمعنى: فيذكر وعبادة الناس إياك قال ابن قتيبة من قرأ: وإلهتك أراد ويدرك والشمس التي تعبد، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونهم آلهة، قال الأعشى: فما أذكر الرهب حتى انقلبت قبيل الآلهة منها قريبًا، يعني الشمس، والرهب: يقصد ناقته، يقول: اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت.

قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي سنقتل، ويقتلون أبناءكم بالتشديد وخففها نافع، وقرأ ابن كثير سنقتل خفيفة ويقتلون مشددة، ويقتلون مشددة، وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لعلمه أنه لا يقدر على قتل موسى، إذ كان فرعون قد ملئ من موسى رعبًا وهلعًا وخوفًا، والله ﷻ ينصر رسله بالرعب فيرعبهم عدوهم ويخاف منهم، ولذا لم تمتد يد فرعون إلى موسى لأمر يريده الله ولإتمام رسالة موسى على بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي نحن فوقهم عالون بالملك والسلطان فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم فقال لهم موسى: استعينوا بالله واصبروا واصبروا على ما يفعل بكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وقرأ الحسن وهبيرة عن حفص عن عاصم يورثها بالتشديد فأطمعهم موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم، والله جل وعلا ينصر من يشاء ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من هم؟ اسمعوا ما قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ هذه دعائم أربع في نصر الله لعباده، من قام بهذه الدعائم نصره الله، وملكه الله البلاد، وجعل رايته خفاقة عالية هذه هي دعائم النصر، والعاقبة للمتقين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما المقصود بالعاقبة هنا؟ في ذلك قولان: أحدهما: أن المقصود بها الجنة، أي أن عاقبة هؤلاء وإن قتلوا الآن أو صبروا وامتدت بهم الأعمار وهم على الإيمان فإن نهايتهم إلى الجنة.

القول الثاني: النصر النصر والظفر، أن العاقبة المقصود بها النصر هو عاقبة المتقين وهو نهاية حالهم ينصرهم الله على أعدائهم ويجعل العاقبة الحميدة لهم، فرد بنو إسرائيل على موسى قائلين له: ﴿قَالُوا أَوَإِذَا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقول هؤلاء أتباع موسى يقولون لموسى: يا موسى إننا قد حصل لنا الأذى من قبل أن تأتي إلينا، وإن الأذى الآن سيلاحقنا كما يهددنا فرعون، فيقول لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ﴾ عساه جل وعلا أن يهلك هذا العدو ثم إنكم ستخلفون هذا العدو فماذا ستفعلون؟ هل ستسمرون على الطاعة؟ إذا تتم لكم النعمة وإذا تمت لكم الأمر وإلا فإنكم إن لم تقوموا بهذا فإن هذا الأمر لن يبقى بأيديكم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ﴾.

قال بعد ذلك ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ للمفسرين في ذلك أقوال منها:

القول الأول: أن الأذى الأول والثاني: أخذ الجزية، قاله الحسن، يعني أنه أخذها منهم قبل أن يأتي موسى، ثم سيأخذها الآن، بعد أن أتى موسى، **القول الثاني:** أن الأول ذبح الأبناء وأن الثاني إدراك فرعون يوم طلبهم قاله السدي.

والثالث: أن الأول أنهم كانوا يُسَخَّرُونَ في الأعمال إلى نصف النهار، ويرسلون في بقيته يكتسبون معاشهم والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب، كما يروى عن جوير وغيره.

الرابع: أن الأول تسخيرهم في ضرب اللبن وكانوا يعطونهم التبن، الذي كانوا يخلطونه في الطين، والثاني أنهم كُلفوا ضرب اللبن وجعل التبن عليهم؛ أي لا بد أن يأتوا به من عندهم، كما قاله ابن السائب وغيره.

الخامس: أن الأول قتل الأبناء واستحياء البنات، والثاني تكليف فرعون إياهم ما لا يطيقونه كما قاله مقاتل، **السادس:** أن الأول استخدامهم وقتل آبائهم واستحياء نسائهم وأن الثاني إعادة ذلك العذاب مرة أخرى عليهم، وفي قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما والثاني: تأتينا بعهد الله أنه سيخلصنا ومن بعد ما جئتنا به كما ذكره الماوردي في تفسيره.

قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ﴾ قال الزجاج: عسى طمع وإشفاق، إلا أن ما يُطمع الله فيه هو واجب، ولذا قال عسى من الله واجبة.

قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذه الاستخلاف قولان مشهوران عند المفسرين: أحدهما: أنه استخلاف من فرعون وقومه، والثاني: استخلاف عن الله تعالى لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه، ثم في الأرض هنا قولان: المقصود بها أرض مصر قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والثاني أنها أرض الشام كما ذكرها الماوردي في تفسيره.

قوله سبحانه: ﴿فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال الزجاج: أي يراه بوقوعه منكم؛ لأنه إنما يجازيه على ما وقع منهم لا على ما علم أنه سيقع منهم قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ قال أبو عبيدة: أي ابتليناهم بالجدوب وأل فرعون هم أهل دينه وقومه، وقال مقاتل: آل فرعون هم أهل مصر، قال الفراء: بالسنين أي بالقحط والجدوب عامًا بعد عام، كما جاء في الحديث: (اللهم اجعلها عليها سنين كسني يوسف) والسنة هنا هي الجذب، كما تقول العرب: أسنت القوم أي أجذبوا قال الزجاج: السنون في كلام العرب هي الجدوب، يقال: مستهم السنة، ومعناه: جذب السنة وشدة السنة، وإنما أخذهم بالضراء لأن أحوال الشدة ترق القلوب وترغب فيما عند الله وفي الرجوع إليه، قال قتادة: أما السنون فكانت في بواديهم وكانت في مواشيهم، وأما نقص الثمار فكان في أمصارهم وكان في قراهم، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ييس لهم كل شيء، وذهبت مواشيهم حتى ييس نيل مصر، وهو الذي يعتمدون عليه في زراعتهم وفي شربهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لعلمهم أن يتعظوا، ولعلها أن ترق قلوبهم.

قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تطير الكفار من أهل الإيمان ونسبة الكوارث إلى هؤلاء المؤمنين وأنهم شؤم على الناس، وإن ساقوا كل كريهة بهم أوكل حادثة تقع في الناس بهم هنا فرعون وقومه يتطيرون بموسى والمؤمنين معه، وهناك قوم صالح عليه السلام قالوا له: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ وكذا أصحاب القرية التي جاءها المرسلون ماذا قالوا عنهم؟ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾ وذكر الله هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ وقد رد الله على الكفار فريتهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال لقوم صالح: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ وفي يس: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ فبين جل وعلا أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم لا من قبل الرسل أو المؤمنين بالرسول.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة السابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد،

إخوتي الطلاب أخوتي الطالبات مع الدرس السابع عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١] قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة من الأمراض قالوا: لنا هذه؛ أي نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا الله على ذلك لكنهم ينسبون هذه النعم إليهم، وأنها جاءت بحولهم وقوتهم ولذكائهم في مصادر العيش وتنوعه وفي مصادر الأكل والشرب، وأن هذا الذي هو عندهم من هذه النعم إنما هو بكسبهم وإنما هو بقدرتهم ولا شيء غير ذلك إذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه؛ أي هي لنا ملك واختصاص لا يشركنا فيها أحد ونحن أولى بها، ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ إن جاءهم قحط أو جاءهم جذب أو جاءهم بلاء أو مات لهم أبناء أو حصل لهم أمراض أو غار عندهم الماء أو قل المطر أو جف الضروع أو جفت الأشجار أو فسدت الثمار فإنهم يطيروا بموسى ومن معه، وهي عادة في كل الجاهليات هذا التطير هو موجود في الجاهليات الماضية، وموجدون في الجاهليات المعاصرة، والإسلام حارب هذا التطير إذ هو لا يقدم شيئاً ولا يؤخر شيئاً وإنما هو من الشيطان.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي يتشاءمون بهم وكانت العرب في جاهليتها كانت تزجر الطير فإن طار ذات اليمين تفاءلوا خيراً ومضوا في سفرهم، أو مضوا في بيعهم وشرائهم، أو مضوا إلى حاجتهم وإن اتجه هذا الطير ذات الشمال يتشاءمون في هذا فلا يسافرون ولا يقضون الحاجة التي نواوا قضاءها ويتشاءمون في ذلك، وكانوا يتركون بما يكون عن جهة اليمين، فما كان عن جهة اليمين تبركوا به وما كان عن جهة الشمال تشاءموا به، فلو كان ركباً على بعير ثم سقطت عصاه هنا يتشاءم وقد يرجع من سفره أو على الأقل لا يأخذ هذه العصا؛ لأنه يعدها شؤماً، وهكذا في أمورهم كلها، يتشاءمون في ذلك والتشاؤم هذا من عادات الجاهلية، وليس من الإسلام في شيء، وكان ﷺ يعجبه الفأل.

قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة: ألا تنبيه وتوكيد، طائرهم حظهم ونصيبهم، قال ابن عباس: إنما طائرهم عند الله، أي إن الذي أصابهم هو من الله قال الزجاج: ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا، وما أصابهم في الدنيا فلا يساوي شيئاً لما هو أمامهم من العذاب والنكال، ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ألا إنما الحظ والنصيب من الله تعالى ولا دخل لهذه الأشياء التي يتشاءمون بها البتة.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْلُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون لموسى: مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها وهم السحرة وهم الذين جمعوا كل ساحر عليهم جاءوا بهم من كل فج عميق، وجمعوهم لهذا اليوم، ولبسوا على الناس وجاءوا بهذه الأشياء زوراً وبهتاناً ثم ينسبون ذلك لموسى مهما أتيتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، جاء ذكر العقاب الذي سلطه الله عليهم لبغيهم وطغيانهم وعنادهم قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ

وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٠٠﴾ هذا عنادهم في قبول الحق هذه نتيجته أن سلط الله عليهم هذه الأوبئة وهذه الأمراض وهذا القحط، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا﴾ قال الزجاج: زعم بعض النحويين أن أصل مهما ماما ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ، فما الأولى هي ما الجزاء وما الثانية هي التي تزداد تأكيداً للجزاء ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزاء إلا وما تزداد فيه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ﴾ كقولك إن تتقنهم وقال ﴿وَإِنَّمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ وتكون ما الثانية تكون للشرط والجزاء والتفسير الأول هو الكلام وعليه استعمال الناس، قال ابن الأنباري: فعلى قول من قال: إن معنى مه الكف يحسن الوقف على مه والاختيار ألا يوقف عليها دون ما؛ لأنها في المصحف حرف واحد وفي الطوفان هنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ في تفسيره أقوال ثلاثة عند المفسرين:

أحدها: أنا المقصود بالطوفان هذا الذي أرسله الله عليهم عقاباً لهم أنه الماء، قاله ابن عباس. أرسل عليهم مطراً دائماً بالليل والنهار أرسله ثمانية أيام، وإلى هذا المعنى الذي قاله ابن عباس، ذهب إليه سعيد بن جبير وقتادة والضحاك وأبو مالك ومقاتل واختاره الفراء وابن قتيبة.

القول الثاني: أن المقصود بالطوفان أنه الموت كما هو قول لعائشة -رضي الله عنها- أو من روايتها قال مجاهد وعطاء، وهب بن منبه وابن كثير.

والثالث: أنه الطاعون نقل عن مجاهد ونقل عن وهب، ثم إن في القمل هذا المذكور في الآية سبعة أقوال:

المقصود بالقمل عند المفسرين أقوال سبعة:

أحدها: أنه السوس الذي يصيب الحنطة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال به.

الثاني: أن المقصود بالقمل الذبابة رواه العوفي عن ابن عباس، أو الدبى أو الذبابة هكذا ضبطت رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، وقال قتادة: القمل أولاد الجراد قال ابن فارس: الذبى الجراد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنته.

الثالث: أنه دواب سود صغار، كما قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقيل: هذه الدواب هي السوس.

الرابع: أن المقصود بالقمل هي الجعلان، كما يروى هذا القول عن حبيب بن أبي ثابت.

القول الخامس: أن المقصود بالقمل هنا أنه القمل ذكره عطاء الخراساني وزيد بن أسلم.

والسادس: أنه البراغيث كما حكاه ابن زيد.

السابع: أن المقصود بالقمل هنا الحمنان واحدها حمنانة، وهي ضرب من القردان قاله أبو عبيدة، وقرأ الحسن وعكرمة وابن يعمر القمل وقرأوا أيضاً القمل برفع القاف وسكون الميم والحمنان التي واحدها حمنانة وهي ضرب من القردان هي التي تصيب الإبل فتضعفها.

وفي الدم قولان: أحدهما: أن ماءهم صار دما، قاله الجمهور، الثاني: أنه رعا ف أصابهم قاله زيد بن أسلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاءهم الطوفان فكان الرجل لا يقدر أن يخرج إلى ضيعته حتى خافوا الغرق فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بكشفه عنا، ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى لهم ربه فكشفه الله عنهم وأنبأ لهم شيئا لم ينبئ به قبل ذلك، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض، فقالوا: ادع الله لنا يا موسى فدعا الله لهم فكشف الله عنهم ذلك فأحوزوا زروعهم في البيوت فأرسل الله عليهم القمل، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجرة إلى الرحي فلا يرى منها ثلاثة أقفزة فسألوه فدعا لهم فكشف عنهم فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع ولم يك شيء أشد منها؛ كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتغور فتلقي أنفسها فيها فتفسد طعامهم وتطفئ نيرانهم، وكانت الضفادع بركة فأورثها الله برد الماء والثرى إلى يوم القيامة، فسألوه فدعا لهم فلم يؤمنوا فأرسل الله عليهم الدم؛ فجرت أنهارهم وقلوبهم دم؛ أي قلوب الماء، فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل في الماء العذب، فإذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار ما دخل فيه دما، والماء من بين يديه ومن خلفه صاف عذب لا يقدر عليه فقال فرعون أقسم بإلهي يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنكونن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فذهب الدم وعذب الماء فقالوا: والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل.

قوله: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ التي أرسل الله مع موسى قال الله عنها ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ وهي الآيات التي أرسلها الله مع موسى كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ وأكد الله ﷻ على آيات موسى -عليه الصلاة والسلام- التسع كما في قوله: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وقد كثرت آيات موسى -عليه الصلاة والسلام- التي أيده الله بها ليصدق قومه بما جاءهم به من عند الله، فقد كان القوم أشد الأقوام عنادا وكانوا أشدهم صلفاً وكانوا أشدهم كبرا وغورا واختلفت الآيات التي أيد الله بها موسى -عليه الصلاة والسلام- وتنوعت إذ آيات موسى التي أيده الله بها في القرآن الكريم كثيرة جدا، من ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى لِأَنَّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى، ومن ذلك انغلاق البحر لقومه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ وَأَجْنَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ومن الآيات التي أعطى الله موسى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ومن ذلك خروج الماء من الحجر كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا

تَعْتَوَا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠٠﴾ ومن ذلك الصاعقة والبعث لقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. ومن ذلك أن من الآيات التي أعطيتها موسى الغمام والمن والسلوى، قال تعالى:

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ومن آيات موسى الرجز؛ أي الطاعون كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ومن آيات موسى رفع الجبل قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. ومن ذلك أي ومن الآيات التي أعطيتها موسى الأخذ بالسنين ونقص الثمرات كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. ومن ذلك أيضًا إحياء القتيل كما قال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وغير ذلك من الآيات التي أيد الله بها نبيه موسى -عليه الصلاة والسلام- وأهل التفسير لهذه الآيات يذكرون هذه التسع ويزيدون عليها كما مر علينا في الآيات السابقة، ومن ذلك العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتلقف العصا ما يَأْفَكُونَ وانفلاق البحر بضربه إياه، وكذلك الحجر عن الماء، وكذلك الجبل وكلام الله سبحانه لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، كما قال سبحانه في العصا: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وقد كان لفظ القرآن صريحًا وواضح الدلالة على أن العصا واليد آيتان لقوله سبحانه: ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ أي أن يدك آية ثانية تضاف إلى الآية الأولى وهي العصا، أما الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من الآيات التسع فهي مجملة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾. وكما في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

فقوله ﷺ: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ قال ابن قتيبة: بين الآية والآية فصل، وقال المفسرون: كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت ثم يبقون عقب رفعها شهرًا في عافية، ثم تأتي الآية الأخرى، قال وهب بن منبه: بين كل آيتين أربعون يومًا وروى عكرمة عن ابن عباس: قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات الجراد والقمل والضفادع والدم.

وفي قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ في تفسيرها قولان: أي استكبروا عن الإيمان، والقول الثاني: استكبروا عن الانزجار وما

داموا لم ينزجروا وما داموا لم يرعوا وما داموا لم يرجعوا إلى الله ورسوله فهم مستكبرون؛ لأن المتكبر يحرم الإيمان ويحرم الخير كله، ولا خير في الكبر وإنما الكبر لله وحده جل وعلا أما عباده فليس لهم من الكبر شيء، ومن تكبر على خلق الله فإن الله يقسم ظهره، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثامنة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين وبعد،

إخوتي الطلاب أخوتي الطالبات مع الدرس الثامن عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٥] فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ

قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي نزل بهم العذاب، وفي هذا العذاب قولان مشهوران للمفسرين: القول الأول: إن هذا الرجز إنما هو طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً، كما يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

القول الثاني: أن هذا الرجز عذاب سلطه الله عليهم، من الجراد والقمل وغير ذلك، كما قاله ابن زيد، قال الزجاج: الرجز العذاب، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب ومعنى الرجز في العذاب أنه المقلق لشدة شدة متتابعة، وأصل الرجز في اللغة تتابع الحركات فمن ذلك قولهم ناقة رجزاء إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها، ومنه رجز الشعر؛ لأنه أقصر أبيات الشعر والانتقال من بيت إلى بيت يكون بطريقة سريعة نحو قول القائل:

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع

لكن الخليل بن أحمد لا يرى الرجز من الشعر، يقول: إنما هو أنصاف أبيات وأثلاث، هذا قوله وإن خالفه عليه الأكترون. قوله سبحانه: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ للمفسرين فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن معناه بما أوصاك أن تدعوه به.

الثاني: بما تقدم إليك به أن تدعوه فيحييك.

الثالث: بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن.

الرابع: أن ذلك منهم على معنى القسم، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعوا لهم.

قوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ﴾؛ أي إلى وقت غرقهم، ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ أي إذا هم ينقضون العهد.

قوله سبحانه: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: انتصرنا منهم بإحلال نعمتنا بهم، وتلك النعمة تغريقنا إياهم في اليم، قال ابن قتيبة: اليم هو البحر.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معنى ذلك قولان: أحدهما: أنهم كانوا غافلين عن الآيات، وغفلتهم عنها تركهم الاعتبار بها، القول الثاني: أنهم كانوا غافلين عن النعمة.

قوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧-١٣٨]

قوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ لم يبين جل وعلا من هؤلاء القوم، وجاء التصريح بهم في سورة الشعراء، وأن المراد بهم بنو إسرائيل، كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وجاء هنا وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل، ولكن لم يتبين هنا ما هي الكلمة الحسنى ولقد جاء بيانها في سورة القصص عند قول المولى جل وعلا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

قوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾؛ يعني بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفون؛ أي الذين كانوا يستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء وتسخير الرجال، ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا﴾ وفي تفسيرها أقوال ثلاثة: أحدها: أنه مشارق الشام ومغاربها كما قاله الحسن، الثاني: مشارق أرض الشام ومصر، الثالث: أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها وهو أقرب الأقوال؛ لأن الآية لم تخصص شرقا ولا غربا معينا وإنما جاءت معممة عامة.

قوله: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال ابن عباس: بالماء والشجر والبركة أعم من ذلك.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ وهي وعد الله لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض وذلك في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله سبحانه: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: على طاعة الله، والثاني: على أذى فرعون، وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا﴾ أي أهلكنا ما كان يصنع فرعون وقومه مما يصنعونه من البيوت والمزارع، والدمار هو الهلاك، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي وما كانوا يبنون قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم يعرشون بكسر الراء، هاهنا وفي النحل أيضا، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الراء فيهما، وقرأ ابن أبي عبلة يُعَرِّشُونَ بالتشديد، قال الزجاج: يقال: عَرَّشَ يَعْرِشُ وَيُعَرِّشُ إِذَا بَنَى.

قوله سبحانه: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ هنا جاء بيان جحود بني إسرائيل لنعم الله عليهم، فالله يقول سبحانه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أنقذ الله بني إسرائيل من كيد فرعون وملائه فعبروا البحر آمنين بالسير في أرض البحر، آمنين من غير سفن بعد أن أوحى الله لنبيه موسى بضرب البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ثم أغرق الله فرعون وقومه حينما لحقوا بهم وفي وسط البحر أطبق عليهم الماء كما وصف تعالى هذا الحادث العجيب بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

الْآخِرِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وبعد أن جاوز بنو إسرائيل البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، وشاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده وأنه خصهم بالنجاة والسلامة كانوا مع ذلك في غاية الضلالة والجهالة وجحود النعمة، إذ طلبوا من موسى أن يتخذوا إلهًا من الأصنام تأثروا بما رأوه من بعض العرب أو من غيرهم لما مروا عليهم يعبدون الأصنام ويعظمونها ويلازمونها ويُقبلون عليها وتشبهًا بالمصريين الذين كانوا يعبدون التماثيل وكأنهم لم يدركوا معنى التوحيد الذي دعاهم إليه موسى عليه الصلاة والسلام.

أما القوم الذين رأوهم فهم من الكنعانيين وهم الذين أمر موسى -عليه الصلاة والسلام- بقتالهم وكانوا من لحم قاله الطبري، وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البشر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة أي اجعل لنا صنمًا نعكف عليه ونلازمه كما لهم آلهة أصنامًا يعكفون عليها والمراد أنهم طلبوا منه أن يعين لهم أصنامًا وهذا يدل على تأثرهم بالبيئة المصرية وقتئذ وحنينهم لها وعلى نزعتهم المادية بتجسيد الإله في صورة معدن أو حجر فأجابهم موسى تعجبًا من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع منه فإنهم قد جهلوا معنى التوحيد ومقامه وما يجب من إفراد الله بالعبادة بلا واسطة من إنسان ولا مادة جهلوا عظمة الله وجلال الله وما يجب أن يتره عنه من الشريك والمثيل ومن اتخذ الوسطة إلى الله بلا أصنام وأن ذلك كفر فقد أجمع كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهًا للعالم، أو اعتقدوا أنَّ عبادتهم تقربهم إلى الله تعالى؛ لأن العبادة هي نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام والإكرام وهو الله جل وعلا وهذه طريقة السذج والجهلة.

وقد حدث في عهد النبي ﷺ مثل ذلك كما أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت: يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها فقال ﷺ متعجبًا من ذلك القول: (الله أكبر قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن من كان قبلكم وتتمة ربي موسى إن هؤلاء -يعني عبدة تلك التماثيل- مدمر) أي مكسر ما هم فيه، وزائل ما كانوا يعملونه من عبادتها فيما سلف، فكل ما عملوه مضمحل الأثر لا ينتفعون به بل يعاقبون عليه وإن كان في زعمهم تقريبًا إلى الله كما قال جل وعلا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وفي عبارة القرآن ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُونَ﴾ إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك وأن عملهم إلى زوال وهذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض، ثم قال لهم موسى: أغير الله خالق السماوات و الأرض المنعم عليكم بكل هذه النعم أغيره أطلب لكم معبودًا، وهو الذي فضلكم على العالمين أي عالم زمانهم بالتوحيد، وهداية الدين وتحديد ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم ذكرهم موسى عليه السلام نعم الله العظمى عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والسيادة وخلافة الملك والسلطان والانتقام من عدوهم والنظر إليه وقت هلاكه وغرقه ودماره، بعد أن يسوموهم سوء العذاب بتقتيل أبنائهم وترك نسائهم أحياء وتسخيرهم للخدمة الشاقة، وفي ذلك المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله والإنعام عليهم بهذه النعم هذا

إنه بلاء عظيم، أي إن المحنة اختبار منهم جدا فأنتم أجدر الناس بعبادة ربكم الذي منحكم الحياة والإنقاذ والعزة، وأولى من غيركم بشكر تلك النعم الجليلة، وهل هناك عجب أشد من هذا العجب أن تطلبوا جعل آلهة مزيفة عاجزة خسيصة ضعيفة تجعلونها واسطة بينكم وبين الله الذي فضلكم عليها وعلى من يعبدوها.

والمراد بقوله: ﴿وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ﴾؛ أي اذكروا ذلك الوقت والقصد ذكر ما حصل فيه حتى يشكروا الله تعالى على نعمه ودلت الآية وهي قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ على جهالة بني إسرائيل بحقيقة التوحيد الذي جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام- من أجل إرشادهم إليه فقد طلبوا منهم أن يعين لهم أصناماً وأن يعين لهم تماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله وهذا تمام مشابهة لفعل عبدة الأوثان الذي يزعمون أنهم ما يعبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى، قال قتادة: كل أولئك القوم من لحم وكانوا نزولا بالرقعة.

وقيل: كانت أصنامهم تماثيل بقر ولهذا أخرج لهم السامري عجلاً ونظير قول جهالة الأعراب في عصر النبي ﷺ وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط يعظمونها في كل سنة يوماً، يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال عليه الصلاة والسلام: (الله أكبر فلتهم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾) وقد تقدم هذا الحديث وإن طلبهم هذا هو غاية الجهل؛ لأن المعبود المستحق للعبادة والتعظيم هو القادر على خلق الأجساد والحياة والقدرة والعقل وخلق الأشياء كلها المنتفع بها ولا يقدر على ذلك غير الله فلا تليق العبادة إلا له سبحانه، ودل قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّونَ﴾ على أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك، وأن عملهم إلى زوال وأن عهد الوثنية من الأرض سينتهي لمناقضته للعقل والفطرة.

وقد ندد موسى ﷺ بطلب بني إسرائيل هذا من نواح عدة:

أولها: أنه حكم عليهم بالجهل: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ثم إنه قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّونَ﴾ أي إنما هو سبب للخسار والهلاك ثم قال لهم: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إن هذا العمل الشاق لا يفيدهم نفعاً لا في الدين ولا في الدنيا، ثم إنه تعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال لهم: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْعِغْكُمْ إلهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي أن الإله ليس شيئاً يطلب ويلتمس ويتخذ بل الإله هو الله الذي يكون قادراً على الإنعام وإعطاء الحياة وجميع النعم وهو المراد من قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ومن المعروف أن بني إسرائيل يحدون نعم الإله عليهم، فالله أنعم عليهم بتفضيلهم على عالم زمانهم وهي نعمة عظيمة فكيف يليق بهم الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ولكنه الجهل والعناد، وأنعم عليهم بالعزة بعد الذلة وبالسلطان وبالحكم والخلافة في الأرض بعد العبودية والاستعمار والتبعية وبالنجاة من ظلم فرعون الذي كان يقتل أبناءهم ويقتي نساءهم والخطاب وإن كان ليهود عصر النبي ﷺ فهو تذكير لهم بإنجاء أسلافهم، وأن العقوبة ستأتيهم كما أتت أسلافهم إن لم ينصاعوا للحق وإن لم يعملوا به، فقوله جل وعلا: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر ويعقوب يعكفون بضم الكاف وقرأ حمزة والكسائي والمفضل بكسر الكاف وقرأ ابن أبي عتبة بضم الياء وتشديد الكاف

قال الزجاج: ومعنى يعكفون على أصنام لهم أي يواظبون عليها ويلازمونها يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكُفُ قال قتادة: كان أولئك القوم نزولاً بالرقعة وكانوا من لحم وقال غيره: كانت أصنامهم تماثيل بقر، وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهوا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ﴾ قال ابن قتيبة: أي مهلك، والتبار الهلاك.

﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِهًا﴾ أي أطلب لكم وهذا استفهام إنكار، قال كثير من المفسرين ومنهم ابن عباس ومجاهد إن العالمون هاهنا عالم زمانهم؛ أي إن تفضيلهم ليس تفضيلاً مطلقاً على العالمين في كل زمان ومكان، وإنما هم أفضل عالمي زمانهم ووقتهم ثم قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَبْحَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذِكْمِ بَلَاءٍ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَبْحَيْنَاكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وإذ أنجأكم على لفظ النائب المفرد، وإلى هنا ينتهي الدرس الثامن عشر، ويليه الدرس التاسع عشر بإذن الله وتوفيقه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

المحاضرة التاسعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد،

إخوتي الطلاب أخوتي الطلاب مع الدرس التاسع عشر من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] هنا مناجاة من موسى لربه وطلب منه لرؤية الله، وهنا فيه حدث إنزال التوراة عليه.

قوله سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ المعنى: واعدناه انقضاء الثلاثين ليلة قال ابن عباس: قال موسى لقومه إن ربي وعدني ثلاثين ليلة فلما فصل إلى ربه زاده عشراً فكانت فتنهم في ذلك العشر، فإن قيل لم زيد هذا العشر؟ فالجواب: أن ابن عباس قال: صام تلك الثلاثين ليلهن ونهارهن فلما انسلخ الشهر كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فأوحى الله إليه لا أكلمنك حتى يعود فوك على ما كان عليه أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إلي من ريح المسك، وأمره بصيام عشرة أيام، وقال أبو العالية: مكث موسى على الطور أربعين ليلة فبلغنا أنه لم يحدث حتى هبط منه فإن قيل: ما معنى ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين؟ فإن الجواب على ذلك من وجوه: أحدها: أن ذلك للتأكيد، الثاني: ليدل أن العشر ليال لا عشر ساعات، الثالث: لينتفي تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين؛ لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأتمت بعشر.

قوله: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ قال ابن عباس: مرهم بالإصلاح وقال مقاتل: أي ارفق بهم. ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ قال الزجاج: أي للوقت الذي وقتنا له، وكلمه ربه: أسمعته كلامه ولم يكن فيما بينه وبين الله ﷻ فيما سمع أحد، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ أي أريني نفسك، ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ وهنا لنا وقفة حول هذه الرؤية؛ رؤية الله جل وعلا في الدنيا والآخرة، فقد استدلل المعتزلة النافون لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة استدلووا بهذه الآية ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ على مذهبهم الباطل، ونفي الرؤية في الآيات إنما هو في الدنيا أما الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم كما صرحت به الآية وهي قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقوله في الكفار: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فإن ذلك يفهم أنه لما حجب الكفار في حال السخط جعله حاصلاً للمؤمنين حال الرضا، وثبت قوله ﷻ في تفسير قوله: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، أن الحسنى هي الجنة وأن الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وذلك أيضاً أحد القولين في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ والأحاديث

متواترة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربه يوم القيامة بأبصارهم ورؤية الله جل جلاله بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها في الدنيا عقلاً أن موسى سأل ربه ذلك، وموسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله، وأما شرعاً فجائزة وواقعة في الآخرة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الصحاح المتواترة، أما في الدنيا فممنوعة شرعاً لآية الأعراف: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ولحديث: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا).

قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ تعلق بهذه نفاة الرؤية وقالوا: إن لن تفيد الأبد وهو غلط منهم، فابن مالك النحوي المشهور يقول:

فقوله اردد وسواه فاعضدا

ومن رأى النفي بلن مؤبدا

لأن لن لا تفيد التأييد وإنما تفيد النفي إلى أبد محدد، وقد وردت لن وهي لا تفيد الأبد المطلق كما في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ثم أخبر عنهم بتمنيه في النار؛ أي الموت عندما يقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ﴾ ولأن ابن عباس قال في تفسيرها: لن تراني أي في الدنيا، وقال غيره: هذا جواب لقول موسى: ﴿أَرِنِي﴾ ولم يرد أريني في الآخرة، وإنما أراد في الدنيا فأجيب عما سأل.

وقال بعضهم: لن تراني بسؤالك وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية؛ لأن موسى مع علمه بالله تعالى سألها ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك؛ لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص وإنما هي معرفة تامة؛ ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية ولو استحالت عليه لقال لا أرى، ألا ترى أن نوح لما قال: ﴿إِنَّ أَيْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أنكر عليه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ومما يدل على جواز الرؤية أنه علقها باستقرار الجبل وذلك جائز غير مستحيل فدل على أنها جائزة ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحالت علقه بمستحيل فقال: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وقد تقدم معنا ذلك.

قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ﴾ أي إن ثبت ولم يتضعضع.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رُؤْيُهُ﴾ قال الزجاج: أي ظهر وبان جعله دكا، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر دكا دكا منونة مقصورة ها هنا وفي الكهف، وقرأ عاصم دكا ها هنا منونة مقصورة، وفي الكهف دكاء ممدودة غير منونة، وقرأ حمزة والكسائي دكاء ممدودة غير منونة في الموضعين قال أبو عبيدة: جعله دكا؛ أي مندكا، والدك المستوي والمعنى: مستويًا مع وجه الأرض، يقال ناقة دكاء أي ذاهبة السنام مستو ظهرها، قال ابن قتيبة: كأن سنامها قد دك؛ أي التصق، قال ويقال إن أصل دكدكت دقت فأبدلت القاف كافًا لتقارب المخرجين وقال أنس بن مالك في قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًا﴾ ساخ الجبل قال ابن عباس: واسم الجبل زبير أو زبير وهو أعظم جبل بمدين، وإن الجبال تطاولت ليتجلى لها وتواضع زبير فتجلى له والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ للمفسرين في ذلك قولان مشهوران: أحدهما: خر موسى صعقًا أي مغشيا عليه كما هو مروي عن ابن عباس وعن الحسن وابن زيد، الثاني: وخر موسى صعقًا أي ميتًا كما هو مروي عن قتادة ومقاتل والأول أظهر والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ وذلك لا يقال للميت وقيل: بقي في غشيته يوم وليلة، والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ فيما تاب منه أقوال ثلاثة: أحدها: تاب من سؤاله الرؤية قاله ابن عباس ومجاهد: والثاني: تاب من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها، والثالث: تاب من اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا، وفي قوله: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في تفسيره قولان: أحدهما: أنك لن تُرى في الدنيا رواه أبو صالح عن ابن عباس والثاني: أول المؤمنين من بني إسرائيل، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ فتح ياء إني ابن كثير وأبو عمرو وقرأ ابن كثير ونافع برسالتي، قال الزجاج: المعنى اتخذتك صفوة على الناس برسالاتي وبكلامي، ولكن كان إنما سمع كلام غير الله لما قال برسالاتي وبكلامي؛ لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله ثم قال جل وعلا: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأْمَرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في ماهية الألواح سبعة أقوال:

أحدها: أنها زبرجد قاله ابن عباس، والثاني: أنه ياقوت قاله سعيد بن جبير والثالث: أنها زمرد أخضر، قاله مجاهد، والرابع: أنه برد قاله أبو العالية، والخامس: خشب، قاله الحسن، والسادس: صخر قاله وهب بن منبه، والسابع: زمرد وياقوت قاله مقاتل، وفي عددها أربع أقوال:

أحدها: أنها سبعة رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، والثاني: أنه لوحان قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، قال: وإنما سماها الله تعالى ألواحاً على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية كقوله: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يريد داود وسليمان، وقوله: ﴿ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾. والثالث: أنها عشرة ألواح قاله وهب، والرابع: أنها تسعة قاله مقاتل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي قوله: ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قولان أحدهما: من كل شيء يحتاج إليه، في الدين من الحلال والحرام والواجب والمحرم وغيره، والثاني: من الحكم والحكم والعبر.

قوله سبحانه: ﴿ مَوْعِظَةً ﴾ أي نهيًا عن الجهل، ﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ أي تبينًا لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام.

قوله سبحانه: ﴿ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فيه أقوال ثلاثة:

أحدها: خذها بجد وحزم، قاله ابن عباس.

والثاني: خذها بطاعة، قاله أبو العالية، والثالث: خذها بشكر، قاله جوير.

قوله سبحانه: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ هل يقال إن فيها ما ليس بحسن؟ في ذلك جوابان: أحدهما: أن المعنى يأخذ بأحسنها وكلها حسن، فيأخذ بأحسنها قاله قطرب، وقال ابن الأنباري ناب أحسن عن حسن كما قال

الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيمة طويلة، وقال غيره: الأحسن هاهنا صلة والمعنى يأخذوا بها، والثاني: أن بعض ما فيها أحسن من بعض.

ثم في ذلك أقوال للمفسرين خمسة: أحدها: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير هو الأحسن الثاني: أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فأمروا أن يأخذوا بالأحسن ذكر القولين الزجاج وغيره، فعلى هذا القول يكون المعنى: أنهم يتبعون العزائم والفضائل وعلى الذي قبله يكون المعنى أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية.

الثالث: أحسنها الفرائض والنوافل وأدونها في الحسن المباح، والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة فتصرف إلى الأشبه بالحق، والخامس: أن أحسنها الجمع بين الفرائض والنوافل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: أو أن تكون أحسن هنا لم تأت على بابها فيكون كلها حسن، ولا شك أن هذا الوحي النازل على موسى أنه كله وحي وأنه كله من عند الله.

وقوله سبحانه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ في تفسيرها أقوال أربعة للمفسرين:

أحد هذه الأقوال: أن دار الفاسقين هي جهنم كما هو مروي عن الحسن ومجاهد، والثاني: أن دار الفاسقين هي دار فرعون وقومه، وهي مصر، قاله عطية العوفي، والثالث: أن دار الفاسقين منازل من هلك من الجبابة والعمالة الذين كفروا بربهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة، والرابع: أن دار الفاسقين مصارع الفاسقين، قاله السدي ومعنى الكلام: سأوريكم عاقبة من خالف أمري وهذا تهديد للمخالف وهو تحذير للموافق، ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سأريكم نهاية هؤلاء وعاقبتهم التي سيصيرون إليها، نعوذ بالله من دار الفاسقين وأهلها.

ثم قال جل وعلا: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِزِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧]

قوله سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

في معنى هذه الآية قولان للمفسرين: أحدهما: أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات، والثاني: أنها عامة، وهو أقرب وأصح، وفي الآية قولان أحدهما: أنها آيات الكتب المتلوة، ثم في معنى الكلام أقوال ثلاثة:

أحدها: أنمعهم فهمها، والثاني: أنمعهم من الإيمان بها، والثالث: أصرفهم عن الاعتراض عليه بالإبطال، وآيات الله نوعان: آيات متلوة وهي ما في الكتاب في الوحي الذي أنزله الله على موسى وأنزله على الأنبياء قبله وعلى الأنبياء بعده إلى نبينا ﷺ، وهنا آيات كونية فثمة كتابان، كتاب منشور وكتاب مسطور الكتاب المسطور هو الوحي، والكتاب

المنشور هو الكون علوية وسفلية فالنظر فيه يفيد الإيمان بالله وبعظيم قدرته سبحانه وأنه على كل شيء قدير ويدفع إلى عبادته وإلى الخضوع له، والثاني: أنها آيات مخلوقات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها، فيكون المعنى: أصرفهم عن التفكير والاعتبار بما خلقت.

وفي معنى يتكبرون قولان:

أحدهما: يتكبرون عن الإيمان وإتباع الرسل والثاني: يحتقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم، قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: سبيل الرشد، بضم الراء، وقرأ حمزة والكسائي: سبيل الرشد، بفتح الراء والشين.

قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ قال الزجاج: فعل الله بهم ذلك لأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين؛ أي كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها بمنزلة الغافلين ويجوز أن يكون المعنى وكانوا عن جزائها غافلين، نعوذ بالله من الغفلة ونسأله جل وعلا الهداية والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

وإلى هنا ننتهي إلى نهاية هذا الدرس التاسع عشر، وإلى الدرس العشرون صلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد،

إخوتي الطلاب أخوتي الطالبات مع الدرس العشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَإِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٨]. يبين الله ﷻ في هذه الآية سخافة عقول عبدة العجل، ووجههم ﷻ على عبادة ما لا يكلمهم وما لا يهديهم سبيلاً وأوضح هذا في سورة طه بقوله جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، وجميع الآيات الواردة في اتخاذهم العجل إلها حذف فيها المفعول الثاني، كما في هذه السورة، ﴿وَإِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيهِمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ أي اتخذوه إلها، والحكمة والله أعلم أنه لا ينبغي التلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من جماد يكون إلهاً، وهذا المحذوف دائماً جاءت الإشارة إليه في سورة طه كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَإِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد انطلاقه للجبل إلى لميقات الذي وقته له ربه، وغيابه عنهم اتخذوا من بعده من خليفهم، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر من خليفهم بضم الحاء، وقرأ حمزة والكسائي خليفهم، بكسر الحاء، وقرأ يعقوب بفتحها وسكون اللام وتخفيف الياء، والحلي جمع خَلِيٍّ، مثل نَدِيٍّ ونُدِيٍّ، وهو اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة، قال جل وعلا: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ قال الزجاج: ومن كسر الحاء من خليفهم أتبع الحاء كسر اللام، والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما هو بمعنى الجثة فقط، قال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على أنه معدوم الروح ولا روح فيه.

قوله سبحانه: أن هذا الذي عبده واتخذوه من خليفهم ﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ جسد أي لا روح فيه، وإنما هو فقط هيكل مصنوع من هذا الحلي من الذهب والفضة وأن شخصه شخص، ومثال لصورة، وأنه غير منضم إليه روح ولا نفس فيه، فأما الخوار فهو صوت البقر، يقال: خارت البقرة تحُور، وجأرت تحأر وقد نقل عن العرب أنهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم يقولون: راغ البعير وجرجر وهدر، وقبب، وصهل الفرص وحمحم، وشهق الحمار ونُهِق، وشحج البغل وثغث، وثغت الشاة (وذعرت)، وثعجت النعجة وبغم الظبي ونزب، وزأر الأسد ونُتت ونأت، ووعوع الذئب ونهم الفيل وزقح القرد وظبح الثعلب، وعوى الكلب ونبح، وماءت السنور، وصأت الفأرة، ونغق الغراب معجمة الغيل، وزأق الديك وصقع، وصفر النسر، وهدر الحمام وهدل، ونقظت الضفادع ونقت، وزعفت الجن.

قال ابن عباس: كان العجل إذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وفي رواية أبي صالح عنه: أنه خار خورة واحدة ولم يتبعها مثلها، وبهذا قال وهب ومقاتل، وكان مجاهد يقول: خواره حفيف الريح فيه، وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح وقرأ أبو روزين والعقيلي وأبو مجلز له جوار، بجيم مرفوعة.

قوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾؛ أي لا يستطيع كلامهم، ﴿ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي لا يبين لهم طريقًا إلى حجة، ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ يعني اتخذوه آلهة من دون الله، ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ قال ابن عباس: أي كانوا مشركين، وهو من حبههم للمادة وولعهم بها، وهو دأب لليهود في قديم الزمان وحديثه، فلما رأوا هذا المصنوع من الذهب والفضة سال لعابهم حوله ومن ثم عبده، فهم عبدة الدرهم والدينار وكان هذا الذي صنع لهم العجل قد جعله مجوفًا تدخل الريح من فمه وتخرج من دبره، وفي دخولها وخروجها يحدث صوت مشابه لصوت العجل فلما رأوا هذا قالوا: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ وإنما نسي أن ينبهنا على ذلك، وهذا منهم جور وبهتان وهي عادتهم مع أنبياء الله ورسله يتكبرون ويعاندون كما مر معنا عندما نجاهم الله من البحر ومن الغرق ورأوا عدوهم كيف يغرق ثم يأتون بهذا الطلب العجيب الغريب عندما يَمرون على أقوام يعبدون غير الله فيطلبون من نبيهم أن يجعل لهم آلهة يعبدونها، وكأنهم نسوا أو تناسوا أن الذي نجاهم من البحر هو الله سبحانه، ولا زالت المعجزة عالقة في أذهانهم والصورة منطبعة في مخيلتهم ولكنه التجبر والعناد، ثم قال جل وعلا: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيْسَى الْقَوْمِ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩ - ١٥٢]

قوله: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ يبين جل وعلا في هذه الآية أن عبدة العجل هؤلاء اعترفوا بذنبهم وندموا على فعلتهم الشنيعة، وجاء التصريح في سورة البقرة بتوبتهم ورضى الله عنهم بالقتل وتوبته عليهم كما قال جل وعلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. ولما سقط في أيديهم أي ندموا، قال الزجاج: يقال للرجل النادم على ما فعل المتحسر على ما فرط قد سقط في يده، وأسقط في يده، وقرأ ابن السمين وأبو عمران الجوني: سقط بفتح السين، قال الزجاج: والمعنى ولما سقط الندم في أيديهم يُشَبَّه بما يحصل في القلب والنفس بما يرى بالعين قال المفسرون: هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى.

قوله سبحانه: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: يرحمنا ربنا ويغفر لنا بالياء والرفع، وقرأ حمزة والكسائي: ترحمنا، وتغفر لنا، بالتاء، ربنا بالنصب.

قوله سبحانه: ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أوضح الله ما ذكره ها هنا ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ جاء إيضاح ذلك وبيانه في سورة طه عند قوله سبحانه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا ﴾.

قوله: ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ غضبان معنى واضح، أسفا على ماذا؟ أقوال ثلاثة للمفسرين في أسفه هنا:

أحدها: أن المقصود به حزن، قاله ابن عباس والحسن والسدي، والثاني: أنه بمعنى الجزع، قاله مجاهد، والثالث: أنه

الشديد الغضب، قاله ابن قتيبة والزجاج، وقال أبو الدرداء: الأسف بمنزلة وراء الغضب هي أشد منه، ﴿عُضْبَانٌ أَسْفًا﴾. قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي قال لقومه: ﴿بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ فتح ياء بعد ياء أهل الحجاز وأبو عمرو والمعنى: بس ما فعلتم بعد فراقني من عبادة العجل ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال الفراء: يقال عجلت الأمر والشيء سبقتة ومنه هذه الآية، وأعجلته استحثته، قال ابن عباس: أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له قال الحسن: يعني وعد الأربعين ليلة، قوله جل وعلا: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ أي التي فيها التوراة وفي سبب إلقائه إياها قولان: أحدهما: أنه غضب حين رآهم قد عبدوا العجل، قاله ابن عباس، والثاني: أنه لما رأى فضائل غير أمته من أمة محمد ﷺ اشتد عليه الأمر فألقاها، قاله قتادة وهو قول بعيد والله أعلم، قال ابن عباس: لما رأى الألواح فتحطمت رُفِعَ منها ستة أسباع وبقي سبع والله أعلم.

قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أشار تعالى إلى ما اعتذر به نبي الله هارون لأخيه موسى عليهما الصلاة والسلام، عما وجهه إليه من اللوم، وأوضحه في سورة طه كما قال جل وعلا يعتذر هارون لأخيه موسى: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وجاء التصريح ببراءة هارون في قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ثم ماذا ردوا عليه؟ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾. غضب موسى من فعلتهم وحق له أن يغضب كيف يعبدون العجل، يعبدونه من دون الله، وهكذا ما يخرجون من بلية إلا ويدخلون في أخرى أكبر منها، وأخذ برأس أخيه، فيما أخذ به رأسه أقوال ثلاثة:

الأول: لحيته وذؤابته، والثاني: أنه أخذ شعر رأسه، والثالث: أنه أخذ بأذنه، وقيل: إنما فعل به ذلك؛ لأنه توهم أنه عصى الله بمقامه بينهم وترك الحقوق به وتعريفه ما أحدث بعده ليرجع إليهم فيتلافاهم ويردهم إلى الحق وذلك قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ﴾. وهارون فهم أن أمر موسى له أن يبقى بينهم أنه لا يرجع إليه ولو رأى منهم ما رأى فهو اجتهاد من هارون عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ابن أم، نصبا، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بكسر الميم: ابن أمي، وكذلك في طه، قال الزجاج: من فتح الميم فلكثرة استعمال هذا الاسم، ومن كسر أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً، ومن العرب من يقول: يا ابن أمي، بإثبات الياء. قال الشاعر:

يا ابن أمي وبيا شقيق نفسي أنت خلفتي لدهر شديد

وقال أبو علي: يحتمل أن يريد من فتح يا ابن أم أمًا ويحذف الألف، ومن كسر ابن أمي فيحذف الياء فإن قيل: لما قيل يا ابن أم ولم يقل يا ابن أب، أو يا ابن أبي؟ فالجواب: أن ابن عباس قال: كان أخاه لأبيه وأمه وإنما قال له ذلك ليرققه عليه؛ لأن الأم هي محل الحنان، قال أبو سليمان الدمشقي: والإنسان عند ذكر الوالدة أرق منه عند ذكر الوالد،

وقيل: كان لأمه دون أبيه كما حكاه الثعلبي.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ يعني عبدة العجل، ﴿اسْتَضَعُّونِي﴾ أي استدلوني، ولم يأخذوا بقولي ورأوني ضعيفاً ولذا لم يعتدوا بكلامي يوم أن زجرتهم ونهيتهم عن عبادة العجل، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ قرأ عبد الله بن عباس ومالك بن دينار وابن عاصم: فلا تشمت بتاء مفتوحة مع فتح الميم، بي الأعداء بالرفع. وقرأ مجاهد وأبو العالية والضحاك وأبو رجاء فلا تشمت، بفتح التاء وكسر الميم، الأعداء بالنصب، وقرأ أبو الجوزاء وابن أبي عبلة مثل ذلك، إلا أنهما رفعاً الأعداء ويعني بالأعداء عبدة العجل.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ في موجدتك وعقوبتك لي ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وهم عبدة العجل فلما تبين له عذر أخيه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ هؤلاء يشمتون بي، وأصير محل تندر لهم ويفرحون عندما يرون خلافي معك وعندما يروا منك ذلك العتب علي.

قوله: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في ذلك قولان مشهوران: أحدهما: أن الذلة المقصودة هنا هي الجزية قاله ابن عباس، والثاني: ما أمروا به من قتل أنفسهم كما قاله الزجاج، فعلى الأول يكون ما أضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم؛ لأن أولئك قتلوا ولم يؤدوا جزية قال عطية: وهذه الآية فيما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتوليهم متخذي لعجل ورضاهم به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال ابن عباس: كذلك أعاقب من اتخذ إلهاً دونه، قال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة، ثم قرأ هذه الآية، وقال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، قال وهي في كتاب الله تعالى، قالوا: وأين هي؟ قال: أو ما سمعتم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة؟ قال: كلا، اتل ما بعدها: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة.

والابتداع في الدين ضلالة وكل بدعة في الدين ضلالة، وكل ضلالة في النار، وإلى النار، والبدع هي سبب المصائب وهي التي تنقل الناس عن السنة إلى البدعة، والبدعة محرمة في ديننا ولا خير فيها، والخير كله في السنة وما أظهر الناس بدعة إلا وقد غطوا مكانها سنة، نسأل الله السلامة من البدع كلها ما ظهر منها وما بطن، وأرجو إن شاء الله أن أتمكن وإياكم في الدرس القادم من الإيضاح أكثر لهذه النقطة، وإلى هنا ننهي من هذا الدرس العشرين ونتقل إلى الدرس بعده الواحد والعشرين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الحادية والعشرون

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد:
إخوتي الطلاب أخواتي الطالبات مع الدرس الواحد والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ في السيئات هنا قولان للعلماء:

الأول: أن المقصود بالسيئات هنا الشرك.

الثاني: الشرك وغيره من الذنوب.

والله جل وعلا بفضلله ورحمته يغفر الذنوب إذا تاب منها العبد توبة صادقة، فالله جل وعلا حثنا على التوبة والاستغفار من كل ذنب نذنبه، سواء كبر هذا الذنب أو صغر. وعلينا أن نحدث لكل ذنب توبة.

قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني: تابوا من بعد السيئات بمعنى: أنه أفلح عنها إقلاعا كاملا، ولم يحدث نفسه بالعودة إليها.

وفي قوله ﴿وآمَنُوا﴾ قولان:

الأول: آمنوا بالله. وهو يخرج على قول من قال: هي الشرك، بمعنى: أنه بعد أن كان مشركا تاب من الشرك وأخلص لله العمل، وصار مؤمنا به إيمانا كاملا.

الثاني: آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة هذا إذا قلنا بأن المقصود بالسيئات هنا، هي الذنوب ما دون الشرك وقد قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. فهو سبحانه يقبل توبة هؤلاء ما داموا قد أخلصوا فيها، إن ربك من بعدها يعني: من بعد السيئات ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سبحانه وتعالى، وختم الآية بقوله ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مشعر بأنه سبحانه وتعالى يغفر الذنوب وأنه أرحم بالعباد من أنفسهم بأنفسهم.

قال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزَهْبُونَ﴾.
قوله سبحانه ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ﴾ قرأ ابن عباس وأبو عمران: سكت بفتح السين وتشديد الكاف، وبتاء بعدها الغضب بالنصب، وقرأ سعيد بن جبير وابن يعمر والجاحدي سكت بضم السين وتشديد الكاف مع كسرهما، وقرأ ابن مسعود وعكرمة وطلحة سكن بنون، قال الزجاج: سكت بمعنى: سكن، يقال: سكت يسكت سكتا إذا سكن، وسكت يسكت سكتا وسكونا إذا قطع الكلام، قال: وقال بعضهم: المعنى: ولما سكت موسى عن الغضب، على القلب هنا، كما قالوا: أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى: أدخلت رأسي في القلنسوة والأول هو قول أهل اللغة، وهو أظهر.

قوله: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ يعني: التي كان ألفاها، وفي قوله ﴿وَفِي نُسْحَتِهَا﴾ قولان لعلماء التفسير:

الأول: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ أي: فيما بقي منها، قاله ابن عباس.

والثاني: وفيما نسخ فيها قاله ابن قتيبة، هذا أخذاً على قول من قال: أنه لما ألقى الألواح تهشمت وتكسرت وتفتت، ولا دليل عليه؛ لا دليل على هذا القول إطلاقاً لأنه بعد ذلك قال الله عنه ﴿وَأَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ معناه: أنها ألواح التي

كتبت فيها التوراة، أنها ألواح سليمة، ولم تتهشم كما قيل بعد ذلك وعلى هذا القول الذي معنا الآن أنه فيما بقي منها لانها على معنى القول الذي يقول أنها تكسرت وتهشمت.

قوله ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ في معنى ﴿يَزْهَبُونَ﴾ قولان:

الأول: أنه عام في الذين يخافون الله، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وهو معنى قول قتادة، و ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ الآية تشمل كل من اتصف بهذه الصفة سواء كان في السابقين أو في اللاحقين، الذين هم لربهم يرهبون وصف ينطبق على من تحققت فيه هذه الصفة.

قوله جل وعلا ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾:

قوله سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ المعنى: اختار من قومه فحذف من، تقول العرب: اخترتك القوم، أي: اخترتك من القوم، وأنشدوا:

منا الذين اختير الرجال سمحة	وجودا إذا هب الرياح الزعازع.
-----------------------------	------------------------------

هذا القول قول ابن قتيبة والفراء والزجاج، وفي هذا الميقات الذي وعده أربعة أقوال:

الأول: أنه الميقات الذي وقته الله لموسى ليأخذ التوراة، أمر أن يأتي معه بسبعين رواد أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال نوفل البيكالي.

الثاني: أنه ميقات وقته الله تعالى لموسى، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوا ربهم، فدعوا فقالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا. فكره الله ذلك، وأخذتهم الرجفة. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. ولو صح هذا الدعاء فإن فيه تعد.

الثالث: أنه ميقات وقته الله لموسى، لأن بني إسرائيل قالوا له: إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك، فخذ معك طائفة منا ليسمعوا كلامه، فيؤمنوا فتذهب هذه التهمة، فأوحى الله إليه أن اختر من خيارهم سبعين رجلاً، ثم ارتق بهم على الجبل أنت وهارون، واستخلف يوشع بن نون، ففعل ذلك، قاله وهب بن منبه.

الرابع: أنه ميقات وقته الله لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل فيعتذر إليه من فعل عبادة العجل، قاله السدي، وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربه إلا بإذن منه.

فأما الرجفة فهي الحركة الشديدة، وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال للمفسرين:

الأول: أنه ادعاهم على موسى قتل هارون قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الثاني: اعتداؤهم في الدعاء كما مر معنا في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثالث: أنهم لم ينهوا عبدة العجل ولم يرضوا، نقل عن ابن عباس، وقال قتادة وابن جريج: لم يأمرهم بالمعروف ولم

ينهوهم عن المنكر ولم يزيلوهم أي: لم يبتعدوا عنهم وينفردوا عن هؤلاء الذين فعلوا المنكر.

الرابع: أنهم طلبوا استماع الكلام من الله، فلما سمعوه قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، قاله السدي، وابن إسحاق.

قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ قال السدي: قام موسى يبكي ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ قال الزجاج: لو شئت أمتهم قبل أن تبليهم بما أوجب عليهم الرحمة، وقيل لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإيائي، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني.

قوله ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ قال المبرد: هذا استفهام استعطاف، أي: يا ربنا لا تهلكنا، وقال ابن الأنباري: هذا استفهام على تأويل الجحد، أراد لست تفعل ذلك والسفهاء ها هنا هم عبدة العجل. وقال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل، وإنما أهلكوا بقولهم أرنا الله جهرة.

قوله سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ في الفتنة هنا قولان للمفسرين:

الأول: الابتلاء، كما رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وأبو العالية.

الثاني: العذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول قتادة.

قوله جل وعلا: ﴿أَنْتَ وَلَيْتَا﴾ أي: أنت ناصرنا وأنت حافظنا.

ثم قال جل وعلا تنمة لدعائهم ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمُنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

قوله سبحانه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا﴾ أي: حقق لنا وأوجب له يا الله، حقق لنا في هذه الدنيا حسنة، وهي الأعمال الصالحة، وفي الآخرة أي: المغفرة والجنة، إنا هذنا إليك، أي: إنا تبنا إليك. كما قاله ابن عباس، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد، وأبو العالية وقتادة والضحاك والسدي. وقال ابن قتيبة: ومنه الذين هادوا كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء وقرأ بعضهم إنا هذنا بكسر الهاء، قال ابن الأنباري: المعنى لا تتغير، يقال: هذا يهود، ويهيد.

قوله سبحانه ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ قرأ الحسن البصري والأعمش والعالية من أساء بسين غير معجمة مع النصب. قوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في هذا الكلام للمفسرين أقوال أربعة:

الأول: أن مخرجه عام ومعناه خاص، وتأويل ذلك ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- لقوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كما قاله ابن عباس.

الثاني: أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، وعلى الخصوص في الآخرة، وتأويل ذلك: ورحمتي وسعت كل شيء في

الدنيا البر والفاجر لكنها في الآخرة هي للمتقين خاصة، كما قاله الحسن وقتادة، فعلى هذا معنى الرحمة في الدنيا للكافر، أنه يرزق وأنه يدفع عنه المكروه، كقوله في حق قارون ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فالله أثبت أنه قد أحسن إليه وهو سبحانه محسن على الناس كلهم برهم وفاجرهم برزقهم وإيجادهم.

الثالث: أن الرحمة المقصود بها هنا التوبة، فهي على العموم قاله ابن زيد، أي: أن الله يتوب على من يشاء، ويتوب على من أتى بالتوبة صادقة كاملة الشروط.

الرابع: أن الرحمة تسع كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فلو قدر دخولهم فيها لوسعتهم، قاله ابن الأنباري، قال الزجاج: وسعت كل شيء في الدنيا.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر سبحانه تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة) فنسأل الله رحمته، ونسأله عفو، إنه على كل شيء قدير.

قال سبحانه ﴿فَسَأْأُكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأكتبها لهم في الآخرة قال المفسرون: معنى فسأكتبها، أي: سأوجبها، وفي ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ معنيان:

المعنى الأول: أنهم المتقون للشرك، كما هو مروي عن ابن عباس.

المعنى الثاني: أنهم المتقون للمعاصي كافة، قاله قتادة.

ولا شك أن المتقي للذنوب كلها هو الأكمل وتقوى الله سبحانه هي بعمل ما أوجب وترك ما نهي عنه وزجر، والتقوى كلمة عامة تشمل الدين كله، والقرآن كله من أوله إلى آخره إنما هو حديث عن التقوى لأن المتقون هم الذين يستجيبون لأوامر الله، وهم المنتهون عن معاصيه.

وفي قوله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: قولان:

الأول: أنها زكاة الأموال، وهو قول الجمهور من المفسرين.

الثاني: أنها طاعة الله ورسوله، كما هو قول ابن عباس والحسن ذهبوا إلى أنها العمل بما يركي النفس وبما يطهرها، ومن يقول بأن المقصود هنا زكاة المال فإنه فيه بعد؛ لأن السورة مكية. وقال ابن عباس وقتادة: لما نزل قوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء. فنزعها الله من إبليس، فقال: ﴿فَسَأْأُكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذه الآية كقوله جل وعلا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾. ولما نزل قوله ﴿فَسَأْأُكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قالت اليهود نحن نتقي ونحن نؤدي الزكاة، ونحن نؤمن بآيات ربنا، فنزعها الله منهم، وجعلها لهذه الأمة فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ فهي لكل من يتبع هذا الرسول سواء كان من أمة الدعوة أو كان من أمة الإجابة، سواء كان من العرب أو من غيرهم، كل من آمن بهذا النبي وصدقه فإنه داخل تحت هذه الآية. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هذا وصف لنبينا -صلى الله عليه وسلم- بالأمية أي: أنه لا يقرأ ولا يكتب، كقوله جل وعلا ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ

الْمُبْطِلُونَ﴾ ، وقيل إن نسبته إلى الأمي إلى مكة وهي أم القرى، وقال نوف البيكالي: قال الله تعالى لموسى: أجعل لكم الأرض طهوراً، وأجعلها لكم مسجداً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهور قلوبكم، يقرأها الرجل منكم وتقرأها المرأة، ويقرأها الحر والعبد، ويقرأها الصغير والكبير، فأخبر موسى عليه السلام قومه بذلك فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس والبيع، ولا أن تكون السكينة إلا في التابوت ولا أن نقرأ التوراة إلا نظراً، فقال الله سبحانه: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى قوله ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ وفي هؤلاء المذكورين في قوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ قولان مشهوران للمفسرين:

الأول: أنهم كل من آمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، واتبعه على دينه، وصدق ما جاء به، كما هو مروي عن ابن عباس وغيره.

الثاني: أن هؤلاء المذكورين في هذه الآية ، أنه محمد -صلى الله عليه وسلم-، قاله السدي وقتادة.

وفي تسميته بالأمي قولان أيضاً:

الأول: أنه لا يكتب ولا يقرأ، وهذا هو المشهور، وهذا حكمة من الله أرادها جل وعلا، أن يكون معلم البشرية ومنقذ الإنسانية أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لو كان يقرأ ويكتب لقالوا: إنما هي أساطير الأولين اكتتبها، أو هي أساطير الأولين أخذها من هنا ومن هناك وأتى بها ولكنها ترد على هؤلاء دعواهم هكذا قد زعموا هذا الزعم، وهو لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، كيف لو كان يقرأ ويكتب ماذا عساهم أن يقولوا. وهكذا هؤلاء الظلمة، إنهم لا يكذبون محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الحقيقة ولكن الظالمين بآيات الله يجهلون.

الثاني: أنه وصف بهذا لأنه من أم القرى، أي: مكة، وهي تسمى بأم القرى، فنسب إليها وقيل: النبي الأمي، والأول أظهر وأوضح ، وهو الذي عليه الأدلة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

المحاضرة الثانية والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب أخواطي الطالبات مع الدرس الثاني والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ أي: صفة نبينا -صلى الله عليه وسلم- مكتوبة في الكتب السابقة، وكل نبي يبشر بالنبى الذي بعده وكل نبي يأمر أتباعه أن يصدقوا بالنبى الذي بعده ويؤمنوا به، ونبينا -صلى الله عليه وسلم- آخر الأنبياء والمرسلين فأمرنا أن نؤمن بالأنبياء قبله كلهم، ولا يصح إيمان مسلم حتى يؤمن بالأنبياء كلهم، ما ذكر منهم وما لم يذكر، ما ذكر الله اسمه في القرآن، وما لم يذكر. فنؤمن بهم جملة وتفصيلاً، تفصيلاً بمن ورد اسمهم، وجملة فيمن لم يرد اسمه، ولا يكتمل إيمان مسلم حتى يؤمن بهم جميعاً، ويقدرهم القدر الذي أعطاهم الله إياه.

فقوله سبحانه: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ أي: يجدون وصفه -صلى الله عليه وسلم- في هذه الكتب التي سبقت البعثة النبوية.

وقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، وأخرج ابن جرير في تفسيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التوراة، وكان عبد الله بن عمرو عالماً من علماء الصحابة، وكان له اجتهاد ومعرفة في الأديان السابقة، وكان يجمع كتباً من كتب أولئك القوم فكان ذا بصر بأخبار من جاء قبل بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وخاصة في العهد القديم والعهد الجديد التوراة والإنجيل، فهذا عطاء بن يسار يسأل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة، فقال له: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن، فقد جاء ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرراً للأمة أنت عبيد ورسولي، سميتك المتوكل ليس بغض ولا غليظ، ولن تقبضه حتى تقيم به الملة العوجاء، حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويفتحوا به قلوباً غلقاً، وآذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً" يعني: ما اختلف كلام كعب الأخبار مع كلام عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: فما اختلف حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته: قلوباً علوي، وآذاناً صمومي، وأعيناً عمومي" وزاد في رواية البخاري بعد قوله "ليس بغض ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح" ولقد أخبر سبحانه أن أهل الكتاب يعرفون محمداً -صلى الله عليه وسلم- كمعرفتهم أبناءهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾.

وأخبر سبحانه وتعالى أن نبيه عيسى -صلى الله عليه وسلم- بشر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقد كان علماء بني إسرائيل الذين يعرفون التوراة ويقرءونها فيما بقي لم يحرف إذ ذاك كانوا يعلمون محمداً وصفته، بل وصفة أمته وأصحابه الذين معه، يعرفونه ويعرفون أوصافه كما يعرفون أبناءهم، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الرَّسُولَ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿فَهَذِهِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- مذكور في التوراة في العهد القديم، ومذكور في الإنجيل في العهد الجديد، مهما أرادوا طمس ذلك، فإن كلام الله أصدق قيلاً، وإن كلام الله أحسن حديثاً.﴾

وقد ذكر الله وصف صحابة نبينا في العهدين في الكتابين السابقين في التوراة والإنجيل، كما في أواخر سورة الفتح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فهذا الوصف لصحابة نبينا -صلى الله عليه وسلم- في القرآن، أثبت أنه موجود في التوراة والإنجيل. وقد نقل ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الماتع هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ذكر نقولات كثيرة عما ذكر عن نبينا وأمه في الكتابين السابقين قبل القرآن، نقلت لكم قولاً واحداً مما قال كسبا للوقت قال: أنه موجود في التوراة في السفر الخامس "أقبل الله من سيناء" وفي بعض النقولات "جاء الله من سيناء وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران قال: وهذه متضمنة للنبوات الثلاث، وأوضح هذا النقل الذي جاء به ابن القيم رحمه الله عن التوراة: قوله "أقبل الله من سيناء" هذا إشارة إلى ديانة موسى عليه السلام فإن التوراة نزلت عليه على جبل الطور في سيناء، و"تجلى من ساعير" وساعير هذه بلدة تسمى إلى الآن في فلسطين، وهي التي بعث فيها عيسى وجاءته الرسالة وأنزل عليه الإنجيل قال: وظهر من جبال فاران.

هذا النص يفيد أن الخير أقبل وبدأ من سيناء وأنه تجلى من ساعير، لكن اسمعوا وصفي الأخير "وظهر من جبال فاران" فهنا يعطي وصفاً أوسع من الوصفين السابقين، وجبال فاران هي جبال السروات، وهي جبال الحجاز، فهي تبين أن النبوة الأخيرة ستظهر، وفي بعض النقولات واستعلن من فاران، أي: صار علانية، وصار ظاهراً، وهذا هو الوصف القائم لهذه الأمة.

ولما كان بعض أهل الكتاب يبحثون عن الأرض التي سيكون فيها آخر نبي لهذا الزمان، كانوا يأتون إلى المدينة؛ لأنهم يعلمون أن وصف النبي سيكون عند تلك الحرار، فجاءوا كما جاء سلمان الفارسي وغيره، وكما استوطن بعض من اليهود قريباً من المدينة أو في المدينة نفسها، طلباً لئن يكون نبي آخر الزمان أن يكون منهم.

قوله ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ هذه أوصاف النبي الذي سيكون في آخر الزمان، وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-. ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون يجدونه مكتوباً عندهم أنه يأمرهم بالمعروف، وهكذا هي صفته -صلى الله عليه وسلم- يأمر بالمعروف، وهي صفة أمته وخلفائه من بعده، كما جاء وصفهم في سورة آل عمران ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. قال ابن عباس: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام، والمنكر هو عبادة الأوثان وهو قطع الأرحام، وهذا كأمثلة وإلا فإن المعروف كلمة عامة تشمل الخير كله، والمنكر كلمة عامة تشمل الشر كله، ولا شك أن الخير درجات، وأن الشر درجات، وأنها منازل، وأن فيه صغارا وكبارا، أي: الكبائر والصغائر.

قوله وقال مقاتل: المعروف الإيمان، والمنكر الشرك، ولا شك أن الشرك أكبر المنكرات وهو أسوأها، ولا شك أن

الإيمان هو أس الخيرات والمعروف، وقال غيره: المعروف الحق، لان العقول تعرف صحته، والمنكر هو الباطل؛ لأن العقول تنكر صحته.

وقوله ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ وفي تفسيرها للمفسرين أقوال أربعة:

الأول: أن الطيبات هنا الحلال، والمعنى في وصف هذا النبي الأُمي -صلى الله عليه وسلم- أنه يحل لهم الطيبات، يحل لهم الحلال.

الثاني: أنه ما كانت العرب تستطيبه، فثمة من الفقهاء من يجعل هذه الآية قاعدة في الحلال والحرام، فيجعل ما استطابته العرب حلالاً، وما استخبثته حراماً، ويقول: إن طبع العرب هو طبع يختلف عن غيره من أطباع الأمم الأخرى، ولذا جعل هذا الطبع الذي فيه هذا الوصف، وهو قبول الطيب والنفرة من الخبيث جعله ضابطاً في ذلك، هكذا قاله بعض الفقهاء.

الثالث: أن المقصود بالحرمت يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث أنها الشحوم المحرمة على بني إسرائيل.

الرابع: ما كانت العرب تحرمه من البحيرة ومن السائبة ومن الوصيعة ومن الحامي. وفي الخبائث ثلاثة أقوال:

الأول: أنها حرام، والمعنى يحرم عليهم الحرام، أي: يحذرهم منه و يأمرهم بالابتعاد عنه، وما حرمت علينا الشريعة شيئاً ينفعنا إطلاقاً، وإنما حرمت علينا ما يضر بأبداننا وما يضر بصحتنا وما يضر بحالنا ومآلنا.

الثاني: أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله، كالحيات والحشرات.

الثالث: ما كانوا يستحلونه من الميتة ومن الدم، ومن لحم الخنزير. ولا شك أن هذه خبائث، فالذي حرمه علينا ديننا هو من الخبائث فيه مضرة لأبداننا، وفيه هدم لصحتنا.

قوله سبحانه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمة والكسائي: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ

إِصْرَهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر آصارهم، ممدودة الألف على الجمع وفي هذا الإصر قولان للمفسرين:

الأول: أنه العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل، أن يعملوا بما في التوراة، كما هو قول ابن عباس.

الثاني: أن هذا الإصر هو التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت ومن أكل الشحوم والعروق، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب ويصبح وقد كتب على باب بيته إنك كفارته أن تنزع عينيك، فينزعهما، والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: ذكر الأغلال تمثيل ألا ترى أنك تقول: جعلت هذا طوقاً في عنقك وليس هناك طوق، إنما جعلت لزومه كالطوق والأغلال أنه كان عليهم ألا يقبل منهم في القتل دية، وألا يعملوا في السبت وأن يقرضوا ما أصابهم جلودهم من البول وهي أمور كتبوها على أنفسهم وجعلوها عليهم آصاراً، وأغلالاً.

قوله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني: آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-. ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ وروى أبان وعزروه بتخفيف الزاي،

وفي المعنى قولان:

الأول: نصره وأعانه، قاله مقاتل.

الثاني: عظموه، قاله ابن قتيبة. وعزر من كلمات الأضداد، ويعرف معناها بسياقها، فإذا قلت: عز القاضي الجرم عرفت أنها للتأديب، وإذا قلت: عزز الولد والده، تعرف أنها بمعنى التقدير والاحترام. فهنا عزروه أي أن الصحابة عظموا نبهم -صلى الله عليه وسلم- وقدروه حق قدره، وكذلك نحن تبع لهم نقدر نبينا -صلى الله عليه وسلم- ونعرف قدره. والنور الذي أنزل معه هو القرآن، سماه نورًا لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون.

وفي قوله ﴿مَعَهُ﴾ قولان:

الأول: بمعنى عليه.

الثاني: بمعنى أنزل في زمانه. قال قتادة: أما نصره فقد سبقتم إليه، ولكن خيركم من آمن به، واتبع النور الذي أنزل معه، نصره -صلى الله عليه وسلم- في حياته كان الصحابة يقدونه بأنفسهم وبأموالهم وأسرهم ونحن الآن تبع لهم بعد وفاته -صلى الله عليه وسلم-، ننصر سنته، ونقدرها ونعمل بها فهو -صلى الله عليه وسلم- في سنته كأنه بيننا كما قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. إن لم يكن بيننا -صلى الله عليه وسلم- بجسده الطاهر فهو بيننا بسنته -صلى الله عليه وسلم-، وهو -صلى الله عليه وسلم- قد بلغ البلاغ المبين، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح هذه الأمة، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وحزاه الله عنا خير ما جرى به نبيا عن أمته، فقد بلغ صحابته من بعده، رضوان الله عليهم نقلوا هذا النور إلينا غصًا طريًا كما نزل على قلب نبينا -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عن رب العزة، فها هو القرآن بيننا كاملاً لم ينقص، وها هي سنة نبينا -صلى الله عليه وسلم- نقلها أصحابه العدول الأمانة إلينا، ثم التابعون بعدهم نقلوها إلى من بعدهم، ونحن نرثها بعدهم وننقلها بأمانة كما وصلت إليها إلى من بعدنا.

قوله سبحانه ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ في الكلمات هنا قولان:

الأول: أنها القرآن قاله ابن عباس. وقال قتادة كلماته آياته.

الثاني: أنها عيسى بن مريم كما قاله مجاهد والسدي.

قوله جل وعلا ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾

في ذلك قولان:

الأول: يدعون إلى الحق.

الثاني: يعملون به.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وهذا عدل مع هؤلاء مع بني إسرائيل الذين ناصبوا نبينا العدواة والذين خططوا لؤاد هذه الرسالة، ولا زال شرهم مستطيرًا إلى وقتنا هذا، فهم منذ بزغ فجر هذا الدين، وهم واقفون له بالعداء وهم يخططون لؤاده، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون ولو كره الكافرون، ومن عدل الإسلام مع هؤلاء أنه لم يغمطهم أقدارهم ولم يغمطهم أوصافهم التي كانت لهم إبان كانوا على المحجة أبان كانوا مع موسى إبان كانوا عاملين بالشرعة التي جاء بها نبهم إليهم، يقول سبحانه ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: أن منهم

من هو قائم بالحق ويعدل به، أي: قبل أن تنسخ هذه الرسالة. أما بعد أن نسختها رسالة الإسلام فلا يحق لأي صاحب دين سبق الإسلام إلا أن يدين بالإسلام وأن يصدق برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويؤمن به.

قوله ﴿وَبِهِ يَغْدِلُونَ﴾ قال الزجاج: وبالحق يحكمون. وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال:

الأول: أن هؤلاء قوم لم تبلغهم دعوة الإسلام، قاله ابن عباس. يعني باقون على ديانتهم ولم يصل إليهم الإسلام.

الثاني: أنهم من آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، مثل بن سلام وأصحابه قاله ابن السائب.

الثالث: أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم، ذكره الماوردي، وهؤلاء الذين كانوا على الحق والله أعلم، هم الذين كانوا على هذه الديانة قبل نزول هذا القرآن على محمد -صلى الله عليه وسلم-، وقبل بعثته -صلى الله عليه وسلم-، فكان الحق في الدين الذي معهم وليس حقاً سواه، لكن بعد بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وبعد أن نزل القرآن وهذا التشريع فليس لأحد أي كان صاحب ملة سابقة أن يبقى على ما هو عليه، وما هو عليه منسوخة بالقرآن، ونبوة نبيه ورسالته منسوخة برسالة الإسلام، ولا يقبل الله ديناً سوى الإسلام، حتى الأنبياء السابقون لو بعث منهم أحد الآن لآمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وفي رحلة الإسراء والمعراج كان هو إمامهم -صلى الله عليه وسلم-. وهذا دليلاً على أنه هو خاتمهم، وأنه هو سيدهم وأفضلهم، وأن الدين هو الدين الخاتم لهذه الأديان، وأنه هو المهيمن عليها، وأنه هو الناسخ لها.

وإلى هنا ننتهي من هذا الدرس وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الثالثة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب أخواتي الطالبات مع الدرس الثالث والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل قوم موسى، يقول: فرقناهم. ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ وهم أولاد يعقوب وكانوا اثنتي عشرة ولدا، فولد لكل واحد منهم سبطاً قال الفراء: وإنما قال: اثنتي عشرة، والسبط ذكر لأن بعده أمماً، فذهب بالتانيث إلى الأمم، ولو كان اثنتي عشر لتذكير السبط كان جائزاً، قال الزجاج: المعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة، ﴿أَسْبَاطًا﴾ صفة للفرقة، كأنه يقول: جعلناهم أسباطاً وفرقناهم أسباطاً، فيكون أسباطاً بدلاً من اثنتي عشرة، وأمماً من صفة أسباط، والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق، وقال أبو عبيدة: الأسباط قبائل بني إسرائيل واحدهم سبط، ويقال: من أي سبط أنت. أي: من أي قبيلة وجنس.

قوله ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ قال ابن قتيبة: انفجر، يقال: انبجس الماء كما يقال تفجر. قوله ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بالتاء مهموزة على الجمع، وقرأ أبو عمرو نغفر لكم خطاياكم مثل قضايكم، ولا تاء فيها وقرأ نافع تغفر بالتاء مضمومة، خطيأتكم بالهمزة وضم التاء على الجمع، ووافقه ابن عامر في تغفر بالتاء المضمومة لكنه قرأها خطيأتكم على التوحيد فيها.

قوله سبحانه ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

هذا حال بني إسرائيل حالهم أنهم تشتتوا في الأرض وأنهم تفرقوا، وأنهم لم يكن لهم اجتماع بعد نبينهم، وإنما صاروا متفرقين، ووقع عليهم الذل والصغار من كل من شاركوه في مسكن أو شاركوه في طريق أو بلد؛ لأن العناد والشر مستأصل بهم، ولم يكن لهم أمن، ولم يكن لهم استقرار إلا تحت ظل الحكم الإسلامي فإنهم بقى لهم مكانة وبقي لهم كينونة، وإلا فإن الأمم التي ساكنوها ضاقت بهم ذرعاً، وحاولت التخلص منهم وكانوا يعضونهم، ويكرهونهم لأوصافهم المتعبة ولأوصافهم القبيحة، كان كل يكره العيش معهم، وهم كما حالهم مع موسى قد أتعبوه وشقوا عليه، وكثر منهم العناد، والشقاق، وهم أهل شقاق وعناد، خبث طوية؛ فلذلك كل يكره هؤلاء اليهود، ولم يكن لهم أن تقوم لهم قائمة إلا في ظل تحاذل المسلمين، وإلا لو كنا كلمة واحدة لما كان لهم أن يقيموا دولة في خاصرة العالم الإسلامي وفي أرض المقدسة، وها هم الآن يحاولون هدم المسجد الأقصى ولكن أين في المسلمين حركة ونجدة.

فهؤلاء الذين تفرقوا وكانوا على هذه الحال وأعطوا من النعم ما أعطوا إلا أنهم لم يعملوا بهذه في الطاعة ولم يشكروها.

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ اسأل هؤلاء عن ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ انظر إلى تحايلهم على أحكام الله وحدوده، لما منعوا من صيد يوم السبت ما كان منهم إلا أن وضعوا الشباك في الأيام الأخرى حتى تمسك لهم هذا، فإذا انتهى اليوم أتوا وأخذوا ما صادته الشباك، وهذا تحايل على الحدود الشرعية، ﴿أَسْأَلُهُمْ﴾ يعني: اسأل أسباط اليهود، وهو سؤال تقرير وتوبيخ، يقرهم على قسمة كفرهم وعلى قسمة عنادهم، وعلى قسمة تحايلهم على الشريعة، ومخالفة أسلافهم الأنبياء، ويخبرهم بما لا يعلم إلا بوحى، وقد يكونوا أخفوا هذا عن العرب الأميين، أخفوا عنهم ما كان منهم من عناد وجحود، ولكن الله أظهر هذا في القرآن، فصارت أمور لا يستطيعون إخفائها.

وفي القرية المشار إليها وتحديد أفعال للمفسرين خمسة:

الأول: أنها أيلة، رواه مرة عن ابن مسعود وأبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير، وقتادة والسدي.

الثاني: مدين، كما رواه عكرمة عن ابن عباس.

الثالث: ساحل مدين، روي عن قتادة.

الرابع: طبرية، كما قاله الزهري.

الخامس: قرية يقال لها مقنى بين مدين وعينونى قاله ابن زيد.

ومعنى حاضرة البحر أي: مجاورة البحر وبقرية وعلى شاطئه. ﴿إِذْ يَغْدُونَ﴾ قال الزجاج: أي يظلمون، يقال: عدا فلان يعدو عدواً وعداء، وعدواً وعدواً. إذا ظلم، وموضع إذ نصب والمعنى: سلهم عن وقت عدوهم في السبت إذ تأتيتهم حيثأنهم في موضع نصب أيضاً بـيعدون، والمعنى: سلهم إذ عدوا في وقت الإتيان. ﴿شُرْعًا﴾ أي ظاهرة، ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي: مثل الاختبار الشديد نبلوهم بفسقهم. ويحتمل أن يكون المعنى لا يسيبتون لا تأتيتهم شرعاً، ويكون نبلوهم مستأنفاً، وقرأ الحسن والأعمش وأبان والمفضل عن عاصم، يسيبتون بضم التاء، هؤلاء القوم الذين حرم عليهم الصيد في يوم معين، ثم إن الله ابتلاهم واختبرهم أن يجدوا في هذا اليوم الذي يحوم عليهم الصيد فيه أن يجدوا السمك والحيتان طافية يرون أطرافها في أعلى الماء، وقرية التناول منهم، وهذا اختبار وامتحان لهم، فما كان منهم إلا أن نصبوا الشباك لها ثم جاء اليوم الذي يليه فأخذوها، وهكذا تحايلوا على شرع الله، وهكذا لم يصبروا على التحمل ولكنهم اعتدوا على أمر الله سبحانه.

ثم قال سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: افترق أهل القرية ثلاث فرق: فرقة صادت وأكلت، والصيد حرم عليها في ذلك اليوم، وفرقة نحت وزجرت: نحت هؤلاء وقالت حرام لا تفعلونه، إياكم أن تفعلوا. وفرقة ثالثة أمسكت عن الصيد، وقالت للفرقة الناهية، لما تعظون قوماً الله مهلكهم، يعني: هي لم تصد ولكنها لم تنه عن المنكر. فقالت الفرقة

الناهية: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي معذرة رفعًا، أي: موعظتنا إياهم معذرة، والمعنى: أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء عذرًا إلى الله.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿مَعْدِرَةٌ﴾ نصبًا، وذلك على معنى نعتذر، معذرة ولعلهم يتقون أي: وجائز أن ينتفعوا بالموعظة فيتركوا المعصية وهكذا أيها الإخوة نفهم أن الأمر بالمعروف، وأن النهي عن المنكر شريعة رابانية كانت في الأنبياء قبلنا وأتباعهم على دينهم وهي في شريعتنا ظاهرة واضحة. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو صمام الأمان للمجتمع وهو شعيرة من شعائر الإسلام، وبه تحصل الخيرية لهذه الأمة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وهو دأب الصالحين، وهو دأب الأنبياء والمرسلين.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَحْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ الأمر بالمعروف والناهون عن المنكر حصلت لهم النجاة. ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يقول جل وعلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به، ﴿أَجْنَحْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الناهون عن المنكر، والذين ظلموا هم المعتدون في السبت.

قوله ﴿بِعَدَابٍ بَيِّسٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بئيس على وزن فاعيل، فالهمزة بين الباء والياء وقرأ نافع بيس بكسر الباء من غير همز، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه همز، وروى خارجة عن نافع بيس بفتح الباء من غير همز، على وزن فعل، وروى أبو بكر عن عاصم بئيس على وزن فاعيل، وقرأ ابن عباس وأبو رزين وأيوب بياس، على وزن فعال، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومعاذ القارئ بئس بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن نعل، وقرأ الضحاك وعكرمة بيس بتشديد الياء، وقرأ أبو العالية، وأبو مجيز بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء، ولا ألف على وزن فاعيل وقرأ أبو المتوكل وأبو رجا باس بألف ومدة بعد الباء، وبهمزة مكسورة بوزن فاعل قال أبو عبيدة: البئيس الشديد، وأنشد:

حنفًا علي وما ترى	لي فيهم أثرا بيئسا
-------------------	--------------------

قال الزجاج: بأس بيأس بأسًا، والعاقبة هو الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة، وقال ابن جرير: فلما عتوا، أي: لما تمردوا فيما نهو عنه. وكان الحسن البصري يقول: والله لا لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين.

قوله سبحانه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ في معناها أقوال للمفسرين أربعة:

الأول: وإذ علم، قاله الحسن وابن قتبية، وقاله هو من آذنتك بالأمر أي: أعلمتك. وقال: أعلم غيره، وقال ابن الأنباري: تأذن بمعنى آذن، كما يقال: تعلم أن فلانًا قائم أي: اعلم. وقال أبو سليمان الدمشقي: أي أعلم علماء بني إسرائيل.

الثاني: حكم قاله عطاء.

الثالث: وعد قاله قطرب.

الرابع: تألى قاله الزجاج.

قوله ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود، وقال مجاهد: على اليهود والنصارى بمعاصيهم. ﴿مَنْ يَسُوءُهُمْ﴾ أي: يولهم سوء العذاب. وفي المبعوث عليهم قولان:

الأول: أنه محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأمثه قاله ابن عباس.

الثاني: العرب كانوا يجيبونهم الخراج، قاله سعيد بن جبير. قال: ولم يجب الخراج بني قط إلا موسى جباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-. وقال السدي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم، وفي ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أربعة أقوال:

الأول: أخذ الجزية رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: المسكنة والجزية، رواه العوفي عن ابن عباس.

الثالث: الخراج رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير.

الرابع: أنه القتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

وهؤلاء اليهود شرار خلق الله يسامون سوء العذاب في الدنيا كلها ولم يكن لهم استقرار حتى كان في الامه هذا الضعف الذي تعيشه وكان الإسلام أعدل وأرحم هؤلاء اليهود من غيره من الأديان الذي أذاقهم الحسف، والذلة، وأنزل بهم الويلات ولاقوا مر العيش فيه وهم يعرفون ذلك، ولكنهم يناصروننا العدا وحدا من سائر أمم الأرض، والله وحده هو المستعان.

قوله سبحانه ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قوله ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّا﴾ فرقناهم فرقا قال ابن عباس: هم اليهود ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة، وقال مقاتل: هم بنو إسرائيل، وقيل معناه: شتات أمرهم وافتراق كلمتهم، منهم الصالحون وهم المؤمنون بنبيهم وبعيسى وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- ممن آمن من أهل الكتاب، ومنهم دون ذلك وهم الكفار. قال ابن جرير: إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يبعث عيسى وقبل ارتدادهم.

قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبرناهم بالحسنات وهي الخير والخصب والعافية، والسيئات: وهي الجذب والشر والشدائد، فالحسنات والسيئات تحث على الطاعة، أما النعم فلطلب الازدياد منها وخوف زوالها والنقم فلكشفها وللسلامة منها لعلهم يرجعون، أي: لكي يتوبوا وهذا الخبر عن أهل الكتاب في أن الله سبحانه ابتلاهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، إنما هي أمة قد مضت الذين وقع عليهم ما وقع، وإنما هو خطاب لنا وللمكلفين غيرنا أن لا نحذو حذوهم وألا نسير على منهجهم فإننا إن كنا كما كانوا، أو كما حصل لهم فإن العقاب سيأتينا كما أتاهم، فهو تذكير لنا أن نشكر النعم، وأن نصبر على ما يصيبنا من البلوى، وأن نحتسب ذلك عند الله، فما عند الله خير وأبقى وأن نشكر نعم الله وأن نجعلها في طاعته، وأن نبتعد عن معاصيه، فإنه ليس بين الله ولا بين خلقه نسباً، وإن الله يغار على

حدوده فيعاقب من يجترئ عليها، وهكذا عاقب هؤلاء فكانوا يعيشون في الآفاق فهم شذاذ الآفاق.
تفرقوا مزعجاً وفرقاً، وكل بلد صار منهم بقية، وحالهم بالحال التي تعرف، ولم يكن لهم ظهور إلا يوم أن ضعف حال
المسلمين اليوم، ولما يعودوا إلى رشدهم، ويعود لهم سؤددهم، فإنه لن يكون هؤلاء بقية، ونعوذ بالله من شؤم المعصية، فإن
شؤمها يقضي على مستقبل الأمة، وحاضرها، نسأل الله السلامة من المعاصي كلها ما ظهر منها وما بطن ونسأله الأمن
والأمان لنا وللمسلمين وأن يوفقنا إلى كل خير.
وإلى هنا نأتي إلى نهاية هذا الدرس وصلى الله على نبينا محمد

المحاضرة الرابع والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب أخواقي الطالبات مع الدرس الرابع والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الذين جاء وصفهم في الآيات السابقة، ﴿خَلَفَ﴾ قرأ الجرمي والجاحدي خلف بفتح اللام، قال أبو عبيدة الخلف والخلف بمعنى واحد، وقوم يجعلون الحرك للام للصالح والمسكن لغير الصالح، وقال ابن قتيبة: الخلف الرديء من الناس ومن الكلام، يقال هذا خلف من القول، وقال ابن الأنباري: أكثر ما تستعمل العرب، الخلف بإسكان اللام في الرديء المذموم، وتفتح اللام في الفاضل الممدوح خلف، وقد يقع الخلف على الممدوح والخلف على المذموم، بمعنى: أنهما يستعملان هذا وهذا غير أن المختار هو الأول، أن الخلف للممدوح وأن الخلف للمذموم، إذ ما تركه خلفك هو ما لا تهتم به، ومنه ما يخلفه الإنسان بعده عندما ينزل منزلاً ثم يسير ويتركه، فيترك عليه مخلفات من هذا الخلف الذي تركه خلفه، فلا قيمة فيه، ولو كان له قيمة لما تركه خلفه، وفي المراد بهذا الخلف ثلاثة أقوال:

الأول: أنهم اليهود، قاله ابن عباس وابن زيد.

الثاني: أنهم النصارى.

الثالث: أن الخلف من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - . والقولان عن مجاهد، فإن قيل الخلف واحد فكيف قال:

﴿يَأْخُذُونَ﴾ ، وكذلك قال في سورة مريم ﴿أَضَاعُوا﴾ فقد ذكر ابن الأنباري عن ذلك جوابين:

الأول: أن الخلف جمع خالف، كما أن الركب جمع راكب، وكما أن الشرب جمع شارب.

الثاني: أن الخلف مصدر، يكون للإثنين، والجميع والمذكر والمؤنث.

قوله ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف، فيخرج في الكتاب المقصود هنا أقوال

ثلاث:

الأول: أن المقصود بالكتاب هنا التوراة.

الثاني: أنه الإنجيل.

الثالث: القرآن. ولا شك أنها كتب منزلة ولا يصح ترك الإنجيل في وقته قبل أن ينسخ، ولا ترك التوراة قبله، والآن

جاء القرآن فهو مهيم عليها وناسخ لها، فلا يصح تركه، وترك العمل به.

قوله ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: هذه الدنيا وهو ما يعرض لهم منها، وقيل: سماه عرضاً لقلة بقاءه. قال ابن

عباس: يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام، وقيل: هو الرشوة في الحكم، وكم يقع هذا الخلف في جميع الأمم، ومع أتباع، أو مع من يبعث فيهم الأنبياء يوجد الصادقون المخلصون ويوجد الخلف الذين لا يعملون بالشريعة النازلة عليهم، ولكل شريعة فيها صادق ومخلص، وفيها خلف يتكون الكتاب ويأخذون بالقرب العاجل يأخذون بالدنيا الفانية ويقدمونها على الآخرة الباقية، يأخذون بشهواتهم وما تمليه عليهم نفوسهم، ويجترئون على المحرمات ولا يطيقون صبراً على تركها ولا صبراً على فعل الطاعات.

وقوله ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: يأخذون هذه الدنيا الفانية ويأخذون الزائل، ويتركون الباقي، المقصود

بالأدنى هنا قولان:

الأول: من الدنو.

الثاني: من الدناءة.

ولا شك أن هذا القريب من الدنو، ولا شك أن الذي يأخذ بالحقير ويترك الغالي النفيس أنه فيه شيء من الدناءة. ثم يقولون ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ والمقصود بذلك أن المعنى إنا لا نأخذ، وهكذا يعملون الباطل، ويعملون المحرم، ثم يزعمون أنه سيغفر لهم، وأنه لا ذنب فيه، فإن الله يغفره ويؤملون الرحمة، ويؤملون المغفرة، وهم مصرون على الذنوب، ولا ذنب يعني: لا يوجد أو لا يبقى هذا الذنب مع الاستغفار كما أنه وإن كان صغيراً لا يبقى صغيراً مع الإصرار، نعوذ بالله من الإصرار على الذنوب.

وفي قوله ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: أن المعنى: لا يشبعهم شيء فهم يأخذون لغير حاجة، قاله الحسن، وقيل: إنهم أهل إصرار على الذنوب فيمسكون بهذا الذنب ويوعظون عن الخير، ولو عرض لهم أمر آخر وإن كان حقيراً، فإنهم يسرون إليه، ويتركون ما أمروا به، قال سبحانه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: وكذا الله عليهم في التوراة ألا يقولوا على الله إلا الحق فقالوا الباطل، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها، وليس في التوراة ميعاد للمغفرة مع الإصرار، بل وليس في غيرها، والذنوب التي يصر عليها الإنسان، ولا يستغفر منها كيف يرجو زوالها، وكيف يرجو غفرانها، هذا لا يكون وإنما يستغفر من ذنوبه ويسأل الله العفو والعافية، ويحبت إلى الله، ويبدل السيئات بالحسنات ويتصدق، ويخلص العمل، ويسأل الله بإخبات وبانكسار بين يديه أن يغفر له ذنوبه، أما أن يتبجح بالذنب ويعلن هذا الذنب فإنه واقع تحت طائلة (كل أمي معافي إلا المجاهرون) الذين يجاهرون بهذه الذنوب ويستمترون عليها ولا كأنهم فعلوا شيئاً، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يخاف من ذنبه ويراها كالجبل يخاف أن يسقط عليه، بينما المنافق لا يرى الذنب شيئاً وإنما يأتي الذنب تلو الذنب، وما كأن الذنب عنده إلا كذباب وقع أنفه فقال به هكذا، إلى هذه الدرجة، نسأل الله السلامة.

قوله سبحانه ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوف على أورشوا، والمعنى: قرعوه، فكأنه قال: خالفوا على علم، وهنا الطامة الكبرى، لما يكون هذا العاصي عاص على بصيرة يعلم أن هذا الذنب محرم، بل قد يحفظ الأدلة على تحريم هذا الذنب ويزيد الطين بلة أن يجاهر بهذا الذنب، وتزداد هذه الظلمات بعضها فوق بعض، إذا أصر على الذنب وجاهر به ودعا أيضاً إلى هذا الذنب هذه هي الطامة، أما أن يذنب الإنسان ويعلم أنه مذنب ويستغفر الله من ذنبه، ويستتر في هذا

الذنب ولا يجاهر به، وينهى عن هذا الذنب، لا مانع أن تنهى غيرك من هذا الذنب وإن كنت قد وقعت فيه، إذا لم يعظ العاصين من هو مذنّب، فمن يعظ العاصين بعد محمد -صلى الله عليه وسلم-، لا معصوم بعد المعصوم -صلى الله عليه وسلم-، كلنا أصحاب أخطاء وذنوب، ولكننا نستغفر الله ونتوب إليه، ونسأله ألا نكون ممن يصروا على الذنب وممن يجاهروا به؛ فضلاً عن أن ندعو إلى هذه الذنوب عياداً بالله من ذلك.

قال بعد ذلك ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: ما فيها من الثواب خير للذين يتقون أفلا يعقلون أن الباقي خير من الفاني، قرأ ابن عامر ونافع وحفص عن عاصم بالتاء، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقرأ الباقون بالياء يعقلون، الآخرة خير للذين يتقون، فهذه الدنيا ستمضي ومقامنا فيها قليل، وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، اسمعوا ما قال الله عن هؤلاء الذين ندموا يوم أن فات الندم فقليل لهم ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ حصل عندهم الشك، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أيضاً حصل عندهم الشك، ﴿فَأَسْأَلُ الْعَادِّينَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اسمعوا ما قال الله لهم تقريباً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لا لم يخلقنا عبثاً حاشاه، وتقدس سبحانه أن يخلق شيئاً عبثاً وإنما خلقنا لحكمة، هذه الحكمة منصوص عليها في قوله وهي الغاية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ فالآخرة خير للذين يتقون، خير من الدنيا وبهرجها وإنما ظهرت لنا بمظهر خادع، فإن المؤمن لا يخدع بزخارفها ولا يخدع بملذاتها، وإنما يراقب ربه جل وعلا، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وهكذا حال المؤمن في هذه الأحوال كلها.

قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يُؤَسِّسُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يُؤَسِّسُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿يُؤَسِّسُونَ﴾ وقرءوا ﴿وَلَا تُؤَسِّسُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ﴾ مخففة وقرأها أبو عمر بالتشديد، وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففهما ويقال: مسكت بالشيء وتمسكت به، واستمسكت به، وامتسكت به، وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب، الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه ومنهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا بما أنزل إليهم، فلما بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- آمنوا بمحمد وبما جاء به -صلى الله عليه وسلم-، قال ابن الأنباري: وخبر الذين إن وما بعده وله ضمير مقدر بعد المصلحين تأويله: والذين يمسكون بالكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم، ولهذا العلة وعدهم حفظ الأجر بشرط إذا كان منهم من لم يصلح قال: وقال بعض النحويين: المصلحون يرجعون إلى الدين وتخليص المعنى عنده، والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجرهم، فأظهرت كنياتهم بالمصلحين كما يقال: علي لقيت الكسائي وأبو سعيد رويت الخدري يراد لقيته ورويت عنه، قال الشاعر:

فيا رب ليلي أنت في كل موطن	وأنت الذي في رحمة الله أطمع
----------------------------	-----------------------------

أي: أراد في رحمته سبحانه وتعالى فأظهر ضمير الهاء.

قوله سبحانه ﴿وَإِذْ تَتَّقْنَا الْجَبَلَ فَوْفَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

يبين جل وعلا ما حصل لهؤلاء من بني إسرائيل الذين شاقوا نبيهم والذين حصل منهم ما حصل من أمور كثيرة

كانت هي العناد، وكانت هي الشقاق، وجاءتهم الآيات الكثيرة على يدي نبيهم موسى كليم الرحمن ومع ذلك أتهم هذه الآيات المتوافرة الكثيرة، ولكنهم باقون في شقاقهم وفي عنادهم، وما أعظم تلك الآيات التي جاء بها موسى إليهم، وما أكثرها وأكثر تنوعها إلا أنهم باقون في شقاقهم وعنادهم.

يقول سبحانه ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: واذكر لهم إذ نتقنا الجبل أي: رفعناه فوقهم، قال مجاهد: أخرج الجبل من الأرض ورفع فوقهم كالظلة، فقيل لهم: لتؤمنن بالله، أو ليقعن عليكم هذا الجبل، وقال قتادة: نزلوا في أصل جبل فرفع فوقهم فقال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم.

قول ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ وَآلَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل: إن الظن هنا هو الظن المعروف، وقيل: إنه بمعنى اليقين، على المعنى الأول: بمعنى شكوا، والثاني بمعنى تيقنوا.

وهكذا حال هؤلاء لا يؤمنون مع توافر الآيات التي جاء بها نبيهم إليهم وإن موسى عليه السلام أبلى بلاء حسناً في بني إسرائيل وبذل جهده قدر طاقته وصبر على أذاهم وتحمل ولكنهم لم يزدتهم هذا إلا عناداً وإلا إصراراً على الذنب وقصة موسى التي نحن الآن في صدد الكلام عنها هي القصة، أو هي الخبر السادس من أخبار الأنبياء الذين ورد ذكرهم في هذه السورة، وفيها من الإيضاح والبيان ما لم يذكر في غيرها من قصص القرآن؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات الأنبياء السابقين، وجعل قوم فرعون الذين أرسل إليهم كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام، كما أن موسى أرسل أيضاً لغير قومه، أما الأنبياء السابقون فإنهم أرسلوا لأقوامهم.

وهذا تلخيص لقصة موسى مع قومه التي نحن في صددتها الآن وقد ذكر الله اسم موسى في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة، وله قصص كثيرة مثيرة عجيبة، منذ بداية ولادته حينما كان جماعة فرعون يقتلون أولاد بني إسرائيل ويشاء الله أن تلده أمه في السنة التي يقتل فيها الذكور فألقته أمه خوفاً عليه في صندوق في اليم، فيما أوحى الله إليها، ثم رده الله إليها في قصة معروفة في القرآن، فهذه قصته مع أمه ومع أخته في سورتي القصص وطه، ثم قصة خروجه من مصر إلى أرض مدين، وهو شاب بسبب قتله مصرياً إغاثة لغيره، وقصته المذكورة في سورة القصص، وفي سورة طه أيضاً ثم سقايته ماشية لابنتي الرجل الصالح كما في سورة القصص ثم مصاهرة هذا الرجل الصالح، وقيل إنه شعيب، ثم رعيه ماشية شعيب مهراً لابنته عشر سنين بالوادي المقدس طوى، ثم بعثته عليه الصلاة والسلام؛ بينما ذهب لإتيان بأهله بنار للاستدفاء فيها وذلك في سورة الإسراء وفي سورة طه، وفي سورة القصص، وفي سورة الفرقان، وفي سورة الشعراء، وفي سورة النمل، والسجدة، والنازعات، ثم عودته عليه الصلاة والسلام إلى مصر مع أخيه هارون ودعوته فرعون إلى الإيمان برسالته، وذلك في سورة الأعراف، والشعراء، ثم محاروته فرعون في ربوبيته، وادعائه الربوبية، وإظهاره الآيات البينات، الدالة على صدق نبوته كما في سورة طه، والشعراء، وموقف فرعون الطاغية بتجاهل ألوهية الله وادعائه الألوهية لنفسه وأمره ببناء صرح يصعد به إلى السماء كما في سورة القصص، وفي سورة غافر التي قال الله فيها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّه كاذباً﴾ وسيأتي إكمال لتلخيص قصة موسى مع قومه في الدرس التالي إن شاء الله وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المحاضرة الخامسة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب، أخواتي الطالبات مع الدرس الخامس والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ولا زال الحديث متواصلًا عما حدث مع موسى وقومه، أن القرآن استفاض بذكر موسى عليه الصلاة والسلام، ثم محاورة فرعون في ربوبية الله وإظهاره الآيات البينات الدالة على صدق نبوته، وقد جاء هذا مفصلاً في سورة طه والشعراء، وموقف فرعون الطاغية بتجاهل أولهوية الله وادعائه الألوهية وأمره ببناء صرح يصعد به إلى السماء كما جاء في سورة القصص، وغافر التي قال الله فيها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ *

أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ وجاء إظهار معجزتي العصا واليد أمام فرعون في سورة الأعراف، ويونس، طه، والشعراء، ووصف الله رد فعل فرعون وقومه وتماديهم في الضلال وإصرارهم على الكفر كما في سورة الأعراف معنا وكما في غافر، واثمار آل فرعون بموسى لقتله، ودفاع مؤمن عنه، كما في سورة غافر، واستخفاف فرعون بموسى كما في الزخرف والنازعات، وكانت آيات العذاب التسع لفرعون وقومه لما كذبوا موسى هي العقاب الفاصل وتلك الآيات هي: الجذب أو السنون، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، و الضفادع، والدم.

أما العصا واليد، وخلق البحر، وانبحاس الماء لبني إسرائيل فكانت معجزات لموسى عليه الصلاة والسلام، أما الآيات التسع فهي مذكورة في سورة الأعراف وفي سورة الإسراء وطه، والنمل، القصص، والزخرف، والقمر، والنازعات. أما إغراق فرعون وملائه في البحر ونهايتهم، فإن ذلك في سورة الأعراف، ويونس، والإسراء، وطه، الشعراء، والقصص، والزخرف، والدخان، والذاريات.

أما عقاب فرعون وقومه في الآخرة ففيه عبرة لكل من ادعى الألوهية وتغطرس عن قبول دعوة الأنبياء، وهو مذكور في سورة هود، والقصص، وغافر، والدخان. وقد قلد بنو إسرائيل في عهد موسى الوثنية القديمة الموجودة ولم يؤمن بموسى إلا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون أن يفتنهم عن دينهم، وأن يردهم إلى الوثنية، كما قال جل وعلا ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ وطلبوا من موسى حينما رأوا عباد الأصنام أن يتخذ لهم إله كما لهؤلاء القوم آلهة، وكذلك طلبوا الاستبدال بالمن والسلوى الحبوب والبصل والثوم والبقول، وذلك مذكور في سورة البقرة ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وفي سورة الأعراف ﴿اجْعَلْ لَنَا إلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وضرب الحجر وانفجار العيون الاثنتي عشرة في سورة الأعراف وإنزال المن والسلوى كما في سورة طه، ثم ذهب موسى تاركًا بني إسرائيل لميقات ربه، وكتب له الألواح المتضمنة الوصايا التي طلب إلى بني إسرائيل العمل بها، وهذا مذكور في السورة معنا ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ وفي أثناء غيبة موسى في جبل الطور اتخذ السامري عجلاً إلهًا لبني إسرائيل يعبدونه، صنعه من ذهب، بعد أن جمعه من حلي النساء وجعله بفعل تأثير الرياح والرمال أو أثر قدم فرس جبريل ذا خوار أي: صوت كصوت الثور، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ولم يفلح هارون في ردهم عن عبادة العجل، بل عجز عنهم، ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ

عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى).

وبعد عودة موسى غضب على أخيه هارون وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه وكان في موسى حدة، فاعتذر إليه هارون بأنه بذل أقصى جهده، ثم عاتب موسى، السامري، فقال السامري ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ كما جاء في طه، فعاقبه بالطرده والتشرد، وأن يقول في حياته: لا مساس، وقصة عبادة العجل مذكورة في البقرة، والأعراف، وطه.

ثم أمر الله بني إسرائيل على لسان موسى بدخول الأرض المقدسة وهي في فلسطين أرض الموعد، فتمردوا فحرمت عليهم، وتاهوا في الأرض أربعين سنة يعيشون في البرية، من عهد خروجهم من مصر إلى أن مات موسى عليه الصلاة والسلام، وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحا وما حولها أربعين سنة، كما جاء في بعض الأقوال من المفسرين. وتلك القصة مذكورة في سورة المائدة، وفي صحراء التيه ذكر الله تعالى في سورتي البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، أو أيقنوا ذلك، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة، بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف.

وقصة نطق الجبل مذكورة في البقرة والأعراف، وبالرغم من أعجوبة قصة البقرة التي ذكره الله فإن بني إسرائيل لم يتعظوا بما وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة بل هي أشد ولم تغلح مواعظ موسى فيهم، ولا نصحه لهم، وله - عليه الصلاة والسلام - مواقف قوية مع قارون الثري الطاغية، وقد ذكرت قصته في سورة القصص، كما ذكر مآل طغيانه بخسف الأرض به وبيداره، وإبادة أعداء موسى المقدر عددهم بالمئات.

ويلاحظ أن موسى أودى من بني إسرائيل وأظهر الله براءته من عيب اتهموه به وهو الأذرة، ورم في الخصية أو البرص، وذلك مذکور في سورة الأحزاب والصف، ولما رأى بنو إسرائيل اقترافهم الإثم الكبير بعبادة العجل اختار موسى من قومه سبعين رجلاً يذهبون معه إلى الجبل الذي اعتاد مناجاة الله فيه، وهو جبل الطور؛ ليقدموا الطاعة لله، ويندموا على ما اقترفوا من الآثام، ويتوبوا من عبادة العجل، فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله، عاد جماعة منهم إلى التمرد والعصيان، ولم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذي يكلم موسى، وأنه هو الذي أعطاه التوراة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ينظر بعضهم إلى بعض، ثم بعثهم الله من بعد موته، بعد أن تضرع موسى وتذلل لله، وطلب من الله العفو عما صدر من سفائهم، والقصة مذكورة في سورتي البقرة والأعراف.

ولموسى قصة أيضاً مع العبد الصالح الخضر كما يقال أنه الخضر مذكورة في سورة الكهف، وتكرر في القرآن تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم، مثل آيات سورة البقرة وسورة الأعراف وإبراهيم، وقد مات هارون قبل موسى ثم مات موسى بعده، وبعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل يوشع، ثم أمرهم الله أن يدخلوا مدينة بفلسطين هي بيت المقدس، ذلك بأن يدخلوا باب المدينة سجداً خاشعين، متذللين لله سبحانه، وأن يقولوا حطة، أي: يا ربنا حط عن خطايانا؛ فدخلوا ودخلوا على الهيئة التي أمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب، وهذه القصة مذكورة في البقرة، والأعراف، وأثنى الله على موسى وهارون في سورة مريم، وفي سورة الصافات، وغافر.

ويستفاد من قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - مع قومه فوائد كثيرة جداً منها:

أن شريعة موسى في أصلها الموحى به كشرعية الإسلام في الجملة، وأمه ذات تاريخ مليء بالاضطرابات والقلقل والأحداث العنيفة، كانت ذات سلطة أحياناً، وساهمت بشيء من المدنية، وكان لقصة موسى مع بني إسرائيل عبر وعظاته، أنقذ الله موسى من القتل وهو طفل رضيع، وألقته أمه في اليم، ثم رده الله إليها لإرضاعه وتلك عصمة الله ورعايته له، ورحمته بأمه، تربى موسى في قصور فرعون، وكان مؤمناً ونبياً من أولي العزم، وموسى السامري الذي تربى كان شقياً ابتدع عبادة العجل، وفي هجرة موسى وخروجه من أرض مصر بنصيحة رجل من أقصى المدينة بالابتعاد عنها كانت خيراً كلها؛ فإنه صاهر الرجل الصالح شعيب أوغيره، وأوحى الله إليه بالنبوة وكانت نصيحة الرجل له من تيسير الله له، وفضل الله عليه، لأنها كانت سبباً في نجاته وبعثته، وهكذا فإن من توكل على الله صانه وحماه، ويسر أموره ووفقه وهداه، ولا أثر لقوة البشر وتآمرهم على الحق ما دام الحق ملازماً بالعناية الإلهية؛ فإن بأس فرعون وملأه لم يلحق ضرراً بموسى، وانتظر إلى هذه المحاورة الحادة ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ فأجابه موسى بعد جدال كثير وصبر على الجدال بالباطل ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وفي ذلك من الفرج الإلهي ما يأتي بعد الشدة، ونصرة الحق تأتي بعد اشتداد الأزمة، فقد دافع رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه عن موسى، وحذر فرعون وآله بطش الله غير خائف ولا مبال به وبسلطته، ضارباً الأمثال بالأمم الخالية كما جاء في قول الله تعالى في سورة غافر ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ثم إنها إذا فاضت مشاعر الإيمان في النفس هانت أمامها كل الصعاب، فإن السحرة آمنوا برب موسى غير مبالين بفرعون وسطوته، والصبر مفتاح الفرج، والصبر حميد العاقبة، فإن بني إسرائيل صبروا على أذى فرعون بتقتيل الأبناء واستحياء النساء.

ثم أعقبهم الله الحسنى بما صبروا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وتعرضوا لهجوم الرومان فخرّبوا بيت المقدس فتركوا فلسطين ثم عادوا إليها بعد وفاة موسى وأسسوا مملكة أريحا واحتلوا جهات كثيرة، وبنوا فيها المصانع والحصون انتظاراً لخروج النبي الذي وعدوا به من العرب الإسماعيليين في يثرب، وأملاً في مؤازرتهم، فاقاموا على الطريق بين يثرب وفلسطين، وفيها من الدروس حلم موسى على قومه بني إسرائيل؛ فبالرغم من غضب الله عليهم بسبب عبادة العجل، وطلب شيوخهم الذين جاءوا للتوبة رؤية الله تعالى جهلاً منهم وتعتناً، فإن موسى تضرع إلى ربه طالباً العفو عن زلات سفهائهم قائلاً: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

وهكذا أيها الأخوة يتبين لنا من هذه القصة تلك الدروس والفوائد، قال جل وعلا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ دلت على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة يمتاز بها عن غيره؛ إذ لو لم يكن مختصاً بهذه الآية، لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

ودلت أيضاً على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ومعجزات متعددة قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول آياته العصا ثم اليد.

ودلت كذلك على أن فرعون وملأه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى فاستحقوا العقاب الشامل، وهو الإغراق

في البحر؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وأنهم وضعوا الإنكار في موضع الإقرار، ووضعوا الكفر موضع الإيمان؛ فكان ذلك ظلمًا منهم في تلك الآيات.

ودل قوله سبحانه عن موسى ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إثبات وجود الإله؛ لأن العالم كله محتاج إلى إله يوجده ويخلقه ويكون متصفًا بصفات، والعالم متصف بصفات الضعف والتغير، تجعله مفتقرًا إلى رب يريه وإلى رب يرزقه. قوله ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ يشير إلى أن الرسول لا يقول إلا الحق وأنه أمين على الوحي الذي جاء به، وإن طلب موسى -عليه الصلاة والسلام- إرسال شعب بني إسرائيل معه الذي رتبته على كونه رسولًا طلب ليس من السهل على حاكم تلييته؛ لاحتمال تكوين خصوم ضده من طريق تبليغهم الحكم الإلهي وإعدادهم لمجابهة عدوهم فرعون.

قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هي المعجزة القاهرة الظاهرة وقد طلب فرعون من موسى إظهار تلك المعجزة ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾ دليلًا على صدقه فيما يدعيه من الرسالة المرسل بها من الله، وكانت المعجزة قلب العصا ثعبانًا، وإظهار اليد البيضاء، اختار الطاغية الكافر فرعون وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة، وادعى كون موسى ساحرًا، فتشاور مع كبار رجال دولته، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة صعيد مصر المهرة وبين موسى وبعد جمع السحرة من أحياء مملكته وقيل إنهم يبلغون الأعداد الكثيرة، حتى أوصلوا بالآلاف، ﴿وَأُرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

قوله ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ وقوله ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ على أنه تعالى يجعل معجزة لكل نبي من جنس ما كان غالبًا على أهل ذلك الزمان، فلما كان السحر غالبًا على أهل زمان موسى -عليه الصلاة والسلام- كانت معجزة شبيهة بالسحر وإن كان مخالفًا للسحر في الحقيقة. ولما كان الطب غالبًا على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب، ولما كانت الفصاحة غالبية على أهل زمان محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت معجزته القرآن أبلغ الكلام من جنس الفصاحة.

دل قوله ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فقالوا: على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدًا ذليلاً، مهينًا، عاجزًا، وإلا لما احتاج الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه الصلاة والسلام، ودل أيضًا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان أو الأشياء، فلم يتمكنوا من قبل الحبال والعصي حيات فعلية، كما لم يتمكنوا من قلب التراب ذهبًا، وأن يجعلوا أنفسهم ملوكًا، ولو كانوا قادرين على ذلك لما احتاجوا إلى طلب الأجر من فرعون، ولا المال ولا القرب منه، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الحقائق وألا يغتر بكلمات أهل الباطل وأكاذيبهم.

قوله ﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلُكِينَ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، من قولهم تكون، تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل وهو نحن، وتعريف الخبر وهو الملوك بقصد كسب الشهرة، واجتذاب أنصار الناس، وقد جاراهم موسى في رغبتهم ازدياد لشأنهم، وقلة المبالاة بهم، وثقته بالتأييد من الله سبحانه، وأن معجزته لن يغلبها شيء.

ودل قوله ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ على أن السحر محظ التمويه، ولو أن السحر حقًا لكانوا قد سحروا قلوبهم، لا أعينهم، وكل ما في الأمر أنهم تخيلوا أحوالًا عجيبة، مع أن الأمر في الحقيقة خلاف ذلك.

ودل قوله ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ على أن العوام من الناس خافوا من حركات تلك الحبال والعصي، أما خوف موسى فليس كخوف العوام، وإنما لعله خاف من وقوع التأخير في ظهور حجته على سحرهم، وهو خوف طبيعي، السحر كما دلت الآية مجرد خيال وتمويه لا حقيقة فيه، لذا يسمى بالشعوذة ويسمى بالدجل، وهو إما أن يعتمد على بعض خواص المادة كتمدد الزئبق وغيره، الذي وضعه سحرة فرعون في حبالهم وعصيتهم، وإما أن يستعان فيه بخفة اليد في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعضها، وإما أن يلجأ فيه إلى تأثير النفس القوية في إرادة النفس الضعيفة، وقد يستعان حينئذ بأرواح الشياطين، ومنه من يسمى في عصرنا بهذه الأعمال السحرية التي يقومون بها، أو ما يلحقونه بالتنويم المغناطيسي. والفرق بين السحر والمعجزة أن المعجزة حقيقة تظهر على يد النبي والرسول، أما السحر فهو خيال يحدث على يد رجل فاسق، وإلى هنا أنتهي من هذا الملخص عن قصة موسى عليه الصلاة والسلام وما حصل بينه وبين الطاغية فرعون، وما حصل بعد ذلك بينه وبين بني إسرائيل وتعتهم وطلبهم للآيات ثم تكذيبهم بها، ثم بعد ذلك كيف أنهم يخرجون من مصيبة ويدخلون في أخرى وهكذا دواليك يبحثون عن العناد وعن الشقاق، وتعب معهم نبي الله موسى مع صبره عليهم، وجلده في ذلك، ولكن لتعت بني إسرائيل، ولحبهم للخديعة والمكر؛ فإنهم ما يخرجون من قضية إلا ويدخلون في قضية شائكة أخرى، ثم ابتلاهم الله بصنوف الابتلاءات عليهم يرجعون، وعلمهم يتوبون، ثم لا يذكرون بعد ذلك، ولا يرفعون.

وها هي هذه الأخلاق المتأصلة في بني إسرائيل، ها هي تمتد إلى أحفادهم إلى اليوم، وها هم باقون في عنادهم واستكبارهم ووقفهم ضد الحق وأهله، نسأل الله جل وعلا أن ينصر المسلمين في كل مكان، وأن يخذل أعداء الدين إنه على كل شيء قدير.

وإلى هنا ينتهي الدرس الخامس والعشرون.

المحاضرة السادسة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب أخواطي الطالبات مع الدرس السادس والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

قوله جل وعلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ روى ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فزئهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبل وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾) ومعنى الآية وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم، وهذا الحديث جاء في المسند وهو في مجمع الزوائد، ورجاله رجال الصحيح، وقد نقله ابن كثير في تفسيره ونسبه إلى أحمد، وإلى النسائي في كتاب التفسير من سننه، وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ فقلوه من ظهورهم بدل من بني آدم، وقيل: إنما قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم؛ لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم، لأنه قد علم أنهم بنوه، وقد أخرجوا من ظهوره.

قوله ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد، وقرأ نافع وأبو عمر وابن عامر ذرياتهم على الجمع، قال أبو علي: الذرية تكون جمعاً وتكون واحداً. وفي قوله ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ جاء في تفسيرها ثلاثة أقوال للمفسرين: الأول: أنه أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم، وهو مروي عن مقاتل. الثاني: أنه دلهم بخلقه على توحيده سبحانه، قال الزجاج. الثالث: أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير.

قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والمعنى: قال لهم: ألسنت بربكم وهذا سؤال تقرير، قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا، قال السدي: قوله ﴿شَهِدْنَا﴾ خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم، ويحسن الوقوف على قوله ﴿بَلَى﴾ لأن كلام الذرية قد انقطع، وزعم الكلبي وغيره أن الذرية لما قالت: بلى. قال الله للملائكة: اشهدوا، فقالوا: شهدنا. وروى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: جمعهم جميعاً فجعلهم أزواجاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم فقال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أنك إلهنا، قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع وأشهد عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، لم نعلم بهذا، وقال السدي: إجابته طائفة طائعين وطائفة كارهين، الله أعلم، وعلى أي حال كان هذا الإشهاد وكان هذا الرد، فإنه مركوز في فطر بني آدم، التوحيد لله سبحانه وتعالى كما قال في الحديث القدسي (خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين)، وكما قال صلى الله عليه وسلم: (كل ابن آدم يولد على الفطرة) فهنا هذه هي الفطرة التي ركزت في قلوب الخلق أن يتورعوا لله، وأن يتجهوا إلى الله في دعائهم.

قوله ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ قرأ أبو عمرو بالياء، وقرأ الباقون بالتاء، قال أبو علي: حجة أبو عمرو قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وقوله ﴿بَلَى﴾. وحجة من قرأ بالتاء أنه قد جرى في الكلام خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ ومعنى قوله

"يقولوا" أي: لئلا يقولوا ومثله ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ، أي: لئلا تميد بكم.

وفي قوله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ قولان:

الأول: أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار.

الثاني: أنه إشارة إلى معرفة الخالق سبحانه. قال المفسرون: وفي تفسير الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق واحتجاج عليهم؛ لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك، على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- الصادق، وإذا ثبت هذا بقول الصادق قام في النفوس مقام الذكر فالاحتجاج به قائم.

والأدلة على تفرد الله بالوحدانية وانفراده بالخلق والتقدير قائمة ماثلة أمام الأعين في هذا الكون العريض العظيم وفي خلقه العلوي والسفلي وفي اختلاف الليل والنهار، وفي تسخير الشمس والقمر، وفي أنفسنا آية تدل على أنه الواحد سبحانه، قال سبحانه ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾: هذه الحجج التي يحتج بها الكفرة قديماً وحديثاً هي مفندة بهذا، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أي: فاتبعناهم على مناهجهم على جهل منا بما يستحقه الله وهذه هي التبعية المقيتة، وهذا هو التقليد الأعمى أن يسير الإنسان خلف آباءه وخلف ما عليه مجتمعه ما داموا على الضلال، وما داموا على الكفر والفساد، فلا عذر له في ذلك أن يحتج بأنه وجد آباءه وأهله وعشيرته على هذا الأمر المنكر لا حجة بذلك إطلاقاً، فالله قد منحه العقل وقد منحه الإرادة، فلما يرفض العقل ولما يبيع الإرادة.

قوله ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ في دعواهم أن معك إله فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا إذ أذكركم سبحانه وأخبرهم أنه أخذ الميثاق على كل واحد منهم، وأنه قد ركز في نفوسهم وفي فطرتهم أن يتجهوا إليه سبحانه بعبادتهم وأن يقرؤا بوحدانيته، وجماعة أهل العلم على ما ذكرنا الآن من أنه استنطاق الذر، وركب فيهم عقولاً وأفهاماً عرفوا بها ما عرض عليهم، وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى أخذ الذرية إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً، ومعنى أشهدهم على أنفسهم اضطرابهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين على تفرده بالخلق والإيجاد، ولما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق كلما يرونه، وكلما يشاهدونه يدعوه إلى التصديق بوجوب الخالق وأحقية سبحانه بالألوهية كانوا بمنزلة الشاهدين وكانوا بمنزلة المشهدين على أنفسهم بصحة ذلك، كما قال تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يريد بهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة كما يقول الرجل: قد شهدت جوارحي أو قد شهدت جوارحي صدقك، ومن هذا الباب شهد الله أي: بين. وقد حكى نحو هذا القول عن ابن الأنباري وغيره، ولكن الأول أظهر لموافقته للآثار والأقوال عن بعض الصحابة والتابعين.

قوله ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

قوله ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي وكما بينا في أخذ الميثاق الآيات ليتدبرها العباد فيعملوا بموجبها و ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: وليرجعوا عما هم عليه من الكفر والعناد والشقاق إلى التوحيد والإقرار لله بالعبودية والألوهية.

قال بعد ذلك سبحانه ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَا نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ قال

سبحانه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: هذا نسق على ما قبله. والمعنى: اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، وفي ذلك أقوال للمفسرين:

الأول: أن هذا الرجل هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بعلام بن قير قاله ابن مسعود وابن عباس، بلعام بن باعورا، وروي عنه أنه بلعام بن باعور وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، و روى العوفي عن ابن عباس أن بعلما من أهل اليمن وروي عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبارين.

والثاني: أن هذا الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها أمية بن أبي الصلت، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب، وأبو روق، وزيد بن أسلم، وكان أمية قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا كما جاءت صفة هذا الرسول في الكتب السابقة، لكنه رجا أن يكون هو فلما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- حسده وكفر به.

الثالث: أنه أبو عامر الراهب، روى الشعبي عن ابن عباس قال: الأنصار تقول: هو الراهب الذي بني له مسجد الشقاق، وروي عن ابن المسيب نحوه.

الرابع: أنه كان رجل في بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد، وهذا الكلام أتلوه الآن مروي عن الإسرائيليات أخذه بعض الصحابة والتابعين عنهم فهذا القول الرابع أنه رجل كان في بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، وكانت سمجة ذميمة، فقالت له: ادع الله لي أن أكون أجمل امرأة في بني إسرائيل. فلما علمت أن ليس في بني إسرائيل مثلها رغبت عن زوجها وأرادت غيره، فلما رغبت عنه دعا الله أن يجعلها كلبة نباحة فذهبت منه فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس بنا على هذا صبر، إن صارت أمنا كلبة نباحة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها على الحال الذي كانت عليه أولا، فدعا الله فرجعت كما كانت. فذهبت الدعوات الثلاث. قال ذلك عكرمة عن ابن عباس. يقول: والذي روي لنا أن هذا الحديث وكانت سمجة بكسر الميم، وقد روى سيويوه عن العرب أنهم يقولون: رجل سمج بتسكين الميم، ولم يقولوا سمج بكسرهما.

الخامس: أنه غير المعين وإنما هو الرجل المنافق قاله الحسن.

السادس: أنه كل من انسلخ عن الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى، والحنفاء، قاله عكرمة.

والأول أشهر وعليه الأكثر، وعلى كل حال فإن هذه الأقوال في تحديد الذي أعطى الآيات فانسلخ منها كلها ليس عليها دليل، لا من القرآن في تحديد هذا الشخص ولم يأت عن صحيح السنة دليل على ذلك، وإنما هي محض اجتهادات وبعضها ملقط من كتب أهل الكتاب، ولا معول على كثير منها، ولكن المقصود في الآية معلوم ومعروف وهو العظة والعبرة، وهو أخذه كمثل ولا يعني تعيين من يكون هذا، فقد يوجد في كل الملل وقد يتكرر هذا النوع من هذا الصنف ممن يؤتى آيات الله ثم ينصرف عنها، ويخلد إلى الأرض، ويتبع هواه، فهو موجود في كل زمان ومكان، موجود هذا الصنف من الناس الذي يغرق في شهواته ويغرق في شبهاته، وهو يعلم أنه واقع في الحرام وواقع في الضلال ولكنه يستمر على ذلك، ويلهث وراء الحياة طالبا للمذاق، غير عابئ بالحرام الذي يقع فيه، نسأل الله العفو والعافية.

وقيل في الآيات التي أوتيها هذا الرجل على فرض تعيينه خمسة أقوال للمفسرين:

الأول: أن هذه الآيات التي أعطيتها هذا الرجل أنها اسم الله الأعظم، كما هو رواية علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس، وهو قول ابن جبير.

الثاني: أنها كتاب من كتب الله عز وجل كما رواه عكرمة عن ابن عباس قال: وهو بلعام أوتي كتاباً فانسلك منه، ثم إن هذا القول المنسوب لابن عباس أن هذا الرجل أوتي كتاباً من كتب الله أقول: هذا غير صحيح لأن الله لا يعطي كتاباً من كتبه المنزلة إلى النبي من أنبيائه، وانظروا إلى القول الثالث فهو أشد غرابة: يقولون إن هذا الرجل الذي مرته صفته أنفاً أنه الآيات، وأن الآيات التي أوتيتها أنها النبوة، فرشاه قومه على أن يسكت ففعل، وتركهم على ما هم عليه قاله مجاهد. وهذا والله لا يصح أن يسطر ولا أن يكتب كيف يكون هذا، ولكنه من طرقات وتخرصات بني إسرائيل الداخلة على تفسير كلام الله، والتي ينقلها كثير من المفسرين، وإنما نقلتها لكم؛ لكي تعرفوا هذا اللون من هذا التفسير الذي ينقله بعض المفسرين دون أن يعلق عليه.

الرابع: أن هذه الآيات حجج التوحيد وفهم أدلته.

الخامس: أن هذه الآيات هي العلم بكتب الله، والمشهور أنها العلم بكتب الله سبحانه، ثم إن هذا الرجل المشهور أنه بلعام، وكان من أمره على ما ذكره المفسرون، ولا يعنينا من يكون هذا الرجل؛ إنما يعنينا العبرة والعظة، والاهتداء بهذه الآيات أن يكون هذا النوع من الناس الذي يؤتى الحكمة ويؤتى العمل ويؤتى البصر بالأحكام ثم نسأل الله العفو والعافية ينكت على عقبيه ثم تنزل قدمه، ثم بعد ذلك يلغ في المعاصي والموبقات، فهذا يقع عليه هذا المثل المذكور معنا هنا.

قوله **﴿فَانْسَلْخْ مِنْهَا﴾** أي: خرج من العلم بها **﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾** قال ابن قتيبة: أتبعه أي: أدركه، يقال: اتبعت القوم إذا لحقتهم وتبعتهم وسرت في أثرهم، وقرأ طلحة بن مصرف فاتبعه بالتشديد وقال اليزيدي: أتبعه واتبعه لغتان، وكأن أتبعه خفيفة بمعنى قفاه، واتبعه مشددة حذا حذوه، ولا يجوز أن نقول أتبعناك وأنت تريد اتبعناك؛ لأن معناها اقتدينا بك، قال الزجاج: يقال: تبع الرجل الشيء، وأتبعه بمعنى واحد، قال الله **﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا﴾** ، وقال **﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾**. قوله **﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** فيه قولان:

الأول: أنه كان من الضالين، كما قاله مقاتل.

الثاني: أنه كان من الهالكين الفاسدين، قاله الزجاج.

ثم قال جل وعلا **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** قوله سبحانه **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾** في هاء الكناية هنا **﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾** قولان:

الأول: أنها تعود إلى الإنسان المذكور، وهو قول الجمهور، فيكون المعنى: ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه.

الثاني: أنها تعود إلى الكفر بالآيات فيكون المعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا، وهذا المعنى مروى عن مجاهد، وقال الزجاج: لو شئنا لحلنا بينه وبين المعصية، ولكنه سبحانه جعل لنا مشيئة وجعل لنا إرادة لكنها لا تنفك عن إرادة الله ومشيتته **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾** ركب فينا عقولاً نميز فيها الخير من الشر، وأرسل إلينا الرسل وأنزل إلينا الكتب،

فلا حجة لنا في ترك ذلك، ولا في العصيان.

قوله ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ركن إلى الدنيا وسكن، قال الزجاج: أخلد وخلد، والأول أكثر في اللغة والأرض ههنا عبارة عن الدنيا؛ لأن الدنيا هي الأرض بما عليها، وهذا الذي أخلد إلى الأرض أي أنه اطمأن إليها، وجعلها هي همه الأول والأخير، وركن إليها، ونسي الآخرة فكأنه لا يعرف إلا هذه الأرض وما عليها من أمور زائلة، فعندها انشغل بها وافتتن بها، ونسي أن له يوماً لن يخلفه، وأن أمامه موقفاً صعباً، وأنه سيحاسب على أعماله، وأن هذه الأيام، وهذه الشهور، وهذه السنون التي يقضيها في الأرض أنه سيحاسب بها، وأن عمره سيسأل عنه فيما أفناه، وأنه سيسأل عن هذا المال الذي جمعه من أين جمعه وفيما أنفق، وسيسأل عن صحته وعن عافيته وعن بدنه بماذا استثمر ذلك كله.

أما هذا الذي أخلد إلى الأرض وابتغى هواه فإنه غائب عن هذه المعاني السامية ولا يلتفت إليها، وإنما هو يعيش في دائرة مركزها وقطرها هو، لا يخرج عنها، منشغل بها، محيطة على جميع تفكيره ولا يفكر في غيرها، ولا ينظر إلى غيرها، ثم تأتية منيته يوم أن تأتية وهو مفرط في جنب الله، وهو غافل عن ذكر الله، وهو غير مطيع لله، فتأتية المنية على هذا الضلال، وعلى هذا الخسار، عندها يخسر الخسارة التي لا ربح بعدها ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ نعوذ بالله من الخسران وأهله ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من المفلحين وأن يجعلنا من السعداء وأن يجعلنا من المتعظين المعترين، هو ولي ذلك والقادر عليه.

المحاضرة السابعة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب الطالبات مع الدرس السابع والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع الحديث عن هذا الرجل الذي آتاه الله العلم والمعرفة ولكنه غفل عن هذا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه، وأعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ولكنه أخلد إلى الأرض، أي: ركن إلى الدنيا وسكن، قال الزجاج: يقال: أخلد وأخلد، والمقصود بالأرض ههنا هي الدنيا، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها، وفي معنى الكلام أخلد إلى الأرض قولان:
الأول: أنه ركن إلى أهل الدنيا، ويقال: إنه أرضى الناس بما يسخط الله.

الثاني: أنه ركن إلى شهوات الدنيا، وقد تبين ذلك في قوله ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والله يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ فهو الإنسان إذا لم يكن له عاصم من الكتاب والسنة فإنها تهوي به في مهاوي الردى، والمعنى: أنه انقاد إلى ما دعاه إليه هواه، قال ابن زيد: كان هواه مع قومه وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى، وهذه هي الطامة الكبرى أن يدخل إلى العالم، وإلى الفقيه، والقاضي، والمفتي، وهذا الذي يرجع إليه الناس، أن يدخل إليه في دينه الهوى وقتها لا ينتفع بالعلم الذي بين جنبيه ولا ينفع الناس حواليه، وهذه هي آفة العلم أن يدخل إليه الهوى، فإن الهوى يعمي ويصم، وصاحب الهوى لا يردعه حق، ولا يردعه زجر، وإنما هو تبع لهواه يميل مع هذه الهوى حيث مالت، وهنا تقع الطامة الكبرى عليه، ويكون العقاب عليه شديد؛ لأنه ليس جاهل وإنما هو عالم، وهذا العالم إذا وقع في الخطأ عن علم ومعرفة فإنه يختلف عمن يقع فيه عن جهل وعن ذهول، ولذا جاء هذا الوصف البشع، أو وهذا التمثيل لهذا النوع من الناس الذي بعد أن يؤتى العلم يصير إلى هذه الحال الرديئة قال الله في بيان مثل هذا النوع من الناس ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ معناه: أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالي الكلب، فإنه إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثاً، وإن ترك وربض كان أيضاً لاهثاً، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة المعنى.

فمثله كمثل الكلب لاهثاً، وإنما شبهه بالكلب اللاهث لأنه أخس الأمثال على أخس الحالات وأبشعها، قال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته، وكلاله وتعبه، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته و زجرته فسعى لهث، ولكنك لو تركته على حاله رابضاً لهث. قال المفسرون: زجر في منامه عن الدعاء هذا الرجل الذي أوتي آيات الله فانسلك منها أنه زجر في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر، وخاطبته أتاناه فلم ينته فضرب له هذا المثل ولسائل الكفار فذلك قوله ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لأن الكافر فإن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأته رسول ولا بينة.

وقد ضرب الله مثلاً آخر لمثل هؤلاء وهم أهل الكتاب الذين كان معهم علم ولم يعملوا به، فهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً شبههم ووضع لهم مثلاً كمثل الحمار، يحمل أسفاراً تصوروا حمار وعلى ظهره كتب العلم، هل يستفيد منها. وضرب المثل بالحمار وكما يقال: والله أعلم بأنه أغنى الحيوانات هذا إن صح هذا الكلام، حمار وفوقه كتب والكتب

على ظهره، هل يستفيد منها؟ لا، فذلك مثل أولئك الذين عندهم علم ولم يعملوا به، فإنه صاروا كحال هذا الغباء، كيف تعلموا هذا العلم؟ فصار حجة عليهم ولم يكن حجة لهم.

وفي هذا المثل الذي معنا الآن، هذا الذي أوتي الآيات والعلم، ثم تركه وأخلد إلى الأرض ويشابه أولئك الناس الذين لا علم لهم ولا بصر لهم بعواقب الأمور، وإنما هي طبيعتهم اللهاث وراء الدنيا، يلهثون وراءها دائماً وأبداً لا يفكرون، فهذا مثله عندما انصرف عن آيات الله، وعندما تنكب الطريق القويم،

قال جل وعلا ﴿فَاقْصُصْ الْقُصَصَ﴾ قال عطاء: قصص الذين كذبوا أنبياءهم، ليكون عظة وعبرة للمعتبرين، فإن في قصص هؤلاء عظة لنا؛ لئلا نقع فيما وقعوا فيه، فنكون سعداء، إذ السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه والشقي مركب نعوذ بالله من حاله هو الذي يوعظ بنفسه ولا يتعظ.

قال جل وعلا ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ * مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يقول سبحانه ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ يقال: ساء الشيء يسوء إذا قبح، والمعنى: ساء مثل القوم فحذف المضاف فنصب مثلاً على التمييز.

قوله ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ أي كانوا يضرون أنفسهم بسبب المعصية، فهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله، إنما هم قد ظلموا أنفسهم وإن معاصيهم ترجع إليهم، ولا يضروا الله أبداً، وهم المتضررون وحدهم، وهم الخاسرون في الدنيا والآخرة، وهم الظالمون أنفسهم عندما وضعوها هذا الموضع المشين.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ الله سبحانه وتعالى قد هدانا سبلنا وبين لنا طريق الخير والشر، قال سبحانه ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ هديت النجدين عرفت ووعيت وأدركت الخير من الشر، فلما تصر إلا طريق الشر. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إن هؤلاء الضالين والمتكبرين والمتجبرين إنما عملوا ذلك، وانساقوا إلى هذه الأوصاف القبيحة؛ لأنهم يحملون نفوساً شريرة، ولذا اختاروا هذا الطريق دون غيره، والله سبحانه قد بين لهم طريق الخير، لكنهم صموا آذانهم، وأغلقوا عيونهم عن الآيات التنزيلية التشريعية وعن الآيات الكونية.

قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لماذا كانوا من أهل النار؟ لأن لهم قلوب لا يفقهون بها، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كنا نسمع سماع نفع، وهنا ليس نفي للأدوات، الأدوات موجودة، كما هي موجودة عند المؤمنين موجودة عند الكافرين، لكن المؤمن ينتفع بتلك الأدوات أما الكافر فلا ينتفع بها، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو أن سمعنا كان سمع إدراك وسمع تبصر، ولو كنا نعقل عقلاً يرشدنا؛ لما وقعنا في هذا الموقع، فهم لاموا أنفسهم أنهم قد أغلقوا منافذ العلم، ومنافذ المعرفة. هنا يقول الله عنهم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ولماذا الجن والإنس فقط لأنهم هم المكلفون، وهم العقلاء الذين عليهم إن جرى قلم التكليف.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وأعين لا يبصرون بها ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما هذه الحال والله قد وهبهم ما لم يهبه لغيرهم، وقد فضلهم على غيرهم تفضيلاً، فضلهم على كثير ممن خلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١٠﴾ فلماذا عافوا هذه الفضيلة، و لماذا تركوها ولماذا شابهوا غير العاقل في تصرفاته فصاروا كهذه العجماوات، لا، بل هم أضلوا منها سبيلاً؛ لأن هذه العجماوات والحيوانات هي في أمورهما وما خلقت له تسعى كما أراد الله لها ذلك، الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى، هي تقوم بما خلقت من أجله، فلماذا أنت أيها العاقل لا تقوم بما خلقت لأجله؛ وقد أنبأك الله بما خلقت من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فأنت خلقت لعبادة الله سبحانه، فلما تشابهه هذه الحيوانات التي لم تكلف.

﴿وَلَهُمْ آدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ اسمعوا وصفهم وتشبيههم من خالقنا جل وعلا الذي هو خلقنا ويعلم خلقنا، قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي ولقد خلقنا، قال ابن قتيبة: ومنه ذرية الرجل إنما هي الخلق منه ولكن همزها يتركه أكثر العرب.

قوله ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة، كقوله ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزًا﴾ في القصص، ومثله قول الشاعر:

أموالنا لذوي الميراث نجتمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنينا
ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله يعزيه بموت ابنه فقال:	
تعز أمير المؤمنين فإنه	لما قد ترى يغذى الصغير ويولد

وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية بنفاذه علمه، فيهم سبحانه أنهم سيصيرون إليها بسبب كفرهم، والله جل وعلا لما خلق الخلق بل قبل أن يخلقهم وهو عالم ما هم عاملون ويعلم أي منقلب ينقلبون، وعلمه المحيط، وعلمه الواسع سبحانه وتعالى علمه بالأشياء قبل كونها إنما هو علم الإحاطة وليس فيه مأخذ لهؤلاء الذين يدعون أنهم مجبرون على هذه الأعمال، أو أنهم مسيرون لا مخيرون، لا، فالله جل وعلا هداانا النجدين وهدانا طريقي الخير والشر، دلنا عليهما بمعنى هداانا أي دلنا عليهما، فلماذا نأتي الذي هو شر ثم ندعي أننا مجبرون على ذلك، ونحن في أمورنا الاعتيادية لا نقبل أن يفعل أحد معنا شيئاً، ثم يقول: إنه مجبر على ذلك، وقد ضرب بعض العلماء مثلاً في ذلك عندما كان في حلقة رجل من هؤلاء الذين يفهمون النصوص فهماً غير صحيح، وقال: إنه يأتي المعاصي مجبراً وإلا فهو لا يريد، قال له: ادن مني. فلما دنا منه صفعه على وجهه فقال: لما صفعتني قال: أنا مجبر على ذلك. قال: لا، بل أنت فعلت باختيارك، قال: إذا عرفت أن لي ولك اختيار، لما كان الشيء ضدك عرفت ذلك.

إننا أيها الأخوة نعلم أننا نقع في هذه الدنيا كلها وما يقع في العالم كله علويه وسفليه إنما هو بعلم الله وإحاطته، وإرادته سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، فلما قال عن هؤلاء أنه ذرأ هؤلاء لجهنم يعني: أنه علم أن من الناس من لا يستفيد من هذه الأدوات التي أعطيها وأنه سيختار الضلال وأن نهايته ستكون إلى الوبال وإلى جهنم وبئس القرار، علمه سبحانه لا يعني إجبارهم على ذلك البتة، قال سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لما أعرض هؤلاء عن الحق، وعن التفكير في مخلوقات الله سبحانه، كانوا بمنزلة من لم يفقه وكانوا بمنزلة من لم يبصر وكانوا بمنزلة من لم يسمع قال محمد بن قاسم النحوي: أراد بهذا كله أمر الآخرة فإنه يعقلون أمر الدنيا، فعلاً هؤلاء الذين لا يسمعون ولا

ييصرون ولا يعقلون في أمور الآخرة، هم في أمور الدنيا على بصر بما وعلى خبر بما يعرفونها ويدركونها ولكنهم عن الآخرة هم غافلون، نسأل الله السلامة.

قال سبحانه في تشبيهه هؤلاء ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ شبههم بالأنعام لأن الأنعام تسمع وتبصر لكنها لا تعتبر، بمعنى: أنها قد ترى كما ترى أختها تذهب إلى طريق الردى أو ترى أختها تنحر مثلاً لكنها لا تترجم هذه الرؤية إلى إرادة فترجع عن هذا الطريق، تسمع أيضاً لكن سماعها هذا لا يترجم إلى ردة فعل، فهؤلاء في أمور الآخرة لا يحصل لهم ذلك عياداً بالله من ذلك.

قال ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها، وتدري مضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وكم من بهيمة الأنعام أعطيت نوعاً من الحشائش فأضرت في بطنها، تجدها لا تقبله بعد ذلك إطلاقاً، ولو خلق مع غيره لعافاته وانتقته من أنواع متعددة وأبت أكله؛ لأنها علمت مضرتها، وكم من بني آدم ممن يشرب أو يأكل أمور تضر ببدنه واتفق عقلاء بني آدم والأطباء على ضررها، ثم هو يحتسبها، ويعلم ضررها وقد يكون ممن يحذر منها.

إذا لم ينتفع بهذه الأدوات، لم ينتفع لا بعقله ولا سمعه ولا بصره في هذه القضية، وهذه الحيوانات فضلت على بعض بني آدم في هذا النحو.

قال ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أضل منها لأنهم إنما يفعلون ذلك على وجه العناد، فيقدم نفسه إلى النار، نعوذ بالله من ذلك، قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: الغافلون عن أمر الآخرة، الغافلون عن مصيرهم المحتوم، الغفلة آفة خطيرة، إذا أصابت الإنسان فإنها تصده عن الخير وتعميه عنه، ويغفل عن مصلحته، ولا يتدارك عمره فتمضي تلك السنين، ثم هو لا يعتبر يتقدم به السن، وهو لا زال مولعاً في المحرمات ولا زال والعاء في بعض المشتبهات، وللبيا ينتفع أبداً يبقى على غفلته وعلى لهوه، وعلى معاصيه نسأل الله السلامة، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ والله نھانا عن الغفلة.

فالغفلة تجعل صاحبها لا ينتبه لنفسه ولا يقدم عملاً لآخرته، فتمضي عليه الأيام وهو مفرط، نعوذ بالله من ذلك. قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ قيل في سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته في الحرم، ودعا الرحمن يعني: قال يا الله، ثم قال: يا رحمن، فرد عليه أبو جهل لعنه الله قائلاً: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو إلهين اثنين، فأنزل الله هذه الآية كما قال مقاتل.

وأيا كان سبب النزول فإن هذه الآية آية محكمة والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فأما الحسنى فهي تأنيث الأحسن، ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن، وذكر الإمام الماوردي أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعبود والرحمة دون السخط والنقمة.

قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها كقولك يا الله، يا رحمن.

قال بعد ذلك ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: يميلون بها ولا يدعون الله سبحانه وتعالى بها.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية الدرس.

المحاضرة الثامنة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب والطالبات مع الدرس الثامن والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته في الحرم، ودعا الرحمن يعني: قال يا الله، ثم قال: يا رحمن، فرد عليه أبو جهل لعنه الله قائلاً: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو إلهين اثنين، فأنزل الله هذه الآية كما قال مقاتل.

فأما الحسنى فهي تأنيث الأحسن، ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن، وذكر الإمام الماوردي أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعمو والرحمة دون السخط والنقمة.

قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها كقولك يا الله، يا رحمن. واطلبوا منه سبحانه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به، فتقول يا رحيم ارحمني، وتقول: يا رزاق ارزقني، يا هادي اهديني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي.

قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وعاصم وابن عامر يلحدون بضم الياء، وكذلك في النحل وفصلت، وقرأ حمزة يلحدون بفتح الحاء والياء فيهن، ووافقه الكسائي وخلف في النحل

قال الأخفش: ألحد ولحد لغتان فمن قرأ بهما أراد الأخذ باللغتي فكأن الإلحاد العدول عن الاستقامة، قال ابن قتيبة: يجورون عن الحق ويعدلون عنه فيقولون: اللات والعزى ومناة وأشباه ذلك، ومنه لحد القبر؛ لأنه في جانب منه، قال الزجاج: ولا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يسم به نفسه، فيقول: يا جواد ولا يقول: يا سخي، ويقول: يا قوي، ولا يقول: يا جلد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق، لأنه لم يصف نفسه بذلك، ولا وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والأسماء والصفات إنما هي توقيفية عن الله ورسوله، قال أبو سليمان الخطابي: ودليل هذه الآية أن الغلط في أسمائه والزيف عنها إنما هو إلحاد، ومما يسمع على السنة العامة قولهم يا سبحان يا برهان، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه. وربما قال بعضهم: يا رب طه، يا رب يس، وقد أنكر ابن عباس على رجل قال: يا رب القرآن، وروي عن ابن عباس أن إلحادهم في أسمائه أنهم سموها أصنامهم، وزادوا فيها ونقصوا منها فاشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا مناة من المنان. وجمهور المفسرين على أن هذه الآية محكمة؛ لأنها خارجة مخرج التهديد كقوله جل وعلا ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وكقوله ﴿ذَرْنُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بآية القتال، وإلى أن قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يقتضي الإعراض عن الكفار وهذا قول ابن زيد، لكنه سبحانه هدد الملحدين بأسمائه بتهديدين:

وذروا للتهديد، الثاني: سيجزون ما كانوا يعملون.

قال سبحانه في سورة فصلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾.

قوله جل وعلا ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾:

قوله سبحانه ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يعملون به، وبه يعدلون أي: وبالعامل به يعدلون، وفيمن أريد بهذه الآية أقوال أربعة للمفسرين:

الأول: أن هؤلاء هم المهاجرون والأنصار، والتابعون لهم بإحسان من هذه الأمة كما قاله ابن عباس. وكان ابن جريج يقول: ذكر لنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هذه أمتي بالحق يأخذون وبالحق يقضون ويعطون) وقال قتادة: بلغنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا تلا هذه الآية قال: (هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها، ثم يقرأ ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾).

الثاني: أنهم من جميع الخلق قاله ابن السائب.

الثالث: أنهم الأنبياء.

الرابع: أنهم العلماء.

وقد ذكر هذين القولين الأخيرين الإمام الماوردي في تفسيره.

قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، كقوله سبحانه ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾.

قوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال أبو صالح: عن ابن عباس هم أهل مكة، وقال مقاتل نزلت في المستهزئين من قريش.

قوله سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ قال الخليل بن أحمد: سنطوي أعمارهم في اغترار منهم، وقال أبو عبيدة: الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً، ولا يهجم عليه، وأصله من الدرجة، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئاً بعد شيء، ومنه درج القوم أي: إذا ماتوا بعضهم في إثر بعض، وقال اليزيد: الاستدراج أن يأتيه من حيث لا يعلم، قال ابن قتيبة: هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم به، ولا يجاهرهم. قال الأزهرى: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبوا، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويرتكنون إليه، ثم يأخذهم على غرهم أغفل ما يكونون، قال الضحاك: كلما جددوا معصية جدد الله لهم نعمة.

وفي قوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان:

الأول: من حيث لا يعلمون بالاستدراج.

الثاني: من حيث لا يعلمون بالهلكة.

قوله ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ الإملاء الإمهال والتأخير، فإن الله سبحانه يملئ للظالم حتى أخذه لم يفله، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال ابن عباس: إن مكري شديد، وقال ابن فارس: الكيد هو المكر، فكل شيء عاجلته فأنت تكيده، قال المفسرون: مكر الله وكيده مجازات أهل المكر والكيد.

قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ إن هو إلا نذير مبين، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ:

قوله سبحانه **﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾**: هذا رد على قولهم **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** فرد الله عليهم **﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾** وسبب نزولها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان على الصفا ليلة ودعا قريشاً فخذاً فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان، فحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا مجنون، بات يصوت حتى الصباح، فأنز الله هذه الآية. قاله الحسن وقاله قتادة ومعنى الآية: أولم يتفكروا فيعلمون ما بصاحبهم من جنة أي: من جنون فحثهم على التفكير في أمره، ليعلموا أنه بريء من الجنون، **﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا﴾** أي: ما هو إلا نذير أي: مخوف لكم من عذاب الله، مبين يبين طريق الهدى ويبين لكم طريقاً لا لبس فيه.

ثم حثهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال سبحانه **﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ليستدلوا على ذلك أن لهذا الخلق وهذا العالم أن له صانعاً مدبراً سبحانه، وهذا كقوله جل وعلا **﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** وقوله سبحانه **﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾** ، وإلى قوله سبحانه **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾** ، وقوله سبحانه **﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾**.

والتدبر في عظمة الله وحكيم صنع الله في الأنفس والآفاق يورث تعظيم الخالق جل في علاه فيخشاه، ولا يخشى أحد إلا الله، ولا يخشى أحداً سواه، وأنه وإن كان لا يراه فإن الله مطلع عليه يراه، يعلم سره ونحوه، يعرف أنه صائر هذا العبد لا بد أن يدرك ويعرف أنه صائر إلى جنة إن أطاع، أو أنه صائر إلى نار إن عصا.

قوله **﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾** يعني: يتفكروا أن هذا الذي أرسله الله مكتمل القوى عاقل.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والملكوت هو من أبنية المبالغة ومعناه الملك العظيم.

وقوله سبحانه **﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾** قرأ ابن مسعود وأبي الجحدري آجالهم، ومعنى الآية: أولم ينظروا في الملكوت، وفيما خلق الله من الأشياء كلها، وفي أن عسى أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على الكفر، ويصيروا إلى النار، فبأي حديث بعده يؤمنون، يعني: بعد القرآن وما فيه من البيان.

ثم ذكر سبب إعراضهم عن الإيمان فقال: من يضل الله فلا هادي له ويذرهم **﴿﴾** قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ونذرهم بالنون والرفع، وقرأ أبو عمرو بالياء والرفع، وقرأ حمزة والكسائي ويذرهم بالياء مع الجزم خفيفة، فمن قرأ بالرفع استأنف، ومن جزم ويذرهم عطف على موضع الفاء قال سيبويه: وموضعها جزم فالمعنى من يضل الله يذره، ويتركه. ومعنى قوله **﴿يَعْمَهُونَ﴾** أي: يتحيرون.

ثم قال جل وعلا: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**.

قوله سبحانه **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾** فكقوله سبحانه **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾** وكقوله سبحانه **﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾** وقال سبحانه **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾** في خمسة أشياء لا يعلمها إلا هو سبحانه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قيل في سبب نزولها قولان:

الأول: أن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة؟ فنزلت هذه الآية، كما قاله ابن عباس.

الثاني: أن قريشًا قالت: يا محمد بيننا وبينك قرابة فبين لنا متى الساعة؟ فنزلت هذه الآية. قاله قتادة، وجائز أن يكون الذي سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- أهل قريش أو اليهود، أو غيرهم، إنما جاء هذا السؤال ثم أتى هذا الجواب، وقال عروة: الذي سأل عن الساعة هو عتبة بن ربيعة، والمراد بالساعة ههنا هي التي يموت فيها الخلائق أي: متى تأتي هذه الساعة وهذا الوقت، وهو اسم من أسماء يوم القيامة.

قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى مرساها، أي: متى منتهاها، ومرسى السفينة حيث تنتهي، قال ابن قتيبة: أيان بمعنى متى، ومتى بمعنى أي، أي حين، ونرى أن أصلها أي أو إن، فحذفت الهمزة وجعل الحرفان واحدًا، ومعنى الآية متى ثبوتها يقال: رسا في الأرض أي: ثبت، ومنه قيل للجمال رواسي، قال الزجاج: ومعنى الكلام متى وقوعها. قال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: قد استأثر الله بعلمها ولم يطلع أحدًا على علمها، لا يجليها أي: لا يظهرها في وقتها إلا هو سبحانه وتعالى.

قوله ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في تفسير ذلك أقوال أربعة للمفسرين:

الأول: ثقل وقوعها على أهل السماوات والأرض كما قاله ابن عباس ووجهه أن الكل يخافونها محسنهم ومسيئهم.

الثاني: عظم شأنها في السماوات والأرض كما قاله عكرمة ومجاهد وابن جريج.

الثالث: خفي أمرها فلم يعلم متى كونها، قاله السدي.

الرابع: أن في معنى على، فالمعنى: ثقلت على السماوات والأرض، قاله قتادة.

قوله سبحانه ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا فِجَاءً﴾ أي: لا تأتيكم إلا فجأة، روى البخاري في صحيحه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ﴿لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبًا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتْبَاعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنٍ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا﴾ وهذا جزء من حديث طويل يدل على أن الساعة تأتي بغتة.

قوله ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ في ذلك للمفسرين أقوال أربعة:

الأول: أنه من المقدم والمأخر وتقديره: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: كأنك بر بهم، كقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

، قال العوفي عن ابن عباس، وأسباط عن السدي: كأنك صديق لهم.

الثاني: كأنك حفي بسؤالهم مجيب لهم، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: كأنك يعجبك سؤالهم، وقال خصيف

عن مجاهد: كأنك تحب أن يسألك عنها، وقال الزجاج: كأنك فرح بسؤالهم.

الثالث: كأنك عالم بها، قاله الضحاك عن ابن عباس، وهو قول ابن زيد والفراء.

الرابع: كأنك استحفيت السؤال عنها حتى علمتها. قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال عكرمة: كأنك سئول عنها،

وقال ابن قتيبة: كأنك معني بطلب علمها، وقال ابن الأنباري: فيه تقديم وتأخير تقديره: يسألونك عنها كأنك حفي بها،

والحنفي في كلام العرب هو المعني بالشيء.

قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها ولا يعلم وقوعها إلا الله جل جلاله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال مقاتل مع آخرين: المراد بالناس هاهنا هم أهل مكة، والأولى أن يكون أعم من ذلك، فأكثر الناس لا يعلمون من أهل مكة قبل فتحها وقبل انتشار الإسلام فيها، ومن غيرها وإلى قيام الساعة وأكثر الناس لا يعلمون. وفي قوله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان:

الأول: لا يعلمون أنها كائنة وواقعة. ولذا لا يعملون لها. ومن لا يعمل لليوم الآخر فإنه يفسد في الدنيا ولا يستعد للآخرة ومن يعرف في الآخرة ويحسب لها حسابها، فإنه يحسن في الدنيا، وقد مدح الله أنبياءه وأصفياه بأخهم على خير وعلى علم بالآخرة، قال سبحانه ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي: تذكر الدار الآخرة وأنها على بال منهم، ومن تكن الآخرة على باله أبداً وأبداً؛ فلا يقع في الذنوب إطلاقاً.

الثاني: لا يعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه، كما قاله أبو سليمان الدمشقي.
وإلى نأتي إلى نهاية درسنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

المحاضرة التاسعة والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد: إخواني الطلاب الطالبات مع الدرس التاسعة والعشرين من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس، في كلية الدعوة، ومع قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ سبب نزولها أن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فنشتري فريخ، وبالأرض التي تريد أن تجذب فنرتحل عنها إلى ما هو أخصب، فنزلت هذه الآية، روي عن ابن عباس: وفي المراد بالنفع والضرر قولان:

الأول: أنه عام في جميع ما ينفع ويضر، وهو قول الجمهور من المفسرين.

الثاني: أن المقصود به النفع والهدى والضرر والضلالة قاله ابن جريج.

قوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما أراد أن أملكه بتمليكه إياي، ومن هو على هذه الصفة فيكون يعلم علم الساعة. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما أراد أن أملكه بتمليكه إياي، ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة، الذي لا يعلم هذا لا يعلم علم الساعة، وهو تأكيد على أن علمها لله فقط. قوله ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ المقصود به أقوال أربعة:

الأول: لو كنت أعلم بجذب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لهيئت نفسي للسنة الجديبة ما بعدها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

الثاني: لو كنت أعلم ما أريح فيه إذا لا شيرته واستكثرت من الخير قاله الضحاك.

الثالث: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح قاله مجاهد.

الرابع: لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأجبت عنه، وما مسني السوء، أي: لم يلحقني التكذيب، قاله الزجاج. فأما الغيب فهو كل ما غاب عنك ويخرج في المراد بالخير، ها هنا ثلاثة أقوال:

الأول: أن الخير هو العمل الصالح.

الثاني: المراد به المال.

الثالث: الرزق.

وقوله ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ في ذلك للمفسرين أقوال أربعة: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾:

الأول: الفقر. قاله ابن عباس.

الثاني: كل ما يسوء، قاله ابن زيد.

الثالث: الجنون، قاله الحسن.

الرابع: التكذيب قاله الزجاج.

فعلى قول الحسن يكون هذا الكلام مبتدأ، والمعنى: وما بي من جنون إنما أنا نذير، وعلى باقي الأقوال يكون متعلّفاً بما قبله.

نتنقل إلى آية أخرى تذكرنا بالنشأة الأولى، وتوحيد الله سبحانه وبالنهي عن الشرك، قوله جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني بالنفس الواحدة آدم، وبزوجها حواء، ومعنى قوله ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليأنس بها ويأوي إليها، كقوله جل وعلا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: لما جامعها، قال الزجاج: وهذا أحسن كناية عن الجماع، والحمل بفتح الحاء ما كان في بطن، أو أخرجته شجرة، والحمل بكسر الحاء ما يحمل، والمراد بالحمل الخفيف الماء، يعني: أول ما تكون النطفة هنا يكون حملاً خفيفاً لا تحس به المرأة، ولا بثقله.

قوله ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت به قعدت وقامت ولم يثقلها، وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عباس والضحاك فاستمرت به، وقرأ أبي بن كعب والجنوني استمرت به بزيادة ألف، وقرأ عبد الله بن عمرو والجدري فمارت به بألف وتشديد الراء، وقرأ أبو العالية وأيوب ويحيى بن يعمر فمرت به، خفيفة الراء، أي: شكت وتمارت أحملت أم لا. ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: صار حملها ثقيلاً قال الأخفش: صارت ذا ثقل، يقال: أثمنا أي: صرنا ذوي ثمر.

قوله ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء، ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ وفي المراد بالصالح هنا قولان:

الأول: الإنسان المشابه لهما، وخافا أن يكون بهيمة، هذا قول بعض المفسرين؛ بناء على رواية إسرائيلية في تخويف إبليس لهما وسيأتي بيانه.

الثاني: أن المراد آتاهما صالحاً أنه الغلام، قاله الحسن وقتادة وعلى كلا القولين، فإن المقصود بالصالح هنا هو السوي وكانت عائشة رضي الله عنها، إذا ذكر لها أن امرأة من أقاربها ولدت يقال: بأنها لا تسأل أذكر أم أنثى إنما تقول: أسوي هو؟ أصالح هو؟ يعني: غير معاق، وأن أعضائه كاملة، فهذه نعمة تستحق الشكر لا الكفر والإشراك.

وهنا لبيان السبب في دعائهما هذا الدعاء على ما ذكر في كتب التفسير بعامة وخاصة المتقدمة منها من تلك الروايات المأخوذة عن بني إسرائيل، وأنا الآن أذكر طرفاً فقط لبيان عوار هذا القول، ذكر أهل التفسير: أن إبليس جاء حواء فقال: ما يدريك ما في بطنك لعله كلب أو خنزير أو حمار، وما يدريك من أين يخرج أيشق بطنك أم من فيك أم من منحريك، فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ فجاء إبليس فقال: كيف تجدنيك قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت قال: أفرأيت إن دعوت الله لك فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم، أتسمينه باسمي، قالت: نعم، فلما ولدته سوياً جاءها إبليس فقال: لما لا تسميه بي كما وعدتني، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث فسمته عبد الحارث، وقيل عبد شمس برضى آدم فذلك قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ويا سبحانه الله كيف

يكون هذا النبي وهو آدم وكيف تكون زوجه بهذه الصفة وبهذه الحال مع عدوها الذي أخرجهما من الجنة، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم، شركاء بضم الشين والمد، جمع شريك، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم شركًا مكسورة الشين على المصدر لا على الجمع، قال أبو علي: من قرأ شركًا حذف المضاف كأنه أراد جعل له ذا شرك وذوي شرك، فيكون المعنى: جعل لغيره شركًا، لأنه إذا كان التقدير جعلًا له ذوي شرك، فالمعنى: جعل لغيره شركًا، وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ شركاء. قال غيره: معنى شركاء شريكًا فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ والمراد بالشريك إبليس لأنهما أطاعاه في الإثم على هذه الرواية الغريبة، المنسوبة لبني إسرائيل، فكان الشرك في الطاعة لا في العبادة، ولم يقصد أن الحارث ربهما، لكن قصد أنه سبب نجاة ولدهما وقد يطلق العبد على من ليس بمملوك قال الشاعر:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا	وما في إلا تلك من شيمة العبد
-------------------------------	------------------------------

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد، فقال الشيطان: إذا ولد لكما ولد فسمياه عبد الحارث، فأطاعوه في الاسم، فذلك قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وهذا غير صحيح. وثمة قول رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما أشرك آدم إن أول الآية لشكر وإن آخرها مثل ضربه الله لمن يعبد في قوه ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وروى قتادة عن الحسن البصري رحمه الله قال: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا صالحين، أي: مكتملي الأعضاء، فهودهم ونصروهم، وهذا من أحسن التفاسير، وهو أولى ما حملت عليه الآية.

وروي عن الحسن وقاتدة قالوا: الضمير في قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم، لا إلى آدم وحواء، وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح وهو السليم الخلق فالمعنى: جعلًا له ذلك الولد شركاء، وإنما قيل جعلًا لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى، قال ابن الأنباري: الذين جعلوا له شركاء هم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء، فتأويل الآية: فلما آتاهما صالحًا جعلًا أولادهما له شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما قال، وأسأل القرية، واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه، وممن ذهب إليه الحسن البصري، وهو اختيار ابن كثير، وهو اختيار الزمخشري، والرازي، وذهب السدي إلى أن قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أنها في مشركي العرب خاصة وأنها مفصلة عن قصة آدم وحواء.

وبهذا نخلص إلى أن الآية أن المقصود بها ولد بني آدم الذين جاءوا بعد آدم فإن فيهم من رزقه الله ذرية صالحة أي: سوية مكتملة الخلقة، فبدل أن يشكر الله على ذلك وعلى نعمة الأولاد، قابل ذلك بالشرك به سبحانه، فهو المنعم جل وعلا، وهو المتفضل سبحانه ثم يجعل له شريكًا لم يعمل لهم شيئًا لو ينعم عليهم، ولذلك قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أيشركون من هو مخلوق مثلهم يشركونه في التعظيم ويشركونه فيما هو من خصائص الله؛ إذ كما هو معلوم أن تعريف الشرك هو تسوية غير الله في الله فيما هو من خصائص الله.

قال ابن زيد: هذه الآية لآدم وحواء حيث سميا ولدهما عبد شمس والشمس لا تخلق شيئًا، هذا على القول السابق المنسوب لبني إسرائيل، وقال غيره: هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام وهي لا تخلق شيئًا وهو الأصح كما مر قبل قليل.

قوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهذه الأصنام مخلوقة، قال ابن الأنباري: وإنما قال ما ثم قال وهم يخلقون لأن ما تقع على الواحد وعلى الجميع، وإنما قال وهم وهو يعني الأصنام؛ لأن عابديها ادعوا أنها تعقل وأنها تميز فأجريت بحري العاقل، فهو كقوله ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وكقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وكقوله ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ، قال الشاعر:

تمزتها والديك يدعو صباحه	إذا ما بنوا نعش دنوا فتصوبوا
وأنشد ثعلب لعبدة بن الطيب قوله	
إذا أشرف الديك يدعو بعض أسرته	لدى الصباح وهم قوم معازيل

ولما جعله يدعو جعل الديكة قومًا، وجعلهم معازيل وهم الذين لا سلاح معهم، وجعلهم أسرة، وأسرة الرجل رهطه وقومه.

قوله ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ هذه الآلهة المعبودة من دون الله لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصرًا ولا تنصر أنفسهم. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا﴾ أن الأصنام لا تستطيع نصر من عبدها ولا تمنع من نفسها، كما قال ذلك الرجل الجاهلي لما وجد الثعلب قد بال على رأس صنمه الذي يعبده:

أرب يبول الثعلبان برأسه	لقد هان من بالت عليه الثعالب
-------------------------	------------------------------

وقوله ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ فيها

قولان:

الأول: أنها ترجع إلى الأصنام، والمعنى: وإن دعوتهم أيها المشركون أصنامكم إلى سبيل رشاد لا يتبعوكم؛ لأنهم لا يعقلون.

الثاني: أنها ترجع إلى الكفار، فالمعنى: وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم، فدعواكم إياهم، وصمتكم عنهم سواء، لأنهم لا ينفقون إلى الحق، وقرأ نافع لا يتبعوكم، بسكون التاء ونظر ما هو واقع الأصنام المعبودة من دون الله يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

سبحانه لا نعبد إلا إياه عليه نتوكل وإليه ننيب.

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام عباد أمثالكم في أنهم مسخرون مذللون لأمر الله، وإنما قال: عباد و قال فدعوهم وإن كانت الأصنام جمادًا؛ لما بينا عند قوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فليجيبوكم إن كنتم صادقين، أتأ لكم عندها نفعًا وثوابًا.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ هنا يبين أن هذه المعبودات لا تقدر على إيصال المصلحة لها، فضلًا أن توصلها لغيرها، فهنا أدوات جلب الخير، أن تمشي إلى مصلحتها فهنا، ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ أي: إلى مصلحتها، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

يَبْطِشُونَ﴾ وهنا في دفع الضرر. وقرأ أبو جعفر يبطشون بضم الطاء ههنا وفي القصص، والدخان.
﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ﴾ يبصرون المنافع من المضار. ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ تضرعكم ودعاءكم وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين وتوبيخاً لهم، حيث إنهم عبدوا من هم أفضل منه، هم أفضل ممن عبدوا.
﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ كانوا يخوفونهم بألهتهم فقال الله تعالى ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ ادعوا هؤلاء ثم كيدوني يعني: أنتم وهم، ﴿فَلَا تُنْظِرُون﴾ أي: لا تؤخروا ذلك، وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحمة والكسائي يقرءون ﴿ثُمَّ كِيدُون﴾ بغير ياء في الوصف والوقف، وقرأ أبو عمر ونافع في رواية ابن حماد بالياء في الوصف، وروى ورش وقالون بغير ياء في الوصل ولا وقف، فأما تنظرون فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصف والوقف.
﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ﴾ أي: ناصري هو الله، الذي نزل الكتاب وهو القرآن، أي: كما أيدني بإنزال الكتاب، هو ينصربي سبحانه.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾
قوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام لا يستطيعون نصركم أي: لا يقدرّون على منعكم ممن أرادكم بسوء، ولا يمنعون أنفسهم من سوء أريد بهم قال بعد ذلك وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، قوله سبحانه ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ في المراد هؤلاء قولان:
الأول: أنهم الأصنام. ثم في قوله ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في ذلك قولان:
الأول: يواجهونك، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، يقصدون أن داري في مواجهة دارك ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لأنه ليس فيهم أرواح.

الثاني: وتراهم كأنهم ينظرون إليك؛ لأن لهم أعيناً مصنوعة فأسقط كاف التشبيه كقوله ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أي: كأنهم سكارى وهم لا يبصرون، أي: في الحقيقة وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم؛ لأنهم على هيئة بني آدم، أو تنزيلاً لغير العاقل تنزيلاً لخل العاقل، والقول الثاني: أنهم المشركون فالمعنى: وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم، ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لا ينظرون نظر اعتبار ولا يسمعون سمع انتفاع، ولذا لا ينتفعون بالآيات الشرعية التنزيلية ولا يستفيدون وينتفعون بالآيات الكونية، فهم لا يسمعون سماعاً ينفعهم ولا يبصرون بصراً ينفعهم، ولكن كما قال الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. عيونهم يبصرون بها لم ينكر الله هذه الأدوات وإنما أنكر عليهم ربنا عدم انتفاعهم بهذه الأدوات وكأنهم لم يعطوها، وهذا هو حالهم يعبدون على ضلالة عمياء، نسأل الله العفو والسلامة.

وإلى هنا ننتهي من الدرس التاسع والعشرين

المحاضرة الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: أخوتي الطلاب أخواتي الطالبات مع الدرس الثلاثين الدرس الأخير من دروس تفسير سورة الأعراف للمستوى الخامس في كلية الدعوة ومع أصول الأخلاق الاجتماعية في الإسلام أصول الأخلاق الاجتماعية في الإسلام مع قوله سبحانه ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) والعفو المقصود به هو الميسور السهل، وفي الذي أمر أن يأخذ العفو منه ثلاثة أقوال:

الأول: أخلاق الناس قاله ابن الزبير والحسن و مجاهد. فيكون المعنى: أقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقصي عليهم فتظهر منهم البغضاء.

الثاني: أنه المال وفيه قولان أحدهما: أن المراد بعفو المال الزكاة، قاله مجاهد في رواية الضحاك، والثاني: أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نسخت بالزكاة، روي عن ابن عباس.

الثالث: أن المراد به مساهلة المشركين والعفو عنهم ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد. والصحيح أنها آية محكمة غير منسوخة كما رجح ذلك ابن كثير والقرطبي والرازي وغيرهم.

أن الأمر بالصفح عن الجاهلين والأمر بهذه الأخلاق أنه باق حتى مع المعاندين وحتى مع الكفار فإنه باق ولا بد من ملاينتهم وقد وصف الله نبيه بقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) فلا بد من الليونة، ولا بد من هذا المران مع هؤلاء المعاندين كيما يستجيبوا لأمر الله، وليس صحيح بأن آيات العفو هذه نسخت بآية السيف، فهذا قول مرجوح.

قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فيها قولان:

الأول: أنهم المشركون أمر بالإعراض عنهم.

الثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفهمهم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم لكن ينكر عليهم إنكارا لا يحمل منكرا وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، عند بعضهم أنها منسوخة. والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

قوله ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ قال ابن زيد: لما نزلت ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- :

(يا رب كيف بالغضب) فنزلت هذه الآية.

وقال أبو عبيدة: وإما تستخفك منهم خفة وغضب وعجلة. وقال السدي: النزغ الوسوسة وحديث النفس. قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون، تقول: نزغته إذا حركته، تقول: وقوله ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو

والكسائي طيف بغير ألف، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة طائف، بألف ممدودة مهموزة، وقرأ ابن عباس وابن جبير والجاحدري والضحاك طيف بتشديد الياء من غير ألف، وهل الطائف والطيف بمعنى واحد أم يختلفان في ذلك قولان:

الأول: أنهما بمعنى واحد وهما ما كانا كالخيال والشيء يلم بك، حكى عن الفراء، قال الأخفش: الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف، قال الشاعر:

ألا يا قوم لطيف الخيال * أرق من نازح ذي دلال.

الثاني: أن الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف اللمة والوسوسة والخطرة، حكى عن أبي عمرو، وروي عن ابن عباس أنه قال: الطائف اللمة من الشيطان والطيف الغضب، قال ابن الأنباري: الطائف الفاعل من الطيف، والطيف عند أهل اللغة اللم من الشيطان، وذكر عن مجاهد أن المقصود به الغضب، ولا شك أن الغضب من الشيطان، فإما ينزغك نزغ من الشيطان فعليك بالاستعاذة بالله العظيم.

قوله سبحانه **﴿تَذَكَّرُوا﴾** فيه أقوال للمفسرين في معناها،

الأول: تذكروا الله إذا هموا بالمعاصي فتركوها، بمعنى: إذا وسوس لهم الشيطان في معصية من المعاصي، تذكروا الله وأنه يراهم ومطلع عليهم؛ فتركوها.

الثاني: تفكروا فيما أوضح الله لهم من الحجة، قاله الزجاج.

الثالث: تذكروا غضب الله.

المعنى: إذا جرأهم الشيطان على ما لا يحل تذكروا غضب الله فأمسكوا عما يغضبه فإذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بهذا التفكير، وتذكر عظمة الله، ومن يكن الله له على بال يخاف منه ولا يعصيه لأنه يعلم أنه يراه حيث كان.

ثم قال سبحانه **﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾**

قوله **﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾** في هذه الهاء والميم بعدها قولان:

الأول: أنها عائدة على المشركين، فتكون هذه الآية مقدمة على التي قبلها والتقدير: وأعرض عن الجاهلين، وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين.

﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ قرأ نافع يمدوهم بضم الياء وكسر الميم، والباقون بفتح الياء يمدوهم وضم الميم. قال أبو علي: عامة ما جاء في التنزيل فيما يحمد ويستحب أنبت على أفعلت كقوله **﴿أَتْمِدُّونِي بِمَالٍ﴾** **﴿أَتَمَّا تُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾** **﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾** وما كان على خلافه يجيء على مددت كقوله **﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾** فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء، إلا أن وجه قراءة نافع بمنزلة **﴿فَبَشَّرْنَاهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** قال المفسرون: يمدوهم في الغي أي: يزبنونه لهم ويريدون منهم لزومه، فيكون معنى الكلام: إن الذين اتقوا إذا جرهم الشيطان إلى الخطيئة تابوا منها، وإخوان الجاهلين وهم الشياطين يمدوهم في الغي، هذا قول الأكثرين من علماء التفسير، وقال بعضهم: الهاء والميم ترجع إلى الشياطين، وقد جرى ذكرهم لقوله **﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾** فالمعنى: وإخوان الشياطين يمدوهم.

الثاني: أن الهاء والميم ترجع إلى المتقين، فالمعنى: وإخوان المتقين من المشركين، وقيل من الشياطين يمدوهم في الغي،

أي: يريدون من المسلمين أن يدخلوا معهم في الكفر، ذكر هذا القول جماعة من المفسرين، فإن قيل: كيف قال: وإخوانهم وليسوا على دينهم؟

الجواب: أنا إن قلنا إنهم مشركون فجائز أن يكونوا إخوانهم في النسب أو في كونهم من بني آدم، أو لكونهم يظهرون النصح، كالإخوان، وإن قلنا إنهم الشياطين فجائز أن يكونوا لكونهم مصاحبين لهم والقول الأول أظهر.

قوله ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قرأ الزهري وابن أبي عبيدة لا يقصرون بالتشديد، قال الزجاج: يقال أقصر يقصر، وقصر يقصر، قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تقصر عنهم، فعلى هذا يكون قوله يقصرون من فعل الفريقين، وهذا على القول المشهور، ويخرج على القول الثاني أن يكون هذا وصفا للإخوان فقط، وشياطين الإنس مع شياطين الجن لا يقصرون في بذل ما يستطيعون في إغواء بني آدم وصددهم عن ذكر الله وعن الصلاة، لا يقصرون في ذلك ولا يتأخرون؛ بل هم يدأبون على ذلك ولا يملون، ولا يكلون، وينفقون الأموال الطائلة في صد بني آدم عن الملة الحنيفية إلى الشرك والوثنية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ يعني: به المشركين وفي معنى الكلام قولان:

الأول: إذا لم تأتكم بآية سألوها تعنتاً كما قاله ابن الساعي وغيره.

الثاني: إذا لم تأتكم بآية لإبطاء الوحي عليك، كما قاله مقاتل.

وقوله ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: لولا افتعلتها من تلقاء نفسك، كما يروى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد والفراء، والزجاج، وابن قتبية، وآخرين، يعني: يقولون لمحمد أعطينا من عندك آية، وحكى الفراء: أن العرب تقول: اجتبيت الكلام واختلقته، وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك، وقيل: إن معنى ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا طلبتها لنا قبل مسألتك، ذكره الماوردي، والأول أظهر. كأنهم يومتون إلى أن هذا الذي تأتينا به من عندك، فهلا جئتنا بشيء. فهنا يأتي الرد عليهم مبينا أن هذا الوحي الذي أوتي به ليس من عنده صلى الله عليه وسلم وإنما من أفق السماء مطلعته، وإنما هو نازل من السماء من الله سبحانه، عن طريق جبريل على قلبه - صلى الله عليه وسلم - بلسان عربي مبين. فبلغه - صلى الله عليه وسلم - لصحابته الميامين كما نزل عليه غضا طريا، وصحابته نقوله إلى التابعين بعدهم وهكذا جيلا بعد جيل، كما نزل عليه - صلى الله عليه وسلم - وهو أمانة بيننا الآن إلى أن ننقله إلى من بعدنا.

قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: ليس الأمر إليك، ولست آتي بشيء من عندي.

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: هذا الذي ينزل علي وهو الوحي وهو القرآن هو بصائر من ربكم، حجج وبراهين.

ثم قال جل وعلا ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ اختلف علماء التفسير في سبب نزولها على أقوال:

الأول: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ في الصلاة المكتوبة فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

الثاني: أن المشركين كانوا يأتون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا صلى فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزلت هذه الآية. قاله سعيد بن المسيب.

الثالث: أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً قرأ هو فنزلت هذه الآية، قاله الزهري.

الرابع: أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم، أول ما فرضت فيجيء الرجل فيقول لصاحبه: كم صليتم؟ فيقول: كذا وكذا. فنزلت هذه الآية قاله قتادة.

الخامس: أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة، روي عن عائشة وعن سعيد بن جبير، وعن عطاء ومجاهد، وعمرو بن دينار في آخرين، وهو أولى الأقوال في ذلك بالصواب، من أمر بالاستماع للقرآن إذا قرأ الإمام وكان من خلفه يأتى به، فهو أولى الأقوال بذلك.

قوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾

قوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ في هذا الذكر أربعة أقوال:

الأول: أنه القراءة في الصلاة. قاله ابن عباس. فعلى هذا أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار.

الثاني: أنه قراءة خلف الإمام سرا في نفسه كما قاله قتادة.

الثالث: أنه ذكر الله باللسان.

الرابع: أنه ذكر الله باستدامة الفكر لا يغفل عن الله تعالى. وقد ذكر القولين الماوردي.

وفي المخاطب بهذا الذكر قولان:

قيل: إنه المستمع للقرآن إما في الصلاة وإما من الخطيب قاله ابن زيد.

الثاني: أنه خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعناه عام في جميع المكلفين، أنه خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم-

وسلم، وهو عام لجميع المكلفين؛ لأن الخطاب له -صلى الله عليه وسلم- خطاب لأئمة إلا ما جاء الدليل بتخصيصه فيه -صلى الله عليه وسلم-.

قوله ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾

التضرع: الخشوع في تواضع. والخيفة: الحذر من عقابه.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الجهر: الإعلان بالشيء. ورجل جهير الصوت إذا كان صوته عاليا. وفي هذا نص على

أنه الذكر باللسان ويحتمل وجهين:

الأول: قراءة القرآن.

الثاني: الدعاء. وكلاهما مندوب إلى إخفائه، كما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

(كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أيها

الناس أربعوا على أنفسهم، إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، إنكم تدعون سمعياً قريباً، وهو معكم) وهذا لفظ مسلم.
أما صلاة الجهر فقد بين أدبها في قوله ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ فأما الغدو فهو جمع غدوة، والآصال جمع أصل، والآصل جمع أصيل، فالآصال جمع الجمع، والآصال العشيات. وقال أبو عبيدة: هي ما بين العصر إلى المغرب. وأنشد

لعمري لأنت البيت أكرم أهله * وأقعد في أفيائه بالآصال

وروي عن ابن عباس فقال: يعني بالغدو: صلاة الفجر، ويعني بالآصال: صلاة العصر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ إذا كان هؤلاء الكفار وهؤلاء المشركون يعبدون الأصنام ويجلونها ويظهرون لها الضراعة فإن هناك من يكون تضرعه لله، وخشوعه لله، وهم المؤمنون به سبحانه، وهم المؤمنون به سبحانه سواء كانوا ممن بلغتهم الرسالة على أيدي رسله أو سواء كانوا من عباده المقربين من الملائكة فإنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْثُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة، لا يستكبرون أي: لا يتكبرون، ولا يتعظمون عن عبادته، وفي هذه

العبادة قولان:

الأول: الطاعة.

الثاني: الصلاة، والخضوع، والخشوع لله سبحانه وتعالى.

فإذا كان هؤلاء الملائكة وهم من هم في خلقهم، وهم من هم في قربهم إلى الله، وهم من هم في طاعتهم له سبحانه؛ حيث إنهم لا يعصون، وقد خضعوا لله، وسبحوه سبحانه، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْثُونَ﴾ فما حال أهل الذنوب والمعاصي، وقد قست قلوبهم، وقد فترت ألسنتهم عن ذكر الله من دون تسبيح ولا تحليل ولا تعظيم لله سبحانه، فإذا كان هؤلاء المقربون وهؤلاء الذين خلقهم كما ذكر الله عن خلق بعضهم، خلق عظيم ومع ذلك خاضعون مسبحون بحمد الله، فما بال هؤلاء يتكبرون ويتعظمون العبادة، ولا يعبدون الله سبحانه وتعالى.

قوله ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ فيها قولان:

الأول: ينزهونه عن السوء سبحانه وتعالى، وهؤلاء ينسبون إليه السوء عندما يعبدون معه غيره، وعندما يظنون أن غيره يملك شيئاً من النفع والضرر.

الثاني: يقولون سبحان الله، فهم ينزهون الله على كل الأحوال، وعن كل ما لا يليق به.

قوله ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلون

السجود في اللغة هو الخضوع، فهم خاضعون لله، ساجدون لله، عابدون له، فما بال هؤلاء يجعلون خضوعهم لغير الله.

وابن آدم بطبعه عابد، فإذا أن يوجه هذه العبادة إلى من يستحقها وهو الله سبحانه فتكون عبادة شريفة ترفع صاحبها، وإلا فإنه قد يوجه هذا الشيء في طبعه، يوجه عبادته إلى من لا يستحقه، فتورثه مقتاً، وخسة ونذالة، عندما

يتوجه بكليته إلى من لا يملك الضر ولا يملك النفع، فهؤلاء يعبدون الله، ويسبحونه، وله يسجدون.
وقيل في سبب نزولها: أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا، فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأنًا منكم
وهم من هم في قربهم من الله، لا يتكبرون عن عبادة الله، وقد روى أبو هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما
أخرجه مسلم وابن ماجه قوله (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أمر هذا بالسجود
فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار) نعوذ بالله من النار وأهلها ونسأله بمنه وكرمه وفضله أن يجعلنا
ووالدينا وأهلينا من أهل الجنة.
إلى هنا نأتي إلى نهاية تفسير سورة الأعراف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم